الأمومة والبنوة
في الشعر الحديث
(1900-1958م)

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية
(2016/6/2735)

التميمي، ساجدة عبد الكريم
الأمومة والبنوة في الشعر الحديث/ ساجدة عبد الكريم التميمي
عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع2016
( ) ص
ر. ا. : (2016/6/2735)
الواصفات: الشعر العربي// النقد الادبي/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعتبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية آخرى.

Copyright ®
All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-9957-96-248-7

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي وجه أو بأي طريقة إلكترونية كانت أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل و خلاف ذلك إلا بموافقة على هذا كتابة مقدماً.

توزيع

- الطابق الأول
هاتف: 95007145 7 962+
E-mail: darghidaa@gmail.com

تلفاكس: 5353402 6 962+
ص.ب: 520946 عمان 11152 الأردن

الأمومة والبنوة
في الشعر الحديث
(1900-1958م)

أ. د. ساجدة عبد الكريم خلف التميمي

الطبعة الأولى
2017 م – 1438هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾

صدق الله العظيم

(سورة الكهف، آية 109)

الإهداء

بكل اعتزاز وفخر أرفع هذا العمل المتواضع الذي سهرت من أجله الليالي الطوال وأفرغت فيه كل جهدي وطاقتي هدية إلى...

اللذين قرن الله طاعتهما بطاعته وبذلا كل غالٍ ونفس من أجلي والدي الكريمين أطال الله في عمرهما... داعية من الله أن يرحمهما كما ربياني صغيرا.

وإلى أستاذي العلامة الجليل د. محمد جواد الغبان... إخلاصاً وعرفاناً...

سائلة الله العلي القدير أن يحفظهم ذخراً لي ويجزيهم عني خيراً إنه نعم المولى ونعم النصير...

ساجدة التميمي

الفهرس

المقدمة 11
التمهيد 18
الفصل الأول : العلاقات الأسرية والتربوية في شعر الأمومة والبنوة.. 51
الفصل الثاني : العلاقات الاجتماعية في شعر الأمومة والبنوة..... 96
الفصل الثالث : العلاقات العاطفية في شعر الأمومة والبنوة..... 131
المصادر..... 186

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، والصلاة والسلام على رسوله محمد الذي أتاه جوامع الكلم، وخصه بمزيد فصاحة وحسن بيان.

وبعد...

منذ بدايات دراستي في مرحلة البكلوريوس كان في نفسي ميل شديد وطموح قوي إلى التخصص في دراسة الأدب العربي الحديث بمختلف مجالاته الواسعة، وبمرور الأيام تعمق ذلك الميل في نفسي حتى أصبح رغبة ملحة وحاجة عميقة أطمح إلى تحقيقها. وحين أنهيت مرحلة البكلوريوس وتوجهت بتوفيق الله سبحانه وتعالى إلى دراسة الماجستير، كانت تلك الرغبة تزداد اتساعاً وعمقاً وتشغل حيزاً كبيراً من فكري.

وإذا سألني سائل عن أسباب تلك الرغبة تجاه الأدب الحديث، فإنها تتلخص في أن الأدب الحديث بما ينطوي عليه من تجديد في الأساليب وتجديد في الأغراض تجعل مادته أشد التصاقاً بالقضايا الإنسانية والاجتماعية المعاشة وأكثر تعبيراً عن العواطف والأحاسيس الصادقة تجاه تلك القضايا، وتجعل أساليبه أكثر نفاذاً إلى أعماق النفس لسهولتها وبساطتها وعدم تعقيدها مما حببه إلى نفسي.

وحين جاء دور اختيار الموضوع لدراسة الماجستير لم أخرج بطبيعة الحال عن دائرة ذلك التوجه بل صرت أكثر التصاقاً وارتباطاً بها، ولكنني في الوقت نفسه وجدت نفسي في شبه متاهة من طريق طويل متشعب الجوانب وذلك لأن الأدب الحديث واسع المجالات بحيث لا يستوعب مجالاته عد ولا حصر، وبينما أنا أمام تلك المتاهة وقف إلى جانبي أستاذي الفاضلان (د. محمود عبد الرزاق ود. احمد العزاوي) فعرضا علي الكتابة عن موضوع (الأم في الشعر العراقي الحديث) فكان ذلك بداية وضع قدمي على معلمٍ محدد واضح المعالم من تلك الدائرة الواسعة.. وهرعت إلى المكتبات لأبحث عن مصادرٍ الموضوع، فلم أجد فيها ما يكفي لتقديم موضوع أرغب أن آتي فيه بشيء جديد، وهنا جاء دور أستاذي المشرف د. عناد غزوان بعد أن راجعته حول المتاهة التي أنا فيها فنصحني بتوسيع الفكرة لجعلها أكثر مرونة كأن تكون مثلاً (الأمومة في الشعر العراقي الحديث) وللأمومة جرسها الموسيقي في نفسي فدخلت هذه الفكرة رأساً في حناياي حتى أصبحت تماسيني وتصابحني كل يوم، ولكنني في الوقت نفسه كنت أشعر أن هذا الموضوع ليس بالشكل المتكامل الذي أطمح إليه وذلك لأن الأمومة التي شغلت فكري لا يكتمل معناها في الذهن إلا بالنبوة التي تتلاحم معها تلاحماً كاملاً، وأخيراً انتهيت إلى أن يكون موضوعي (الأمومة والنبوة في الشعر العراقي الحديث) وحددت له فترة زمنية مساحتها من بداية القرن العشرين حتى نهاية عام 1958م فأحسست بانشدادي إلى هذا الموضوع وإذا أنشد الإنسان إلى شيء انصرف إليه بكل طاقاته وإمكاناته؛ ومما زادني اهتمام بهذا الموضوع وانشداداً إليه أنني خلال تتبعي في البحوث والرسائل الجامعية لم أجد رسالة واحدة تعالج موضوعي أو تطرح الأفكار التي اهتمت بها فصوله أو تهتم بجمع مادته الشعرية الجديدة الرائعة التي يثير اعتزازي أنها تكون ديواناً رائعاً يعبر محتواه عن مشاعر الشعراء

الرائعة التي يثير اعتزازي أنها تكون ديواناً رائعاً يعبر محتواه عن مشاعر الشعراء المجددين تجاه الأمومة والبنوة من مختلف جوانبها.

وهرعت إلى المكتبات أبحث عن مصادر الموضوع من جانب وعن الكتب والدراسات والرسائل المتعلقة به أو تقترب منه أو تحوم حوله من جانب آخر.

وبالنسبة للمصادر فإنها بطبيعة الحال تتعلق بالشعر، وبالشعر وحده فبدأت أبحث عن المادة الشعرية التي تتعلق بالأمومة والبنوة، فتبين لي أن تلك المادة من الشعر العراقي الحديث كثيرة وغزيرة ولكنها مبثوثة في ثنايا دواوين ومجموعات شعرية مطبوعة ومخطوطة، ولا أظنني أحتاج إلى شرح المعاناة الصعبة التي عشتها في الحصول عليها جميعاً لأن تلك الدواوين والمجموعات وحتى المطبوع منها ليس متوفراً في جميع المكتبات العامة والخاصة، فقد يكون قدم المطبوع وندرته سبباً مهماً في عدم تيسر الوصول إليه بسهولة ويسر، بالإضافة إلى أن المخطوط من تلك الدواوين والمجموعات يكون الحصول عليه أكثر صعوبة، ويحتاج إلى مزيد من البحث والمراجعات لذوي الشأن من أصحاب تلك المراجع المخطوطة وهناك كثير من الشعر لشعراء لم تطبع دواوينهم ولكن شعرهم مبثوث على صفحات المجالات والجرائد العراقية القديمة مما يحتاج إلى بذل المزيد من الجهود في سبيل الحصول عليها.

وهكذا فإنني بذلت كل ما يمكن أن يبذله طالب جاد يريد لموضوعه أن يقارب الكمال، لا أن يبلغه، لأن الكمال لله وحده، وعلى سبيل المثال فإنني وفي صدد الحصول على ديوان مطبوع واحد – مثلاً – راجعت مكتبات عامة وخاصة، فلم أظفر بالحصول عليه إلا بعد جهد جهيد في مكتبة واحدة من المكتبات الخاصة.

ذلك بالنسبة للمصادر أما بالنسبة للكتب المؤلفة والمتعلقة بالموضوع فقد حاولت جاهد الوقوف على تلك الكتب المتعلقة بهذا الموضوع سواء من جوانبه العامة أم جوانبه الخاصة فوجدت كتباً كثيرة كانت عناوينها تلفت انتباهي فأهرع إليها وحين أقرؤها بغية الإفادة منها لم أجد شيئاً جديداً أضيفه إلى ما لدي من الآراء أو الأفكار أو المادة الشعرية.. وذلك ما أخذ مني الوقت الكثير ولم يعد على موضوعي حتى بالشيء القليل وإن كان قد عاد على معلوماتي العامة من دون شك بما يوسع من آفاقها ويزيد من خزينها.

أما بالنسبة للدراسات والرسائل الجامعية التي تخص الموضوع أو تقترب منه أو تحوم حوله، فقد استقصيت كل تلك الرسائل المتوفرة في المكتبات الجامعية لعلني أجد فيها ما يعود عليّ بالفائدة المبتغاة. وبعد الاستقصاء المضني وبذل الجهد والوقت اللازمين للاطلاع على محتويات تلك الرسائل لم أظفر فيها بما يغني بحثي بالمادة أو الأفكار أو الآراء وكل ما وجدته بين تلك الرسائل الكثيرة جداً هو ثلاث رسائل رأيت فيها ما يمس موضوعي من طرف من أطرافه حتى لو كان ذلك المس خفيفاً جداً... كانت أولاها – رسالة الدكتوراه المقدمة من الأساتذة الدكتورة عربية توفيق لازم والموسومة بـ (المرأة في الشعر العراقي الحديث) التي تستعرض المرأة بصورتها العامة في حين أن موضوعي يتعلق بالمرأة الأم وحدها بما تحمل الأمومة من خصوصيات وبما تنطوي عليها – ويندمج معها – من البنوة التي هي أغلى ثمرة تقتطفها البشرية من شجرة الأمومة الخالدة.

والرسالة الثانية – هي (التيار الاجتماعي في الشعر العراقي الحديث) للدكتورة ابتسام عبد الستار محمد، والتي كانت أكثر قرباً من رسالتي وأشد التصاقاً بها لأن فصلاً كاملاً من رسالتي هو الفصل الثاني بكامله أتحدث فيه عن (العلاقات الاجتماعية في شعر الأمومة والبنوة) ومن هنا تلك الرسالة موضعاً لانتفاعي بمادتها وأفكارها وآرائها في فصل من فصول هذا البحث.

والرسالة الثالثة – هي رسالة (الأمومة والبنوة في التراث العربي حتى نهاية القرن الأول الهجري) للدكتورة انعام داود سلوم، فنحن إذاً التقينا عليها نظرة عاجلة نجدها تتحدث عن موضوعي نفسه.. ولكن في إطاره العام لا الخاص لأنها تحدد مساحة لموضوعها تمتد من العصر الجاهلي حتى نهاية القرن الأول الهجري.. أما أنا فقد اتخذت لموضوعي مساحة أخرى تمتد من بداية القرن العشرين حتى نهاية عام 1958م ولكن – والاعتراف من سمات الأمانة العلمية – لا بد لي أن أقول أن موضوعها بإطاره العام هو الذي بلور لي الأفكار التي كانت تخالجني حول موضوعي حتى أخذ شكله النهائي (الأمومة والبنوة في الشعر العراقي الحديث).

وأما تحديد الفترة الزمنية لبحثي من بداية القرن العشرين حتى نهاية عام 1958م فإن سببه يعود إلى أن بدايات هذا القرن نضجت فيها عوامل النهضة الأدبية الحديثة وآتت ثمارها جنية شهية فكان التجديد الشامل في مجال الشعر ومواضيعه، حيث كان الأسلوب بعيداً عن التكلف والتعقيد، معتمداً السهولة والاسترسال وعدم التكلف، وكانت مواضيع الشعر وأغراضه جديدة كل الجدة، تعنى بأمور المجتمع في شتى مجالاته عناية فائقة، مما جعل الأمومة والبنوة تأخذ من تلك العناية ما يغني شتى جوانبها بالشعر الحديث الرائع، فلم يدع مجالاً من مجالات الأمومة والبنوة إلا وتطرق إليه ولا مشكلة من مشاكلها إلا وعالجها.

وأما نهاية مساحة البحث فإننا حين جعلناها تمتد إلى انتهاء عام 1958م فإننا نبغي من وراء ذلك أن نستثمر معطيات ثورة تموز التي أعادت للمرأة عموماً، وللأم بصورة خاصة ولابنائها بصورة أخص مزيداً من الحقوق، ونفضت عنها غبار الجهل والتخلف لتقف المرأة إلى جنب أخيها الرجل في ميادين العمل الجاد من أجل النهوض بمستوى الآسرة والمجتمع، ومما يجب أن لا ننساه في ذلك المجال أن الاحتفالات بعيد المرأة وعيد الأم ونحوها كان من تلك المعطيات لثورة تموز الخالدة.

أما مادة البحث التي تتكون منها فصول الرسالة فهي تعتمد كل الاعتماد على شعر الأمومة والبنوة الذي جادت به قرائح شعراء العراق المجددين على امتداد مساحة ثمانية وخمسين عاماً. وهي فترة واسعة كثيرة العطاء، فقد كانت تمثل غزارة الإبداع الشعري الحديث وقمة نضجة واتساع معالجاته لقضايا الإنسان والمجتمع في شتى مجالاتها، وبطبيعة الحال فقد كان نصيب الأمومة والبنوة كثيراً من تلك الغزارة الشعرية ومن مساحة الشعر العراقي الحديث.

وكم أبهجني وأسعدني أن كانت جهود تتبعي موفقة وأتعابي مثمرة حيث وجدت بين شعراء العراقي في تلك الفترة الزاخرة بالمبدعين المجددين من الشعراء المحدثين (سبعة وخمسين) شاعراً كانت الأم في صميم ضمائرهم وكان الأبناء في أعماق وجدانهم،

فاغتنموا كل فرصةً وتصيدوا كل مناسبة ليعبروا من خلالها عن أصدق الود تجاه أمهاتهم الغاليات وأبنائهم الأحباء، فاعتصروا أزهار الحب الصميم من جنائن عواطفهم الفياضة ليرشوها أشذاء عطرة على جباه أمهاتهم وثغور أبنائهم ولحنوا مشاعرهم المتدفقة أغنيات رقيقة ينشدونها لتلك الأمهات، وأهازيج عذبة يناغون بها أولئك الأبناء.. فاجتمع من هذا وذاك ديوان شعري ضخم يضم ثروة شعرية كبيرة تأخذ مكانها الكبير من مساحة الشعر الحديث. وتلك الثروة الشعرية التي اوحتها الأمومة والبنوة والتي كان لي شرف القيام بجمعها وتصنيفها وتبويبها هي التي حددت لي فصول الرسالة وسمت لي عناوين أبحاثها، لأنني وبعد القيام بترتيبها وتنسيقها وجدتها تدور في ثلاثة محاور كان الأول منها يعني بالعلاقات الأسرية والتربوية حيث تدفقت قرائح الشعراء بقصائد تعرب عن مكانة الأم المقدسة في البيت وأثرها الكبير في بيان دور الأسرة في بناء الأسس الثابتة لمجتمع مزدهر، فكان بحث (مكانة الأم في البيت وأثرها في العلاقات الأسرية) وهناك قصائد أخرى نتحدث عن الأهمية البالغة لما تقوم به الأمهات من تربية مثالية لأبنائهم وما يعكسه ذلك على سلوك الأبناء أولاً وعلى المجتمع ثانياً.. وحين استقصيت ذلك الشعر وجدته يرسم لنا صوراً بديعة حول الموضوع تكون من خلال الأبوين – الأب والآم معاً – وما ذلك إلا لأنهما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة تستهدف بقاء النوع الإنساني وحفظه وتوجيهه الوجهة اللائقة به فكان اسم أحد الوجهين (الأب) واسم الوجه الآخر (الأم) ومن هنا كان الحديث عن دور أحدهما يلزمنا بالضرورة أن نتحدث عن دور الآخر لأن رسالتهما النبيلة واحدة وأغراضهما الإنسانية واحدة لذلك كان الشعراء حيث يتحدثون عن تربية الأبناء المثالية فأنما يتحدثون عن دورهما معاً لأن دور أحدهما لا يمكن أن ينفصل عن دور الآخر بل هو مكمل له، لذلك كان بحث (تربية الأبوين المثالية لأبنائهم) واقتضانا الحديث أن نقارن بين الأمهات المتعلمات والجاهلات ومردود ذلك على تربية أبنائهن حيث يترك الانعكاسات البالغة على حياتهم فكان بحث (بين الأمهات المتعلمات والجاهلات) وجرنا سياق الحديث عن تعليم المرأة إلى أثر الحجاب على عملية تعليمها وما استوحاه الشعراء من ذلك مما أنتج بحثاً عنوانه (أثر الحجاب في تعليم المرأة) وبما أن العصر الحديث ومتطلبات الحياة أنزلت المرأة إلى ميادين العمل مما يترك أثاره على تربية الأم لأبنائها، مما لفت انتباه بعض الشعراء المعاصرين وعرضوها كمشكلة من مشاكل الحياة العامة أثمرت بحث (عمل الأم خارج البيت وأثره في تربية الأبناء) وختمت الفصل الأول ببحث سادس يتضمن(وصايا الآباء لأبنائهم) لأن في ذلك من الأهمية البالغة مما يدلل على اهتمام الوالدين بأبنائهم وايلائهم ما يستحقون من الاهتمام.

أما المحور الثاني الذي تدور رسالتي حوله فهو يعنى بما قاله الشعراء العراقيون حول العلاقات الاجتماعية التي تخص المرأة الأم وانعكاسات تلك القضايا الاجتماعية على حياتها الخاصة ومن ثم على أبنائها، فكان العطاء الشعري حول جزئيات تلك المواضيع كثيراً جداً، جعل ذلك الشعر تنطوي تحته ستة بحوث كانت تدور حول حقوق المرأة الاجتماعية وأثرها في تربية الأبناء، والزواج وما يترتب عليه من مهام ومسؤوليات تربوية، ثم ينتهي بنا ذلك إلى مشكلة الطلاق التي تعد أخطر المشاكل التي تترك طابعاً مهماً على عالم البنوة بأسره، وانتهى بنا الحديث إلى الترمل الذي يحدث لقسم آخر من

الأمهات مما يترك أثره البالغ على حياتهن فكانت له عند الشعراء المعاصرين صور مهمة عرضتها ببحث خاص، والترمل بطبيعة الحال يجرنا إلى الأولاد الذين يصيرون يتامى بعد فقد أبائهم وانعكاس اليتم على حياتهم مما صوره الشعراء أبلغ تصوير، والبحث السادس والأخير من الفصل الثاني ما آثار انتباه الشعراء إلى وقوع المرأة الأم في الخطيئة والآثار الخطيرة التي تترتب على تربية الأبناء وحياتهم.

وكان المحور الثالث لهذه الرسالة أغنى المحاور وأغزرها بالمادة الشعرية وسبب ذلك لأن ماديته برمتها تدور حول العلاقات العاطفية التي تشد بين قلوب الوالدين وأبنائهم، وتربط بين بعضهم البعض مما جعل الشعراء وهم أقدر الناس على التعبير عن مجال العاطفة الإنسانية، يبدعون شعراً رائعاً فيما يتعلق بتلك العلاقات وأول ما يولد الأبناء يبدأ الوالدان بمناغاتهم تعبيراً عن حبهم لهم وتعلقهم بهم، فناغى الشعراء من الآباء والأمهات أبناءهم بقصائد شعرية تفيض رقة وعذوبة وعاطفة، ومن هنا كان البحث الأول من هذا الفصل يحمل عنوان (مناغاة الآباء والأمهات لأبنائهم) والبحث الثاني – يدور حول ما عبر به الشعراء الأبناء عن المشاعر الصادقة تجاه أمهاتهم، ووجدت بين مادة هذا الفصل الشعرية قصائد يحن فيها الأبناء إلى أمهاتهم في رسائل شعرية يبعثونها إليهن فكان حصيلة ذلك البحث الثالث – الذي يحمل عنوان (حنين الأبناء إلى الأمهات في رسائل شعرية). وحين قامت ثورة تموز عام 1958م التي تنتهي بنهايتها مساحة رسالتي هذه، احتفلت بتكريم المرأة الأم فكان (عيد المرأة وعيد الأم) فتفجرت قرائح الشعراء تكرم تلك المرأة الأم فكان (عيد المرأة وعيد الأم) فتفجرت قرائح الشعراء تكرم تلك الأعياد وتحتفل بها مما جعل ذلك مادة لبحث (تحايا شعرية من الأبناء إلى الأمهات في عيد الأمومة).

ومن تلك المادة الغزيرة المتعلقة بالتعبير عن العلاقات العاطفية ما قام به الشعراء الآباء في تصوير مشاعرهم الحزينة والعميقة حين يفجعون بأبنائهم، مما أغنى بحث (رثاء الوالدين لأبنائهم) وكان البحث السادس من الفصل الثالث والأخير من فصول الرسالة ما تفجرت به قرائح الأبناء حين يفجعون بفقد أمهاتهم الغوالي فتتحول دموعهم المتناثرة إلى قصائد ينظم عقودها ألم الفجيعة.

تلك فصول الرسالة الثلاثة بما انطوى عليها من المادة الشعرية التي أرى وجوب الإشارة إلى أنني لم أقم بعرض المادة في مواضيعها كما هي، بل استعملت ما أملكه من إحساس وذوق فني متواضع، فقمت باختيار الأروع والأجود من ذلك الشعر الرائع الجيد فكانت الأشعار والقصائد المثبتة في فصول الرسالة تدخل كلها في باب الاختيارات التي آمل أن تكون موفقة، كما أنني كنت أحاول التعليق على كل تلك المختارات لبيان ما تنطوي عليه من صور بديعة في التعبير عن أعمق الأحاسيس والمشاعر المتعلقة بالأمومة والبنوة...

وبعد الانتهاء من تهيئة مواد فصول الرسالة التي ألمحت إليها كان لا بد لي من تصديرها بتمهيد استعراض فيه – ولو بإيجاز – ما عبر به الشعراء – على مر عصور الأدب العربي – ومنذ العصر الجاهلي إلى الفترة التي تسبق بداية القرن العشرين، التي

هي باية النهضة الأدبية الحديثة، من أشعار تجاه الأمومة والبنوة وما صاغته قرائح الشعراء من تلك المشاعر الإنسانية الغريزية.

وبما أن المساحة – الزمنية – التي يشغلها هذا الشعر واسعة شاسعة، تستغرق عدة قرون، فإن ذلك اقتضى أن أراجع عشرات المصادر الأدبية وعشرات الدواوين الشعرية والدراسات الأدبية المتعلقة بذلك، فاجتمعت لدي مادة غزيرة استغرق جمعها وقتاً كثيراً وجهداً كبيراً، بحيث كانت تلك المادة ربما تفوق بكثرتها حجم رسالتي كلها، فاضطررت إلى الاختصار والإيجاز جهد الإمكان حتى جاء بشكل رأيته أيضاً موسعاً لا يناسب مكانته كتمهيد.. واختصرت مرة أخرى حتى استوى على حجمه الحالي الذي يتصدر به الرسالة بعد ضغوط واختصارات عديدة.

ومما يجب أن أشير إليه وأنا في صدد الحديث عن التمهيد أن مواضيع مادته الشعرية تختلف في كثير من مواضيعها عن شعر الأمومة والبنوة الذي قمنا بدراسته في العصر الحديث لأن مواضيع دراستي أكثر اتساعاً وأكثر تعبيراً عن العلاقات الاجتماعية والأسرية التي تربط بين الأمهات وأبنائهن.. وكذلك الأساليب الشعرية فإن أساليب العصور التي يشملها التمهيد يمثل كل منها طابع عصره الذي أنشئت فيه بما ينطوي عليه ذلك الطابع من تعقيد أو تكلف خلاف أساليب العصر الحديث التي تمتاز باليسر والسهولة وعدم التكلف.

ولا يفوتني التنبيه والإشارة إلى أن الأمومة والبنوة التي احتواها التمهيد كانت تشمل العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي، أما بعد ذلك من قرون الفترة المظلمة، فلم يمحو التمهيد أي أشعار تتعلق بالأمومة والبنوة، ليس لأنني لم أبحث عنها بل كثفت البحث في الدواوين المتوفرة حول أشعار تلك القرون، فلم أجد فيها شيئاً يخص الموضوع لا من قريب ولا من بعيد؛ وبعد تتبع طويل استغرق مزيداً من الوقت ثبت لي أن عصور الفترة المظلمة اتصف عطاؤها الشعري بالتعقيد والتكلف والصناعة اللفظية والمواضيع الجافة التي لا تعبر عن عاطفة صادقة وشعور فياض، وإذا وجد شيء نادر من ذلك – وهو ما لم أجده – فإنه خالٍ من أي صدق وأي إحساس عاطفي. ذلك ما أوجزته هنا، ولقد استعرضته بشيء من التوضيح والتركيز بعد (التمهيد) تحت عنوان (مدخل إلى العصر الحديث) ليحكم صلة الربط بين التمهيد وفصول الرسالة ويشد بين أواصر المادة التي أعرضها لتكون وكأنها نسيج متماسك الحلقات.

وقبل ختام هذه المقدمة لا بد لي أيضاً من الإشارة إلى أن كثيراً من المؤلفين الذين يقدمون بحوثاً ورسائل جامعية أدبية مادتها الأساسية من الشعر يقومون بتقديم دراسة (فنية) في فصل خاص من فصول الرسالة، وبعد التمعن في الموضوع والتأمل فيه رأيت – وبعد موافقة أستاذي المشرف – أن لا تحوي رسالتي هذه دراسة فنية للشعر الذي فيها، وذلك لأسباب ربما يكون أهمها – فيما بدالي- إن الدراسة الفنية في مثل موضوعي (الأمومة والبنوة في الشعر العراقي الحديث من 1900-1958) فيها شيء من الخروج على المنهجية السلمية، لأنه ليس في عنوان رسالتي أي شيء يشير إلى الدراسة الفنية لا من قريب ولا من بعيد.

ثم أن الشعر الذي يضمه موضوعي والمبثوث في ثنايا فصوله وأبحاثه كثير جداً ودراسته تحتاج إلى مساحة كبيرة – إن كانت منصفة ولو بالتركيز- ربما تساوي حجم رسالتي هذه كله.

وثالثاً لأن الدراسة الفنية لقصائد شعراء يبلغ تعدادهم سبعة وخمسين شاعراً ليس كثيراً عليها مثل ذلك الحجم الكبير؛ ورابعاً لأن كل شاعر منهم له أفكاره وأساليبه الخاصة به، فهم يختلفون اختلافاً جوهرياً من هذه الناحية لذلك كله رأيت أن الاستغناء عن تلك الدراسة أسلم وأحجى وأقرب للموضوعية وسلامة المنهيجة.

وأخيراً فإنني ألحقت بفصول رسالتي (خاتمة) تضمنت النتائج التي وصلت إليها من خلال البحث والدراسة.

إن رسالتي هذه ينطبق عليها المثل العربي القديم (هذا جناي وخياره فيه) فهي تمثل الجهود الكبيرة التي بذلتها من أجل أن تكون رسالتي على أحسن ما أتمناه لها من سداد، فإن كان ذلك فهو من فضل الله وتوفيقه وإن لم يحالفني التوفيق في شيء منها فذلك ما آمل من أستاذي المشرف وأساتذتي المناقشين أن يقيلوا عثراتي ويسددوا خطاي إلى ما فيه التسديد والصواب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين...

التمهيد
الأمومة من وجهة نظر علماء النفس وعلماء التربية والاجتماع

الأمومة: هي (السلوك الذي يتجه نحو رعاية الأطفال).

((الأمومة)) – Mother hood: الدور الذي تقوم به الأم في المجتمع والمترتب على إنجابها طفلاً أو أكثر.

يقال: قرابة الأم Motherkin أي تعلق الانتساب بالأم.

وكانت معظم الأشكال الأولى للديانات الطبيعية تعتقد في الأم الآلهة Mother goddess أو الأم العظيمة حيث كان الدين يهتم اهتماماً كبيراً بالخصوبة ومن أمثلة ذلك إيزيس في الديانة المصرية القديمة... [1].

البنوة من وجهة نظر علماء الاجتماع:

جاءت (بنوة – Filiation) أنها: " صلة قرابة تجعل الشخص فرعاً مباشراً لشخص آخر، وهي تقابل في الفرع صفة الأبوة في الأصل، وتختلف الشرائع في الأوضاع التي تتحقق بها هذه القرابة "[2].

أهمية اختيار الأم:

للأم دور هام في حياة جميع الشعوب البدائية والمتحضرة بل لقد سميت بعض المجتمعات بالمجتمعات الأمية نسبة إلى " الأم "، أي ظهور ما يعرف (بالنظام الأمي أو النسب الأمي) [3] أما في المجتمعات العربية التي هي مجتمعات أبوية – النسب الأبوي – فقد ظل للأم دورها البارز والريادي. فلقد كان العربي قبل وبعد الإسلام يختار الزوجة الصالحة الخالية من العيوب الخلقية والخلقية لتكون أماً صالحةً، تحسن تربية أبنائها وتنشئتهم على الفضائل ومكارم الأخلاق، وتغرس في نفوسهم التقوى وحب الخير للناس.. فكان اختيار الأمهات أول ما يفكر به الرجل إذا ابتغى النجابة لأبنائه، حتى صح أن يكون رأس ما يمن به الأب على أبنائه إذا كبروا، هو حسن اختياره لأمهم.

وقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في ضرورة اختيار الأم الصالحة: "تخيروا لنطفكم فالعرق دساس"[4].

---

(1) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: د. احمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، 1978: 274-275.

(2) معجم العلوم الاجتماعية: تصدير ومراجعة د. إبراهيم مدكور، القاهرة، 1975، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب: 102.

(3) (النسب الأمي – هو العلاقة القرابية التي ترجع الفرد إلى نسب أمه، وليس إلى نسب أبيه. وسبب ظهور النسب الأمي في المجتمع يرجع إلى قوة ونفوذ المرأة في المجتمع وإلى إمكانياتها الكبيرة في التأثير في سير الأحداث. والفترة الزمنية التي ظهر فيها هذا النسب حسب أراء " وستر مارك" كانت الفترة التي سبقت القرون الوسطى). ينظر: العائلة والقرابة والزواج: د. إحسان محمد الحسن: 41، وينظر – المرأة عبر التاريخ: مونتيك بيتر، ترجمة – هزييت عبودي، بيروت، 1979: 14.

(4) ابن ماجه: 163/1.

ومما تجدر الإشارة إليه، رواية تبين أهمية اختيار الزوجة التي تصبح أماً فيما بعد، فيحكى أن أبا الأسود الدؤلي قال لبنيه: " أحسنت إليكم قبل أن ولدتم وبعده. قالوا: كيف أحسنت قبل الولادة ؟ فقال: لأني اتخذت أمهاتكم من حيث لا تعابون به "[1].

الأمومة والبنوة في عصر ما قبل الإسلام:

عندما نريد الوصول إلى حقيقة معينة يجب البحث عن الأصول الأولى لها. وذلك يحتم علينا تتبع نظرة العرب قديماً للمرأة عامة، والأم خاصة في عصر ما قبل الإسلام.

الأم العربية كانت تعد تربية الطفل مسؤولية كبيرة ودقيقة عليها أن تستكملها على أتم وجه[2]. فالتربية رسالة، واجب على الوالدين تأديتها، والجانب الأكبر منها يقع على عاتق الأم.

الأم لها مكانتها منذ الأزل حيث كان احترام الأم في الجاهلية طبعاً مألوفاً فأصبح في الإسلام فوق ذلك، فرضاً محتوماً ففي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يؤثرا الأم ولا يتنكران لفضلها[3]؛ وما على الأرض من مسلم إلا ويستشهد على حرمة " الأم " بالكلمة الجامعة في قوله (صلى الله عليه وسلم): " الجنة تحت أقدام الأمهات"[4].

لكن صورة المرأة عامة في العصر الجاهلي كان يبدو منها أنها تابعة للرجل بكل شؤونها، يوجهها الوجهة التي يريدها وقد يعلو شأنها ويقوي مركزها ويعظم أمرها حتى تستطيع أن توجه الرجل ذاته.

والتاريخ العربي حافل بأمثلة عديدة من ذلك؛ فقد تجلت شخصيات نسائية في هذا العصر في المجالات كافة سواء في الفضائل الخلقية أو القدرات الأدبية والعقلية، لكن يبدو أنها على الرغم من تفوقها هذا ووجود الملكة والمحاربة والشاعرة والحكيمة إلا أنها كانت مستضعفة ممتهنة في أهم علاقة تربطها بالرجل وهي علاقة الزواج.. [5].

ومن خلال ذلك يصعب إطلاق الحكم إطلاقاً عاماً، فهم يحترمونها في نواح ويمتهنونها في أخرى. حيث أن عدم التوازن في تقييم منزلة المرأة كان واضحاً. فإنّ هناك بوناً شاسعاً بين المنزلتين.

فبالنسبة للمجتمعات العربية في عصر ما قبل الإسلام لم تعرف الفوارق الكبيرة بين الجنسين بل كانت العلاقة بين الرجال والنساء طبيعية لا تخضع لتلك القيود الثقيلة.

فالنظام القبلي للأسرة الذي كان سائداً خضعت له المرأة تماماً حتى وأن تمتعت ببعض الحرية سابقاً. فكانت المرأة تمشي سافرة في الأسواق وتسير بين الرجال وتتحدث معهم وتستقبل في بيتها ضيوف أبيها أو أخيها أو زوجها حتى أنها يسمح لها بمقابلة خطيبها وتتحدث معه لتكشف شخصيته وغير ذلك، كل هذا ناتج عن الثقة في سلوكها،

---

(1) محاضرات الأدباء: 329/1.

(2) ينظر – الأمومة والبنوة في التراث العربي حتى نهاية القرن الأول الهجري – رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة: إنعام داود سلوم – جامعة بغداد – كلية التربية للبنات – 1990: 1.

(3) ينظر – المصدر نفسه: 7.

(4) مسند احمد بن حنبل: 429/3، وينظر- كنز: 461/16 رقم الحديث (45439).

(5) ينظر – المرأة في الشعر الجاهلي: احمد محمد الحوفي، القاهرة، 1980: ص527.

لكن مقابل هذا فقد كانت تفقد الكثير من حريتها والكثير من حقوقها كالإرث مثلاً[1].. ومن المفارقات العجيبة التي تثير في النفس الشفقة على المرأة في هذا المجتمع الفوضوي أنها (إذا مات زوجها وله أولاد من غيرها فالولد الأكبر أحق بزوجة أبيه من غيره، ويعدها إرثاً مشاعاً ضمن إرث أبيه، فإن أراد أن يعلن رغبته في الزواج منها طرح عليها ثوباً حتى تكون له)[2].

ومع ذلك لا يخلو هذا العصر من أمثلة رائعة في تقدير دور المرأة والأم بالذات بدليل أن الانتساب والتكني في هذا العصر كان شائعاً إلى الأم لا إلى الأب كانتساب (عمرو بن هند والمنذر بن ماء السماء) [3] ومما جسد هذه المكانة للأم وفي الانتساب إليها حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث قال: " أنا ابن العواتك من سليم"[4]، وهذا يدل دلالة واضحة على المكانة الرفيعة التي احتلتها الأم.

وكان الفرسان ينزلون ساحة الوغى وألسنتهم تلهج بذكر أمهاتهم وصواحبهم وأخواتهم.. (ومن الأدلة على رقي العرب في الجاهلية، ارتقاء نسائهم، فقد نبغ واحدة منهن في السياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة) [5] فكانت مسألة الاحترام الاحترام والتقدير تتفاوت من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر ومن شخص إلى آخر.. وهذا يجرنا إلى موقف الآباء من بناتهم فإن بعض الأباء أن يكن الأكثرية منهم كانوا يفضلون البنين على البنات، فلم تكن نظرتهم بمقياس واحد، فقد (درج الناس على أن يفرحوا بالبنين ويحزنوا عندما يرزقون البنات) [6]، فقد أسرف بعض العرب في كرههم للبنات إلى أن وصل الحال بهم إلى " الواد"[7] حتى كان بعضهم (إذا ولدت له الأنثى عراه عراه الغم الشديد وأخذ يعالج الأمر في نفسه، أيقتلها فيدسها في التراب ويتخلص من عبئها وعارها أم يبقيها على مضض ومهانة؟)[8].

---

(1) تطور المرأة عبر التاريخ: باسمة كيال، بيروت، 1981: 53.
(2) المصدر نفسه: 55-61.
(3) ((وماء السماء – هي ماوية بنت عوف بن جشم ملكة العراق وأم ملوكها)) – ينظر – المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها: عبد الله عفيفي، القاهرة، د.ت: 66/1، وينظر – النساء العربيات: كرم البستاني، بيروت، 1964: 146.
(4) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها: 66/1. ((والرسول (صلى الله عليه وسلم) قال الحديث في يوم حنين، و " العواتك ": جمع عاتكة وأصل العاتكة المتضمخة بالطيب. والعواتك من سليم هن ثلاث، يعني بهن " جداته " وهن: الأولى – عاتكة بنت هلال أم عبد مناف بن قصي جد هاشم جد الرسول. والثانية – هي عاتكة بنت مرة بن هلال أم هشام بن عبد مناف. والثالثة – عاتكة بنت الأوقص أم وهب بن عبد مناف أبو أمنة بنت وهب أم النبي).. ينظر لسان العرب – مادة (ع.ت.ك).
(5) للتوسع – ينظر تاريخ آداب اللغة العربية – جرجي زيدان: 33/1-35.
(6) الأمومة والطفولة في الإسلام: عبد الله احمد ناجي، تونس، د. ت: 12، وينظر – الإسلام والمرأة: سعيد الأفغاني، ط3، دار الفكر، 1970: 14.
(7) الوأد: عادة جاهلية وهي أن يدفن الرجل ابنته حية. ينظر – المعجم الوسيط: مادة وأد.
(8) المرأة بين البيت والمجتمع: البهي الخولي، دار العروبة، ط3، القاهرة، د. ت: 16.

وعبر عن ذلك القرآن الكريم مستنكراً هذه العادة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾"[1] وقوله تعالى: ﴿ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾"[2].

مما يدل على أن هذه الظاهرة الشنيعة كانت محدودة، ولم تكن بتلك السعة بين العرب، فإن كثيراً منهم كانوا على عكس ذلك، يعاملون بناتهم بحنان ودلال. حتى أن بعضهم يكني نفسه بأسمائهن فزهير الشاعر كان والده يكني نفسه بأبي سلمى وكذلك النابغة الذبياني يكنى بأبي أمامة...

إذن هناك تفاوت في مواقفهم من الإناث، وما يبين ذلك، أنه من أطرف الحكايات ما جاء في الشعر العربي أن ((أبا حمزة الضبي هجر امرأته لأنها ولدت بنتاً وصادف أن مر بخبائها يوماً وإذا هي ترقص ابنته وتنشد:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظلُّ في البيت الذي يلينا

غضبان إلا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا ونحنُ كالأرض لزراعينا

ننبت ما قد زرعوه فينا

فلما وقف أبو حمزة وسمع هذه الارجوزة مر نحوهما، حتى ولج عليهما الخباء وقبل بنيتها وقال: ظلمتكما ورب الكعبة)).. [3].

وقول شاعر في محبة البنات:

بنيتي ريحانة أشمها فديت بنتي وفدتني أمها! [4].

ومما يدل على احترام البنات – عند بعضهم – يخيرونها في زوجها كما يقول جرجي زيدان: (والغالب في نساء الجاهلية أن يخيرن قبل الزواج، فلا يزوج الرجل أبنته إلا بعد أن يشاورها، واشتهرت التيميات من نساء قريش بحضوتهن عند رجالهن، بل وقسوتهن عليهم، كما كانت نساء الجاهلية يصحبن الرجال إلى ساحة القتال ليداوين الجرحى ويحملن قرب الماء...) [5].

---

(1) سورة النحل: 58-59.
(2) سورة التكوير: 8.
(3) محاضرات الأدباء: 325/1، وينظر – البيان والتبيين: للجاحظ، تحقيق – عبد السلام هارون: 186/1.
(4) محاضرات الأدباء: 325/1.
(5) تاريخ آداب اللغة العربية: 33/1-35.

أما بالنسبة للمرأة حيث كانوا (يميزون الوالدة ويختصونها بالإكرام، فالمرأة لم تكن ذات شأن حتى تصير أما فيعلوا مقامها. حتى أنهم لم يكونوا يعزون بالمرأة بعد موتها إلا أن تكون أما) [1].

فقد عظم العرب المنجبات من النساء وجعلوهن مثلاً في المجتمع يقدر الأم ويجل المرأة، فنرى الأولاد قد مجدوا أمهاتهم واتخذوهن مثلاً أعلى يحتذى به فلم يكن من العار أبدا أن يقال (إن فلانا تربية امرأة).

فهذي (كنزة القيسية) من شاعرات العرب قالت تحرض أبنها شملة بن برد المنقري على القتال لتؤجج فيه الروح الثورية، تقول له:

فإن يك ظني صادقاً وهو صادق بشملة يحسبهم بها محسبا ازلا

فيا شمل شمر واطلب القوم بالذي أصبت ولا تقبل قصاصا ولا عقلا [2].

نستنتج من ذلك أن (الام) كانت مجالا مهما للفخر والمدح أو للمهانة والهجاء أيضا، فقد يمدح الشخص بأنه (ابن فلانة) فيفخر الرجل بأن يقول (أنا ابنك يا فلانة) لشرفها ونسبها ومكانتها.

هذا يعني أن الأم إذا كانت من ذوات الشرف والأدب والأصالة والخلق يفتخر بها أبناؤها ويتشرفون بالانتساب إليها، أما إذا كانت الأم عكس ذلك فتكون مدعاة للهجاء والذم، فيعير بها أبناؤها.

هذه هي مكانة الأم في المجتمع الجاهلي، وسنوضح ذلك أكثر عند الكشف عن الآثار الأدبية التي خلفها لنا العرب تبين حب الأم لبنيها وحسن تربيتها لهم وبالمقابل تركت هذه الأم العظيمة بدورها آثاراً تدل على إدراكها لواجباتها نحو بنيها..

* * *

أما علاقة الأم بوليدها منذ الأزل علاقة حميمة تلك فطرة الله التي جبلت عليها، فمنذ الجاهلية كانت الأم تحمل وليدها وتهدهده وترقصه – وهذا ما عرف بأغاني الترقيص، فهذه فاطمة بنت أسد أم الأمام علي (رضي الله عنه) كانت تتوسم في طفلها " علي " إمارات السؤدد والكرم والشجاعة، فكانت ترقصه، وتقول:

أنت تكون ماجد كريم إذا تهب شمأل بليل[3].

وهذي إعرابية أخرى، ترقص ولدها، تعبيراً عن مشاعرها تجاه ذلك الولد، تقول:

ياحبذا ريح الولد ريح الخزامى في البلد

أهكذا كل ولد ؟ أم لم يلد قبلي أحد[1].

---

(1) العقد الفريد: 264/2.
(2) شرح ديوان الحماسة: 701/2-702.
(3) أشعار الترقيص عند العرب: سعيد الديوه جي، طبع بيروت: 20/2-21.

وقالت (هند بنت عتبة) [2] ترقص ولدها معاوية:

إن بنـــــي معـــــرق كـــــريم محبـــــب فـــــي أهلـــــه حلـــــيم

لـــــيس بفحـــــاش ولا لئـــــيم ولا بطحـــــــرور [3] ولا ســـــــئوم

صـــخر بنـــي فهـــر بـــه زعـــيم لا يخلـــــف الظـــــن ولا يخـــــيم [4]

* * *

فالأم هي النهر المعطاء وينبوع الحنان الذي لا ينضب، فمن حقها بعد كل السهر والتعب أن تنال المكانة العظيمة التي تليق بها، وأن يكون الابن باراً بها..

إن حب الأم لولدها ليس مثله حب، فسعادتها تكتمل بوجوده إلى جانبها سالما. فإن خطف الموت ابنها تبددت سعادتها وصبت مشاعر حزنها وألمها ولوعتها بالرثاء بوصفه المتنفس الوحيد لجراحها التي لا تندمل؛ فنجد شواهد كثيرة لأمهات رثين أولادهن بأحر وأروع رثاء. مثل:

(السلكة – أم السليك) [5]: وهي أم السليك ابن السلكة السعدي أحد عدائي العرب، وكان قد قتله أسد ابن مدارك الخثعمي، فقالت ترثيه:

طـــــاف يبغـــــي نجـــــوة مـــــن هـــــلاك فهلـــــك

ليـــــت شـــــعري ضـــــلة أي شـــــيء قتلـــــك ؟!

كـــــل شـــــيء قاتـــــل حـــــين تلقـــــى أجلـــــك

طالمـــــا قـــــدُ نلـــــتَ فـــــي غيـــــر كـــــدٍ أملـــــك [6]

إلى قولها:

ليـــــت نفســـــي قـــــدمت للمنايـــــا بـــــدلك [7]

---

(1) عيون الأخبار – لابن قتيبة: 94/3، وينظر – المستظرف في كل فن مستطرف – للابشيهي (طبعة دار إحياء التراث العربي)، بيروت، د.ت: 11/2، وينظر – المحاسن والمساوئ – للبيهقي، طبع دار صادر، بيروت، 1970: 546 والأبيات فيه كما يلي: " كأنما ريح الولد ريح الخزامى في البلد... "، وينظر العقد الفريد: 245/2.

(2) وهي صحابية قريشية أم الخليفة معاوية بن أبي سفيان. ينظر – شاعرات العرب: 465.

(3) طحرور: طحور – طحرورة – طحرية (كعفرية أي لطخ من السحاب) وتعني القليل وقال الاصمعي هي قطع صغيرة مستديرة رقاق، وورد في الصحاح (الطحور) كصبور (السريع) والطحور (القوس البعيدة الرمي كالمطحر بكسر الميم). ينظر: لسان العرب: ج3، ص356، مادة طحر.

(4) يخيم: يجبن – شاعرات العرب: 465.

(5) شاعرات العرب: جمع وتحقيق – عبد البديع صقر، ط1، 1967: 166.

(6) شرح ديوان الحماسة – للمرزوقي: 914/2.

(7) من نساء العرب المشهورات بالعقل والذكاء في قبيلتها بني نمير. نقلاً عن شاعرات العرب: 144.

و(أم خالد النميرية) [1]: قالت ترثي ولدها وكان توفي في بعض الغزوات ودفن في الغربة، تقول من أبيات أولها:

إذا مـا أتتنـا الـريح مـن نحـو ارضائـ اتتنـــا بريـــاهُ فطـــاب هبوبهـــا

أتتنـــا بمســـك خـــالط المســـك عنبـــر وريـــح خزامـــى باكرتهـــا جنوبهـــا

أحـــنُ لـــذكراه إذا مـــا ذكرتـــه وتنهـــل عبـــرات تفـــيض غروبهـــا

(1) المصدر نفسه: 114.

حنـــين اســـير نـــازح شـــد قيـــده واعـوال نفـس غـاب عنهـا حبيبهـا [1]

و(أم الصريح الكندية) [2] قتل أبناؤها في إحدى الوقعات الحربية القبلية بجيشان، فرثتهم بقولها:

ســقى مســتهل الغيــث أجــداث فتيــة بجيشـــان ولينـــا نحورهمـــا الـــدما

ومنها:

هـوتٌ أمهـم مـاذا بهـم يـوم ضـرعويا بجيشـــان مـــن أســـباب مجـــد

أبــوا أن يفــروا والقنــا فــي نحــورهم ولــم يبتغــوا مــن رهبــة المــوت سـلما

ولـــو أنهـــم مـــروا لكـــانوا أعـــزة ولكـن راوا صـبرا علـى المـوت إكرامـا

ومات لأعرابية أربعة بنين فقال ترثيهم:

ربيـــتهم كنصـــول الهنـــد أربعـــة بـيض الوجـوه لـدى الهيجـاء كالأسـد

---

(1) شاعرة من شواعر حضر موت، ولدت في حضر موت حوالي سنة 30 قبل مولد الرسول (صلى الله الله عليه وسلم).. شاعرات العرب: 185.

(2) ذكر في مرجع حديث وهو ((شاعرات العرب)) للسيد عبد البديع صقر وردت هذه المقطوعة في مكانين من الكتاب نفسه، ففي ص 185 نسبها إلى أم الصريح وفي ص387 نسبها إلى ماوية بنت الأحب، وبعد التحري والتثبت فقد وجدت أن القطعة نفسها مذكورة في حماسة أبي تمام في: 933/2 وهي منسوبة إلى أم الصريح، وفي الحماسة البصرية: 236/1 وينسبها إلى أم الاخت وليس الأحب كما ذكرها السيد صقر..

حتــى إذا كملــوا فــي الســن وأتســقوا أخنى على القوم ما أخنى على لبد[1]، [2]

[2]

ووقفت إعرابية على قبر ابن لها، يقال له " عامر " ترثيه، فقالت:

اقمــــت ابكيــــه علــــى قبــــره مــــن لــــي مــــن بعــــدك يــــا عــــامر

تركتنــــي فــــي الــــدار ذا وحشــــة قــــد ذل مــــن لــــيس لــــه ناصــــر[3]

وقيل لأعرابية مات أبنها: ما أحسن عزاءك ؟ فقالت: إن فقدي إياه أمنني فقد سواه، وإن مصيبتي به هونت علي المصائب بعده، فأنشدت:

كنــــت الســــواد لنــــاظري فعمــــي عليــــك النــــاظر

مــــن شــــاء بعــــدك فليمــــت فعليــــك كنــــت أحــــاذر[4]

والشاعرة (أم بسطام)[5] قالت ترثي ولدها بسطام بن قيس وكان من متقدمي الفرسان المشهورين في الجاهلية وقد قتله بنو ضبة:

ســيبكيك عــان[6] لــم يجــد مــن يفكــه وتبكيــك فرســان الــوغى ورجالهــا

وتبكيــك اســرى طالمــا قــد فككــتهم وأرملــة ضــاعت وضــاع عيالهــا

ومنها:

تغشــى بهــا حينــا كــذاك ففجعــت تمــيم بهــا أرماحهــا ونبالهــا

فقــد ظفــرت منــا تمــيم بعثــرة وتلــك لعمــري عثــرة لا تقالهــا[7]

---

(1) لبد: اللبد اللبد واللبد من الرجال – الذي لا يسافر ولا يبرح منزله ولا يطلب معاشا. ولبد اسم آخر نسور لقمان بن عاد، سماه بذلك لأنه لبد فبقي لا يذهب ولا يموت كاللبد من الرجال. وقد ذكرته الشعراء فقال النابغة:

أضحت خلاء واضحى اهلها احتملوا اخنى عليها الذي اخنى على لبد

وفي المثل: طال الأبد على لبد. ينظر – لسان العرب: 385/3، مادة لبد.

(2) الوحشيات – لابي تمام الطائي: تحقيق – عبد العزيز الميمني ومحمود محمد شاكر، طبع دار المعارف، ط3، 1987: 143.

(3) شاعرات العرب: 436.

(4) المصدر نفسه: 436/وهذان البيتان نسبهما ابن خلكان في وفيات الأعيان، تحقيق: د. إحسان عباس، طبع دار صادر، بيروت، 1968: 47/1 للشاعر العباسي المشهور ابراهيم الصولي وفيه " بكى " بدل " فعمي ".

(5) بسطام بن قيس النصراني سيد بني شيبان، وكانت ام بسطام من نساء العرب المتقدمات في الأدب ذات شعر رائق.. ينظر – شاعرات العرب: 32-33.

(6) عان: الأسير.

(7) الدر المنثور: 55.

وقالت اعرابية أخرى في رثاء ولدها:

بنـــي لـــئن ضـــنت جفـــوني بمائهـــا لقـــد قرحـــت منـــي عليـــك جفـــون

دفنـت بكفـي بعـض نفسـي فأصـبحت وللـــنفس منهـــا دافـــن ودفـــين[1]

قالت فيه أيضاً:

ولمـــا دعـــوت الصـــبر بعـــدك والبـــك اجـاب البكـا طوعـاً ولـم يجـب الصـبر

فـــإن ينقطـــع منـــك الرجـــاء فاءنـــه سيبقى عليك الحـزن مـا بقـي الـدهر[2]

* * *

ويسرنا ان نختم الحديث عن دور الأم في العصر الجاهلي، بما خاطبت به سيدتنا (آمنة بنت وهب) ولدها الرسول الأعظم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) – في نهاية العصر الجاهلي- وهي على فراش الموت، تقوله له:

بارك فيك الله من غـلام

يا ابن الذي في حومة الحمام

نجا بعون الملك العـــلام

فودي غداة الضرب بالسهـام

بمئة من ابـــل ســوام

إن صح ما ابصرت في المنام

فأنت مبعوث إلـــى الأنام

تبعث في الحل وفـي الحرام

تبعث بالتوحيد والاســـلام

دين أبيك البـر ابراهـام

فالله ينهـاك عـن الأصنام

(1) ساوة الحزين: 142.
(2) المصدر نفسه: 143.

* * *

تلك الصورة نرجو أن نكون قد رسمنا من خلالها الملامح العامة للأمومة والبنوة في العصر الجاهلي..

الأمومة والبنوة في العصر الإسلامي:

إن الإسلام كرم كلا من الأب والأم وألزم الأبناء باحترام أبويهم كما قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾"[2].

والذي نفهمه جلياً من خلال هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى يأمرنا باحترام الوالدين وإطاعتهما وأن لا يصدر منا ما يسيء إليهما لأنهما عانيا ما عانيا في تكويننا وتنشئتنا وتربيتنا وما احترامهما وطاعتهما إلا رد لبعض تلك المعاناة.

وقال سبحانه وتعالى في حق الوالدين: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾"[3].

فإن الله تعالى يأمر الأبناء في أكثر من آية بطاعة الوالدين والتواضع لهما والرأفة بهما، والقرآن الكريم يخص " الأم " ويعظم من شأنها ويأمرنا بالإحسان والحنو عليها في قولـــه تعـــالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ ﴾"[4].

وجسد القرآن المشقة التي تعانيها الأم من تعب وألم في موضع آخر من قوله تعالى: " وصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلي المصير "[5].

وكذلك النبي الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم) أعطى للأم مكانتها فمن ذلك ما روي من أن " رجلاً جاء إلى الرسول حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبي (صلى الله عليه وسلم): هل أديتُ حقها ؟ قال لا ولا بزفرة واحد "[6]. وجاء رجل آخر إلى الرسول (صلى

---

(1) شاعرات العرب: 2.
(2) سورة الإسراء: 23-24.
(3) سورة العنكبوت: 8/والمعنى نفسه في سورة الأنعام: 151، وفي سورة البقرة: 83.
(4) سورة الأحقاف: 14.
(5) سورة لقمان: 14.
(6) مسند احمد: 56/1.

الله عليه وسلم) فقال: " يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من ؟ قال: أمك، قال ثمن من ؟ قال: أمك، قال ثم من ؟ قال: أبوك "[1].

كل ذلك ليذكر الولد بفضل أمه عليه ومشقتها ليلاً ونهاراً وحنوها عليه أثناء حمله وولادته وإرضاعه وتربيته.

فالإسلام بذلك ساوى بين رعاية الإنسان لأبيه وأمه، كما ساوى بين رعايته لبنيه وخص الأمهات بالذات لمكانتهن العظيمة وجهدهن الكبير. وأن احترام المرأة عموماً منحدر أساساً (من كونها زوجة وأماً وابنة، فينبغي احترامها ومساعدتها الاجتماعية وعلاقتها البيئية بالتساوي مع الزوج والأب والابن، وبذلك تتوفر للمجتمع الإسلامي – الذي حددت فيه حقوق وواجبات المرأة – النمو والتطور والاستقرار) [2].

وأن اهتمام الدين الإسلامي بالمرأة عامة وبالأم خاصة أحدث انقلاباً في أوضاع المرأة، والإسلام إذن لم يبدأ بإعطاء المرأة حقوقها من كونها أماً، بل بدأ معها منذ ولادتها حيث منع وأدها، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وأولاها عناية خاصة أثناء طفولتها ثم اهتم كل الاهتمام بقضية زواجها، فأولاها اهتماماً بالغاً، ويتجلى ذلك واضحاً جلياً في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ "[3].

(ولا يختلف اثنان في أن الزواج الذي يبني على هذا التوافق يكون أمراً محترماً في نفوس الزوجين وتكون عقدته من المتانة بحيث لا يسهل انحلالها ويكون أيضاً موجباً للعفة والتصون، وكل زواج لا يؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لا خير فيها لأحد من الزوجين) [4].

وما أروع ما يصف به القرآن الكريم الحياة الزوجية، حيث يجعل الزوجة جزءاً لا يتجزأ من الزوج، في قوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ "[5].

وإن القرآن الكريم أكد تأكيداً بالغاً على أهمية المرأة بوصفها عنصراً من عناصر المجتمع الإسلامي الجديد المبني على أسس الأخلاق القويمة والحميدة، التي تشكل الدعامة الحقيقية في بناء المرأة للأجيال الجديدة، وهي تحمل نواة التربية والعلم والمعرفة..

---

(1) البخاري: 147/21 ((وهنا نلاحظ أن الرسول الكريم ذكر الأم ثلاث مرات، ولم يذكر الأب إلا مرة واحدة ولعل السر في ذلك هو أن " الأم تنفرد عن الأب بأمور ثلاثة: ما تعانيه من أوجاع الحمل – وما تقاسيه من الآم الوضع – وما تقوم به من أوضاع الطفل والسهر على راحته مدة عامين ثم هي بعد ذلك تشارك الأب في تربية الولد ورعايته، فلا عجب أن يعنى بها الحديث عناية خاصة)... ينظر – مجلة كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية: السنة الثانية، العدد الثاني، 1975: 533.

(2) تطور المرأة عبر التاريخ: 67.

(3) سورة الروم: 21.

(4) تحرير المرأة: قاسم أمين، ط2، مصر، 1941: 127.

(5) سورة البقرة: 187.

فالمرأة الأم تشكل الركن الأساس في الأسرة الإسلامية، وإلى ذلك أشار الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) بقوله عن المرأة الصالحة في المجتمع: "الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة"[1].

ونود أن نجعل ما توصلنا إليه من النتائج أساساً ننطلق منه للحديث عن علاقة الأمهات بأبنائهن، بغريزة تعجز العقول البشرية عن فهم أسرارها. فكان من المسائل المهمة التي يثار حولها الجدل، وهي قضية غريزة الأمومة، فلا يعرف سر هذه الغريزة إلا خالقها سبحانه وتعالى الذي ألهم الأم معطيات هذه الغريزة التي هي أساس العلاقات الاجتماعية والرباط المتين الذي يربط ما بين هذه العلاقات، فغريزة الأمومة هي (أقوى دافع إنساني تقوم به المرأة وبواسطة هذه الغريزة نرى المرأة تقوم بأسمى وأكبر التضحيات) [2].

ودليلنا على ذلك قول فاطمة الزهراء في ترقيص ابنها الحسن وهي تؤكد شبهه بجده النبي، تقول:

وا بـــأبي شـــبه أبـــي غيـــر شـــبيه بعلـــي[3]

فلم يكن الفخر هنا قبلياً لأن عليا وأباها محمد (صلى الله عليه وسلم) من قبيلة واحدة، ففخرها هنا إذن بالنبوة التي امتاز بها أبوها..

هذا فضلاً عن أن الأدب العربي زاهر بنصوص شعرية، تصور علاقة الوالدين بالأبناء، وبالعكس... ومن ذلك قول الزبير بن عبد المطلب عم الرسول، يزفن[4] النبي (صلى الله عليه وسلم) من الحسد:

محمـــد بـــن عبـــدم[5] عشـــت بعـــيش العـــم

لازلـــت فـــي عـــيش عـــم ودولـــة ومغنـــم

يغنيـــك عـــن كـــل العـــم وعشـــت حتـــى تهـــرم[6]

(1) مسند احمد: 168/2، وينظر – صحيح مسلم بشرح النووي: 656/3 رقم الحديث (56).
(2) الأمومة والعناية بالطفل: عامرة عبد الرزاق، بغداد، 1967: 9.
(3) نقلاً عن كتاب لطائف المعارف: 91، وفي العقد الفريد – أنها كانت ترقص الحسين وليس الحسن: 245/2، وينظر – أشعار الترقيص عند العرب: 22.
(4) الزفن: الرقص، زفن يزفن زفناً وهو شبيه بالرقص، وفي حديث فاطمة عليها السلام أنها كانت تزفن للحسن أي ترقصه وأصل الزفن اللعب والدفع، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها قدم وفد للحبشة فجعلوا يزفنون ويلعبون أي يرقصون ومنه حديث عبد الله بن عمرو أن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل ويبطل به اللعب والزفن. ينظر – لسان العرب: 356/3، مادة زفن.
(5) عبدم: يقصد به ابن عبد المطلب وهو مألوف في العربية للاختصار.
(6) المنمق في أخبار قريش: لمحمد بن حبيب، تحقيق: خورشيد احمد فاروق، بيروت، 1985: 349، والبيت الأخير في: الأمالي – للقالي: 115/2.

ومن النصوص التي تكشف عن علاقة الأم بأبنها: (تزفين أم البنين الوحيدية)[1] لابنها العباس بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وهي تخاف عليه من الحسد، تقول له:

اعيذه بالواحد/ من عين كل حاسد / قائمهم والقاعد /

مسلم والجاحد / صادرهم والوارد / مولودهم والوالد [2].

لقد عظم الإسلام شأن الأم وأعلى مكانتها ورفع شأنها فيما سبق أن أشرنا إليه، حيث جعل من المرأة الصالحة أساساً لبناء مجتمع صالح، بعيداً عن المفاسد والشرور، لأن الأم هي المعيار والميزان الذي يوزن به مستوى العائلة الأخلاقي والتربوي بما تقوم به من أدوار مهمة في تربية الأبناء وبناء الآسرة...

إن الإسلام قد حث الإنسان على طاعة الوالدين خاصة (الأم) وجعل ثواب المطيع الجنة وعقاب المخالف النار، فلا يجوز عقوقهما.

* * *

إن مكانة الأبناء عند الوالدين كبيرة وعزيزة، ويتقاسم الأبناء جميعاً هذه المحبة بالتساوي. فقيل لبعضهم " أي ولدك أحب إليك ؟ قال: صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرا، وغائبهم حتى يقدم ".. [3].

لذا نرى فقد الأبناء يسبب للوالدين ألماً وحزناً شديدين وجرحاً ليس بعده جرح، ويحكى ((أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) نظر إلى رجل يحمل طفلا على عنقه فقال: ما هذا منك، قال: ابني يا أمير المؤمنين، فقال عمر: أما إنه إن عاش فتنك وإن مات حزنك)) [4]، وما يجسد ذلك قول عبيد الله بن أبي بكرة[5] فيهم: (موت الولد صدع في الكبد، لا ينجبر آخر الابد) [6].

* * *

هذا والأدب العربي زاخر بنصوص كثيرة تصور عمق عاطفة " الأم " إذا فقدت ابنها فلذة كبدها.

ومما يدل على شدة عاطفة الأمومة، ما روي من (أن أما قتل لها ابن يدعى فطن بن سريح من بني عذرة، فأقبلت إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهي تنشد:

الا تلك المسرة لا تدوم ولا يبقى على الدهر النعيم

ولا يبقى على الحدثان عقر لشاهقة لـه أم رؤوم

---

(1) أم البنين – بنت حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد من ربيعة.. نقلاً عن المنمق: 351.

(2) المصدر نفسه: 351.

(3) عيون الأخبار: 92/3.

(4) العقد الفريد: 425/2.

(5) عبد الله بن أبي بكرة الثقفي أبو حاتم (14-79هـ/ 635-698م): هو أول من قراء القرآن باللالحان، تابعي ثقه. من أهل البصرة كان أول أمير سجستان، وليها سنة 50 ال 53هـ وعزل عنها. ثم وليها في آمرة الحجاج وولي قضاء البصرة. وكان اسود اللون وهو ابن الصحابي (ابي بكرة) نفيع بن الحارث. ينظر – الإعلام: خير الدين الزركلي، ط3، د.ت: 345/3.

(6) عيون الأخبار: 345/3.

وقالت:

يـــا جامعـــاً مـــع الاحشـــاء والكبـــد ياليـــت امـــك لـــم تولـــد ولـــم تلـــد

ثم كبت عليه فشهقت وماتت...)[1]

فهذه (جويرية بنت قارظ) [2] قالت في ابنيها اللذين قتلهما بسر بن أرطاة أحد بني عامر بن لؤي:

ألا مـــــن بـــــين الآخـــــو يـــن امهمـــا هـــي الثكلـــى

تســـــائل مـــــن رأى ابنيهـــــا وتســـــتقي فـــــلا تســـــقى

فلمـــــا استيأســـــت رجعـــــت بعبـــــرة والـــــه حـــــرى

ومن قولها فيهما:

يـــا مـــن احـــس بنيـــي اللـــذين همـــا كالـــدرتين تشـــظى عنهمـــا الصـــدف

يـــا مـــن أحـــس بنيـــي اللـــذين همـــا سمعي وقلبـي فقلبـي اليـوم مختطـف [3]

* * *

ومما لفت انتباهنا ونحن نختتم الحديث عن العصر الجاهلي والإسلامي، أننا لم نجد في أثناء تتبعنا قصائد في رثاء الأمهات، لا في العصر الجاهلي ولا في العصر الإسلامي. وأغلب المراثي التي وجدناها خلال بحثنا كانت في رثاء الآباء، ويبدو لي أن السبب في ذلك يود إلى كون الأب هو رمز الأسرة وعنوان عزتها وكرامتها.....

الأمومة والبنوة في العصر الأموي:

تغيرت الحياة في العصر الأموي في شتى مجالاتها سياسياً واجتماعياً، فهو عصر تجديد، عصر " ترف " وتقدم حضاري حيث ظهرت فيه القبلية والاعتزاز والفخر بها، هذا من جانب ومن جانب آخر فإنه عصر تقدمت فيه المعارف والعلوم والآداب، ومن مظاهر الترف في ذلك العصر انتشار الغنى وكثرة الجواري والقيان، مما انتج ألواناً جديدة من ألوان الأدب، في مقدمتها شعر الغزل بشقيه الغزل الماجن والغزل العفيف – العذري- كما ظهر أدب آخر جديد وإن كان موجوداً في العصرين الجاهلي والإسلامي، ذلك هو شعر الهجاء حيث نبغ أكبر شعراء التهاجي كجرير والفرزدق والأخطل وغيرهم. ومنه نشأت القصائد المسماة " بالنقائض".

---

(1) بلاغات النساء: 176.

(2) هي حويرية بنت خالد الكتائبية، وتكنى أم حكيم زوجة عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. نقلاً عن عن شاعرات العرب: 85.

(3) ينظر – الاغاني (ط5، 1981): 209/6، وينظر – شاعرات العرب: 85-86.

كما ازدهرت من جانب آخر العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث وعلم كلام، ومن الطبيعي أن تشارك المرأة في هذه الحركة وتطلب جميع العلوم والمعارف وتساهم في طلب تلك العلوم، وتنكب على دراسة الشريعة والفقه والحديث والشعر والأدب [1].

ولقد عبر عن حال المرأة ووضعها في هذا العصر الأستاذ (محمد جميل بيهم) يقول: (أن النساء وإن لم يقفن في ذلك العصر عند حد رواية الحديث اسوة بأخواتهن في عهد الخلفاء بل اقبلن على العلوم الدينية كافة وأدركن نصيباً وافراً منه أهل بعضهن للتدريس إلا أن عدد الشهيرات منهن قليل) [2].

وأنني اتفق مع رأي الأستاذ (بيهم) بأن أغلب النساء من العربيات في العصر الأموي كن مغلوبات على أمرهن ومع ذلك فقد كن يدرسن العلوم الدينية ويتعلمن الشعر وفنونه وهن قابعات في بيوتهن.

ويبدو لنا أن العربية المسلمة الصميمة كانت تفضل البقاء في منزلها على الاختلاط بالنسوة غير العربيات من الاماء والجواري والسبايا اللواتي كثرن – بسبب الفتوحات- ويجب أن لا ننسى بأن المرأة رغم تقدمها هذا كانت محددة بتقاليد وقوانين قبلية ودينية صارمة، لأن حركتها في البيت والمجتمع كانت تخضع دائماً لمواصفات وضوابط ترتبط بإرادة الرجل؛ ومع ذلك فإننا لا نستطيع الحكم على الرجل بأنه استعبد المرأة، بل أن المسلمين شعروا بالحاجة إلى حجب النساء (بعد أن استحكمت عادات الحضارة والترف، وذلك خوف الفتنة وصيانة المرأة ممن يؤذيها، فاشتدت مع الزمن وطأة الحجاب في الشام والعراق وبلاد فارس لتأصله فيها منذ القدم ثم سرى إلى معظم الأقطار الإسلامية) [3]، مما يدل على حرصهم على المرأة وسمعتها..

ويجب أن نوضح مكانة المرأة العربية الصميمة أمام مكانة الأمة والجارية في هذا العصر، وما كان يحصل بينهن من التنافس وانعكاس ذلك التنافس بين الحرائر والجواري على دور الأم والأبناء ووضعها في ظل النظام الاجتماعي الجديد.

لا ننكر أن الجواري والاماء أخذن يشغلن الحيز الأكبر من الحياة، ويستلمن قلوب الرجال، فأحب الكثير منهم الكثيرات من الجواري وتزوجوهن فكان لهم أولاد منهن. ومع ذلك فإنهم، (كانوا ينكرون الهجنء من – أبناء الأماء- وينكرون عليهم أن يطلبوا الخلافة ولو كانوا من بيت النبوة) [4].

وهذا يطمئننا على حال المرأة العربية بسبب تلك العصبيات القبلية مما جعل مكانتها في الذروة والسنام من الأعزاز والاكرام.

هذا يعني أن المرأة العربية ما زالت لها مكانة جديرة بالاحترام والتقدير رغم تطور وتغير الظروف الاجتماعية والسياسية العامة.

فنجد للمرأة مكانة عند زوجها حيث كانت دائماً المعين الأول له والسند في وقت الشدة والعكازة التي يتوكأ عليها، فيبكي بكاءً حاراً لفقدها، فهذا جرير يرثي زوجته " خالدة

---

(1) ينظر – تطور المرأة عبر التاريخ: 87.
(2) المصدر نفسه: 88.
(3) الإسلام والحضارة العربية: محمد كرد علي، ط2، القاهرة، 1950: 91/1.
(4) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها: 8/3.

من كليب " وهي أم ابنه " حزرة " بقصيدة تبلغ مئة وخمسة عشر بيتاً، فكانت تلك المرثية من عيون المراثي في الشعر العربي، ذاكراً ومشيراً إلى دورها الكبير زوجة وأما قال في مطلعها:

لــولا الحبــاء لعــادني اســتعبار ولــزرت قبــرك والحبيــب يــزار [1]

فالمرأة المسلمة في هذا العصر نالت تقدير زوجها، فإن شاء القدر وكتب الفراق بينهما " بالطلاق " ربما تأسف الزوج على ذلك أشد الأسف ومن الشعراء الذين جسدوا هذه الحالة الفرزدق حين طلق زوجته النوار، فيبدو أنها كانت تغاضبه حتى طلقها وهو في حالة من تلك الحالات النفسية التي أشرنا إليها، فقال مصوراً ألمه وندمه الشديد منها قوله:

نــدمت ندامــة الكســعي لمــا غــدت منــي مطلقــةً نــوار

وكانــت جنتــي فخرجــت منهــا كــآدم حــين لــج بــه الضــرار

وكنــت كفــاقي عينيــه عمــداً فأصــبح مــا يضــيء لــه النهــار[2].

ولا يفوتنا أن نذكر أن الأم إذا كانت من ذوات الحسب والشرف والآصالة يفخر بها أبنائها معتدين بنسبها ومعتزين بالانتماء إليها، حيث بقيت الأم المجال الرحب للفخر والمدح أو للهجاء والذم.

ومن ذلك ما قاله عبيد الله بن قيس الرقيات في أمه[3] مفتخراً بها:

امــي لقــيس فــي الــذرى وابــي لعاتكــة المهيــره[4]

ومن الطريف أن نجد بعض الشعراء من العرب يفتخرون بأمهاتهم الأعجميات مثل (أبي نخيلة) الذي يقول:

أنــا ابــن ســعد وتوســطت العجــم فأنــا فيمــا شــيت مــن خــالٍ وعــم[5]

فالأم تبقى مكانتها عزيزة لدى أبنائها سواء كانت عربية صميمة أم أعجمية. وما أكثر الأبناء البررة بأمهاتهم، ويأتي في مقدمة أولئك الإمام (علي بن الحسين زين العابدين) فقد كان من أبر الناس بأمه حتى روي من بره بها ما لم نسمعه عن غيره، فقد "

---

(1) ديوان حرير – مج2، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، طبع دار المعارف، مصر، 1971: 862/2، وينظر – الرثاء في الشعر العربي – جراحات القلوب: د. محمد حسن أبو ناجي، ط2: 135.

(2) شرح ديوان الفرزدق: لايليا حاوي (ط1983): 481/1.

(3) أمه – قتيله من نسل الياس بن مضر، وعمه قيس بن عيلان بن مضر وأبوه من عامر بن لؤي وكان وكان قصي بن كلاب تزوج من عاتكة بنت هلال وعبد مناف تزوج من عاتكة بنت مرة. وعاتكة زوج عبد مناف بن زهرة هي جدة آمنة أم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فهناك عدد من العواتك في نسب عبيدالله بن قيس الرقيات.. نقلاً عن ديوانه دار صادر، بيروت، 1958، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم: 65.

(4) المهيرة: ذات مهر، أي لم تسب.

(5) البيان والتبيين: 225/3، وينظر – الشعر والشعراء – لابن قتيبة: تحقيق – احمد محمد شاكر، طبع دار المعارف بمصر، 1966: 602، وينظر – العصر الإسلامي: 214.

قيل له مرة، أنت أبر الناس بأمك ولا نراك تواكل أمك؟! قال: أخاف أن تسير يدي إلى ما قد سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها"[1].

أما في باب المدح بالأم، أي يمدح الشخص لكون أمه ذات حسب ونسب، فهذا وارد بكثرة على مر العصور، فنرى جريراً يمدح هشام بن عبد الملك بأمه لأنه يتشرف بالانتساب إليها لشرفها ومكانتها وأصالتها ونسبها، بقوله فيه:

فمـــا الام التـــي ولـــدت ابـــاكم بمقرفـــــة النجـــــار ولا عقـــــيم

ومـــا قـــرم بانجـــب مـــن ابـــيكم ولا خـــــال بـــــاكرم مـــــن تمـــــيم

(1) عيون الأخبار: 97/3.

ســـما أولاد بـــرة بنـــت مـــر[1] إلـــى العليـــاء فـــي الحســـب العظـــيم[2]

وبلغت موجة التمجيد غايتها بمجيء يزيد الثاني (101-105هـ/720-724م) فأمه تشبه بالسيدة مريم أم المسيح، وذلك يتضح في قول الفرزدق، الذي مدحه بأمه يقول:

فـــلا أم إلا أم عيســـى علمتهـــا كأمـــك خيـــراً أمهـــاتٍ وامجـــدا[3]

وهذا الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات يمدح عبد العزيز بن مروان واصفاً أمه[4] ونقائها من الدنس وشرفها وعزتها، يقول:

اثـــن علـــى الطيـــب ابـــن ليلـــى إذا اثنيـــت فـــي دينـــه وفـــي حســـبه

أمـك بيضـاء[5] مـن قضـاعة فـي ألـ بيـت الـذي يسـتقل فـي طنبـة[6]

ثم مدح شاعرنا ابن قيس الرقيات (عبد الله بن الزبير) بأمه يقول:

وابـن اسـماء خيـر مـن مسـح الركـ ن فعـــالاً وخيـــرهم بنيانـــا

وإذا قيـــل مـــن هجـــان قـــريش كنـــت أنـــت الفتـــى وانـــت الهجانـــا[7]

(1) برة بنت مر – هي اخت تميم وهي أم النضر بن كنانة... نقلاً عن ديوان حرير.
(2) ديوان جرير: 219/1.
(3) شرح ديوان الفرزدق – لإيليا حاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، ط1، 1983: 242/1، وينظر- شعراء البصرة في العصر الأموي: د. عون الشريف قاسم، دار الثقافة، بيروت، 1972: 166.
(4) أم عبد العزيز – هي ليلى بنت زبان بن الأصبغ بن عمرو بن ثعلبة بن حارث من بني كليب وجاء في الأغاني أنه قال: لا أعطي شيئاً حتى يذكرها في مدحي – لشرفها – فكان الشعراء يذكرونها في أشعارهم بأسمها... نقلاً عن ديوان الرقيات: 14.
(5) بيضاء: يعني هي أحسنهم وجهاً وأكرمهم أماً.
(6) ديوان الرقيات: 14، طنبة: عمود الخيمة.
(7) ديوانه نفسه: 156-157.

وهذا الشاعر الفرزدق يمدح إبراهيم بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك، يقول:

ومـــا مثلـــه فـــي النـــاس إلا مملكـــاً أبـــو أمـــه حـــي أبـــوه يقاربـــه[1]

* * *

نستدل من ذلك إلى أن الأم مفخرة لأبنائها، فمدحها مدح لأبنائها وهجاؤها تجريح وشتم لهم. فكان دخولها في مضمار الهجاء – أي أن يهجى شخص بسبب أمه – أمراً اعتيادياً منه، فمثلما كانت الأم سبباً في المدح كانت سبباً في الهجاء فالمرأة بشتى حالاتها كانت العامل الذي يثري الشعر العربي، سواء كانت أماً أو أختاً أو حبيبة أو زوجة أو ابنة.

* * *

أما علاقة الأم بوليدها، وحبها له وحنانها عليه، ذلك الحنان الذي هو بمثابة النور الذي ينير ظلمة حياة الأبناء، وذلك الحب العظيم الذي يودع فيه سر الأمل بالمستقبل.

وتبقى الأم مغمورة بعاطفة عظيمة تجاه ابنها ويبقى خوفها عليه من كل سوء ومن كل شر منذ طفولته إلى شبابه وحتى بعد كبر سنه وهرمه. ونزاه قد تتوسم في ابنها إمارات السعادة منذ كونه صغيراً وتجسد ذلك في ترقيصه معبرة عما تحسه تجاهه وما تتوسمه فيه، فقد كانت أم الفرزدق ترقصه وتقول له:

قصصـــت رؤيـــاي علـــى ذلـــك الرجـــل فقـــال لـــي قـــولاً وليـــت لـــم يقـــل

لتلـــــدن عضـــــلةً مـــــن العضـــــل ذا منطـــق جـــزل إذا قـــال فصـــل[2]

ونجد إعرابية تدعو لابن لها وقد وجهته إلى حاجة، فقالت له وهي تحصنه بدعواتها الطيبة لتبعد عنه الشر والأذى: (كان الله صاحبك في أمرك وخليفتك في أهلك وولـيُّ نجح طلبتك، أمض مصاحباً مكلوءاً، لا اشمت الله بك عدواً ولا أرى محبيك فيك سوءاً) [3].

فعلاقة الأم بابنها وحبها له علاقة حميمة صميمة غير قابلة للجدل. لكن يختلف الأمر عند الحديث عن مدى علاقة الابن بأمه، فقد تكون سلباً أو إيجاباً، وقد يقدر الابن تضحيات والديه فيطيعهما أو يكون جاحداً ناكراً للجميل فيعقهما، رغم معرفته بجزاء العقوق.

وقد يكون تدليل الوالدين له تأثيره الإيجابي في نفس الأبناء، هذا من جانب، ومن جانب آخر قد يكون سلبياً وربما يؤدي – التدليل الكثير- إلى عدم تربية الأولاد تربية

---

(1) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: المرزباني، جمعية نشر الكتب العربية، القاهرة، 1934: 124.

(2) أشعار الترقيص عند العرب: 35، عضلة: الداهية.

(3) العقد الفريد: 8/4.

رصينة متينة، وفي ذلك يقول عبد الملك بن مروان: (أضر بنا في الوليد حبنا له فلم نؤدبه، وكأن الوليد أدبنا) [1].

هذا الافراط الذي في غير محله، ربما يقود الوالدين إلى نتائج سيئة، فلا يقدم لهم الابن شيئاً سوى عقوقهما، ومن ذلك: قيل لأعرابي كيف ابنك؟

وكان به عاقاً، فقال: (عذابٌ لا يقاومهُ الصبر، وفائدةٌ لا يجب فيها الشكر، فليتني قد استودعته القبر) [2].

فنجد هذا الأب تمنى لولده الموت رغم قساوة ومرارة ذلك على نفسه..

ومن الذين ابتلوا بالعقوق " الفرزدق " (كان له ثلاثة أولاد يقال لهم – لبطة، سبطة، حنظلة – وكان لبطة) من العقفة فقال فيه أبوه الفرزدق:

أ أن ارعشت كفا أبيك وأصبحت يداك يدا ليث فاءنك جاذبه

رأيت تباشير العقوق هي التي من ابن امرئٍ ما إن يزال يعاتبه[3]

وإنصافاً للآباء فإن عواطفهم ومشاعرهم تجاه أبنائهم لم تكن أقل من عواطف ومشاعر الأمهات، وأن حب الأبناء ليس وقفاً على الأمهات فقط، فالآباء أيضاً عبروا عن حبهم العميق لبنيهم لأن الأبناء فلذات الأكباد.

فبالنسبة لعلاقة الأب بابنته علاقة قوية تنبع من حبه لها وخوفه عليها، على عكس ما وجدنا في الجاهلية تماماً، فالإسلام أنصفها، ونالت معزتها وحقها في حب أبيها، فكانت صورة تطور وارتقاء (تتحول فيها شراسة البدو، وجموحهم الواضح في المراحل الأولى – باطراد وتدرج – إلى ضرب من التسليم والخضوع لمواصفات الجماعة والانصياع لأوامرهم)[4].

وحتى طريقة إرشاد الأولاد وتقديم الموعظة لهم كانت تتخذ طابعاً خاصاً، نابع من عمق الصلة بينهم، ومن ذلك ما قاله (يزيد بن الحكم الثقفي) يعظ ابنه بدراً:

يا بدر والأمثال يضربها لذي اللب الحكيم

دم للخليل بوده ما خير ود لا يدوم

وأعرف لجارك حقه والحق يعرفه الكريم

واعلم بأن الضيف يو ما سوف يحمد أو يلوم

---

(1) المصدر نفسه: 245/2.
(2) العقد الفريد: 51/4.
(3) ديوان الفرزدق: 175/1.
(4) شعراء البصرة في العصر الأموي: 170.

والنـــــاس مبتنيـــــان: محمـــــود البنايـــــــــة، أو ذميـــــــــم[1]

ومن هنا نستطيع أن نضع أيدينا على الجرح العميق الذي لا يندمل أبد الدهر، من فقد الأبناء الذين هم قرة أعين الآباء.

ونجد دموع الشعراء تتفجر شعراً تعبيراً عن ذلك الحب العميق المتدفق، وذلك الألم الذي يعجز القلم عن تجسيده مهما كتب من آلاف السطور والقوافي ففي الحلق غصة وفي القلب حسرة لا يفيها القلم حقها.

نحن نعلم أن الرثاء هو المتنفس الوحيد للتعبير عن الألم منذ الجاهيلة إلى الآن؛ وأن الرثاء في العصر الأموي لم يختلف عن الرثاء في عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا في جوهره ولا في معناه، لأن عصر بني أمية قريب الصلة بعصر صدر الإسلام، بل هو جزء منه لامتداد حياة كثير من الصحابة أو أبناء الصحابة وكان الدين ما زال حياً نابضاً في نفوسهم وقلبوهم، فنرى العصر الأموي مرتبطاً أشد الارتباط بالعصر الإسلامي بعاداته وتقاليده الشعرية؛ رغم قلة الرثاء في هذا العصر والتوسع في باقي الأغراض وكثرتها[2].

فالرثاء ليس فقط رثاء الزوج زوجته، ولا رثاء الأم لأبنائها، بل رثى الآباء الأبناء، فهذا الفرزدق يرثي ابنيه بقصيدة يقول فيها:

فما ابناك إلا ابن من الناس فأصبري فلن يرجع الموتى حنين المآتم[3]

وقال عكرشة أبو الشغب العبسي يرثي ابنه:

قد كان شغب لو أن الله عمره عزاً تزادُ به في عزها مضر

فارقت شغباً وقد قوست من كبر لبئست الخلتان الثكلُ والكبر

ليت الجبال تداعت عند مصرعه دكاً فلم يبق من أركانها حجر[4]

(1) شعراء أمويون: دراسة وتحقيق د. نوري حمودي القبسي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1982، القسم الثالث: 272.

(2) ينظر – الصورة الأدبية في العصر الأموي: محمد حسين علي الصغير، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بغداد، 1975: 163.... ويعزى أسباب قلته إلى عاملين: 1. مادي 2. سياسي.

(3) شرح ديون الفرزق: 395/2، وينظر – الرثاء في الشعر العربي – جراحات القلوب: 136.

(4) شرح ديوان الحماسة: 296.

وقال آخر يرثي ولده:

فللـــــه در الـــــدافنيك عشـــــية أمـا راعهـم مثـواك فـي القبـر أمـردا[1]

وقال أبو ذؤيب الهذلي حين هلك بنوه الخمسة في عام واحد، في قصيدة طويلة تبلغ خمسة وستين بيتاً هي من عيون شعر الرثاء العربي نذكر منها قوله:

أمـــن المنـــون وريبهـــا تتوجـــع والـــدهر لـــيس بمعتـــبٍ مـــن يجـــزع

أودى بنـــي واعقبـــوني غصـــة بعـــد الرقـــاد وعبـــرةً لا تقلـــع

وإذا المنيـــة أنشـــبت أظفارهـــا ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع[2]

أما فقد الأبناء لآبائهم فأنه من الفجائع العظام التي تعصف بهم في حياتهم، فتحيلها إلى حزن ممض وألم شديد. فمن ذلك ما عبر عنه عبيد الله بن قيس الرقيات حين فجع بأبيه وهو لا يرى من حوله إلا أمه الثاكلة التي جللها الحزن وغمرها الألم وليس معها من يعاونها ويعينها على البكاء والنحيب ولا من يواسيها فأجاد في تصوير حال اليتيم وأمه الأرملة، يقول:

يتـــــامى يبكـــــون آبـــــاءهم ولـــم يبـــق دهـــر لهـــم ســـائمه

وارملـــــة يعتريهـــــا النحيـــــب إذا نامـــــت الأعـــــين الناعمـــــة

تبكـــــي رجـــــال بنـــــي عمهـــــا وإخوتـــــها وحدهـــــا قائمـــــة[3]

* * *

(1) شرح ديوان الحماسية: 296.

(2) المفضليات: المفضل بن محمد الضبي، تحقيق – احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، مطبعة المعارف، مصر، ط6، 1979: 421.

(3) ديوان الرقيات: 101.

ومن ذلك نخلص إلى شيء مفاده:

في هذا العصر لم تفقد المرأة احترام أبيها ولا تقدير زوجها ولا حب أبنائهم، وتكريمهم لها، فكانت محور التفاف الأسرة ورمز أخلاقياتها..

الأمومة والبنوة في العصر العباسي:

إن العصر العباسي هو نقطة تحول في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، ليس من اختصاص هذا البحث ذكر أسبابها، وإنما الذي يعنينا هو الإشارة إلى المظاهر العامة لتلك الحياة.

فمن الناحية السياسية انتقل الحكم والخلافة من فئة إلى فئة كل منها تعتمد قيم وأساليب وأهداف خاصة بها، ومن الناحية الفكرية ازدهرت في هذا العصر العلوم والفنون والآداب في شتى مجالاتها ازدهاراً عظيماً.

ومن الناحية الاجتماعية انتشر الرخاء وعم البذخ والترف بأوسع مجالاته، وكان من مظاهر ذلك البذخ والترف انتشار الجواري انتشاراً واسعاً وصارت للرقيق أسواق كبيرة يعرضون فيها أجناساً مختلفة من السبيات للبيع والشراء، فلا يكاد يخلو بيت من البيوت من جارية أو أمة، حتى أصبحت كثرة تلك الجواري والقيان سبباً مهما وخطيراً من أسباب التنافس بينهن وبين الناس الحرائر من العربيات، فالمرأة العربية تعتز كل الاعتزاز بانتمائها القبلي ومجد عائلتها وكرم منبتها، بينما تعتز تلك الفئة المنافسة الأخرى من الجواري والإماء والقيان بما تتقن من المهارات الفنية كالغناء والشعر والموسيقى وغير ذلك..

ومن البديهي في هذا العصر الذهبي – ظهور نساء لهن باع في الأدب فنبغت شاعرات كثيرات تميزن في فن الشعر، فكانت الدواوين حافلة بأشعار بديعة وسجل لنا التاريخ وكتب الأدب أسماء الكثيرات منهن؛ وأرى أن طبيعة المرأة ورقة شعورها ورهافة حسها دفعتها إلى غرضي المدح والرثاء، فهي تمدح أخاً أو أباً أو ترثي ابناً أو زوجاً.

وكان لكثير من الزوجات الفاضلات مكانة حسنة وكبيرة عند أزواجهن، مما جعل فقدان تلك الزوجات يثير مشاعر الزوج ويفجر قريحته شعراً في رثائهن، فقد رثاها بأروع ما يكون تأسياً على فقده إياها.

ومن ذلك قول (عز الدين محمد بن أبي القاسم المسبحي – ت 420هـ) في رثاء زوجته:

لا في سبيل الله قلب تقطعا ... وفادحة لم تبق للعين مدمعا

أصبرا وقد حل الثرى من أوده ... فلله هم ما أشد وأوجعا

فياليتني للموت قد مت قبلها ... وإلا فليت الموت أذهبنا ما[1]

وقال أعرابي يرثي امرأته:

فو الله ما أدري إذا الليل ضمني ... وذكرنيها أينا هو أوجع

(1) تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ، ط3، 1981، بيروت: 88/3.

أمنفصـــل عـــن ثـــدي أم كريمـــة أم العاشق النابي بـه كل مضجع [1]

وقد رثى بعض الأزواج زوجاتهم من حيث كونهن أمهات لأبنائهم وأنهن تركن هؤلاء الأولاد يتامى بغير أم، فمن جيد ما رثي به النساء وأشجاه وأشده تأثيراً في القلب وأثارة للحزن، قول (محمد بن عبد الملك) في أم ولده:

أ لا مـن راى الطفـل المفـارق أمـه بعيـد الكـرى عينـاه تبتـدران

رأي كـل أم وابنهـا غيـر أمـه يبيتـان تحـت الليـل ينتحبـان

وبـات وحيـداً فـي الفـراش وتحتـه بلابـل قلـب دائـم الخفقـان

فهبنـي عزمـت الصـبر عنهـا لأننـي جليـد، فمـن بالصـبر لابـن ثمـان؟[2]

* * *

إن عاطفة الأمومة أثارت الكثيرات من الأمهات، فنذكر في هذا الصدد السيدة (زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد) حيث قامت بتعزية ولدها (محمد الأمين) في جارية له اسمها (نظمى) التي كان يهواها واشتد جزعاً على موتها، فقالت له والدته زبيدة:

نفسـي فـداؤك لا يـذهب بـك التلـف ففـي بقائـك ممـن قـد مضـى خلـف[3]

وفي هذا العصر تردد ذكر صورة الأم وصورة الأبناء في صور وأغراض مختلفة...

وفقدان الأبناء ربما يكون جرحه أمض ووقعة على نفوس الآباء والأمهات أوجع وأفظع، وديوان الشعر العربي وخصوصاً في العصر العباسي حافل بالشعر الحزين الصادر من أعماق القلوب والمؤثر في حنايا النفوس، ولا يسعنا إلا أن نعرض منه نموذجين من رثاء الآباء لأبنائهم، ذلك الرثاء العاطفي البليغ، الأول منهما قصيدة (ابن الرومي) الحزينة المؤثرة التي قالها في رثاء ابنه والتي تبلغ واحداً وأربعين بيتاً، نختار منها:

بكاؤكمـا يشـفي وإن كـان لا يجـدي فجـودا فقـد اودى نظيركمـا عنـدي

بنـي الـذي اهدتـه كفـاي للثـرى فيا عزة المهدى ويا حسرة المهدي

ألا قاتـل الله المنايـا ورميهـا من القوم حبات القلوب على عمد

تـوخى حمـام المـوت أوسـط صـبيتي فللـه كيـف اختـار واسـطة العقـد

---

(1) العقد الفريد (ط 1952): 281/3.
(2) الرثاء في الشعر العربي – جراحات القلوب: 158-159.
(3) تطور المرأة عبر التاريخ: 67.

طـواه الـردى عنـي فأضـحى فـزاره بعيـداً علـى قـرب قريبـاً علـى بعـد

وإنـــي وإن متعـــت بـــأبني بعـــده لـذاكره مـا حنـت النيـب فـي نجـد

وأولادنـــا مثـــل الجـــوارح ايهـــا فقـدناه كـــان الفـــاجع البـــين الفقـد

هـل العـين بعـد السـمع تكفـي مكانـه أم السمع بعد العين يهديك ما تهدي[1]

تهدي[1]

وثاني الشاهدين من رثاء الأبناء في العصر العباسي قصيدة (أبي الحسن التهامي – ت 416هـ) في رثاء ابنه والتي تعتبر من أشهر وأشجى رثاء الأبناء في الشعر العربي كله؛ والحقيقة أنه قد رثى أبنه الصغير (أبا الفضل) بقصائد عديدة كلها من عيون الشعر، ولكن القصيدة التالية أشهرها وهي تبلغ سبعة وثمانين بيتاً، نختار منها:

حكـــم المنيـــة فـــي البريـــة جـــار مـــا هـــذه الـــدنيا بـــدار قـــرار

طبعـت علـى كـدر وانـت تريـدها صـــفواً مـــن الأقـــذاء والاكـــدار

وملكـــف الأيـــام ضـــد طباعهـــا متطلـــب فـــي المـــاء جـــذوة نـــار

وإذا رجـــوت المســـتحيل فأنمـــا تبنـــي الرجـــاء علـــى شـــفير هـــار

فـــالعيش نـــوم والمنيـــة يقظـــة والمـــرء بينهمـــا خيـــال ســـار

يـا كوكبـاً مـا كـان اقصـر عمـره وكـــذا تكـــون كواكـــب الأســـحار

جـــاورت أعـــدائي وجـــاور ربـــه شـــتان بـــين جـــواره وجـــواري

والشـرق نحـو الغـرب أقـرب شـقة مـــن بعـــد تلـــك الخمســـة الاشـــبار[2]

والأمهات أيضاً سجلن في رثاء ابنائهن شعراً مؤثراً حزيناً حاولن فيه التعبير عن عاطفتهن الجياشة التي تقطر ألماً وحرقة وحسرة على ابنائهن، ونذكر من ذلك ما قالته السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد في رثاء ولدها الأمين بعد مقتله على يد قائد المأمون " طاهر بن الحسين "، فقد سجلت زبيدة مقطوعة شعرية أرسلتها إلى المأمون، تقول فيها:

لمـا رأيـت المنايـا قـد قصـدن لـه اصـبنا منـه سـواد القلـب والراسـا

(1) ديوان ابن الرومي: تحقيق د. حسين نصار، القاهرة، مطبعة دار الكتب، 1974، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب 624/2.

(2) ديوان أبو الحسن التهامي: شرح وتحقيق – د. علي نجيب عطوي، نشر مكتبة الهلال، بيروت، 1986: 461.

والمـــوت كـــان بـــه والهـــم قارنـــه حتـــى سـقاه التـــي أودى بهـــا الكاســا[1]

أما الموقف من البنات فقد كان مضطرباً خصوصاً في العصر العباسي، بين محب لها مشير إلى منزلها، وبين كاره لها حريص على دفنها... وكل ذلك مرتبط بمستوى التفكير الاجتماعي للعائلة...

وأن موقف الكره للبنات، موقف فيه آثار الجاهلية، رغم أن الإسلام قد ألغى هذه النظرية السيئة تجاه البنات بالمثل الإنسانية التي أكد عليها لخدمة البشر جميعاً؛ لكن جذور ذلك التخلف لم تذهب من النفوس تماماً، بل بقيت حتى العصر العباسي، فاشتدت بهم الحال في كرههم للبنات إلى درجة جعلتهم يعتبرون أن من نعم الله عليهم موتهن؛ وتقديم التهنئة في فقدهن بدل التعزية. وهذا (البحتري) يعزي (أبا نهشل محمد بن حميد) عن ابنته، بقصيدة جاء فيها قوله:

والفتـــى مـــن رأى القبـــور لمـــا طـــاف بـــه مـــن بناتـــه أكفـــاءا

لســـن مـــن زينـــة الحيـــاة كعـــد الله منهـــا الأمـــوال والابنـــاءا

قـــد ولـــدن الأعـــداء قـــدماً وورثـــن الـــتلاد الاقاصـــي البعـــداءا

لـــم يئـــد كثـــرهن قـــيس تمـــيم عيلـــة بـــل حميـــة وأبـــاءا[2]

بل أكثر من ذلك فإن بعض الناس كانوا ينظرون إلى آباء البنات بعين الشفقة والرحمة، لأنهم يعتبرون ((موت البنات من المكرمات)) [3].

وبالمقابل كانت هناك نظرة إنسانية إلى البنات حففت الكثير من التزمت تجاههن والكره لهن، فهناك أقوال للعرب وأشعار كثيرة توثق تلك المواقف من البنات كما يوجد في المقابل أشعار أخرى توثق لنا محبة البنات، فمن ذلك ما قاله " محمد بن جعفر ":

" البنات حسنات والبنون نعم، والحسنات مثاب عليها والنعم مسؤول عنها"[4] وقول وقول " الصاحب " ينهى عن إنكار البنات:

أيـــاك أن تنكـــر الانـــاث فكـــم انثـــى غـدت فـي فخارهـا ذكـرا[5]

وهناك مواقف أخر تكشف عن التعاطف الرقيق بين الأب وأبنته، والبر بها والحنو عليها، من ذلك قول (اسحق بن خلف – ت 230 هـ) في ابنته:

---

(1) شاعرات العرب: 212.
(2) ديوان البحتري: تحقيق وشرح – حسن كامل الصيرفي، طبع دار المعارف، مصر، ط2، 1972: 39/1.
(3) العقد الفريد: 282/3.
(4) محاضرات الأدباء: 326/1.
(5) المصدر نفسه.

لــولا أميمــة لــم أجــزع مــن العــدم ولـم أجـب فـي الليـالي حنـدس الظلـم

وزادنــي رغبــة فــي العـيش معرفتــي ذل اليتيمـــة يجفوهـــا ذوو الـــرحم

تهــوى لقــائي واهــوى موتهــا شــفقاً والمــوت اكـرم نـزال علـى الحـرم

اذا تـــذكرت بنتـــي حـــين تنـــدبني فاضـت لعبـرة بنتـي عبرتـي بـدم

وأقوى الشواهد أثاره، موقف الشاعر الفارس المشهور (أبي فراس الحمداني) يوم جرح في الحرب[1]، وأدى به ذلك الجرح إلى موته فقال وهو على فراش الموت مخاطباً ابنته:

أبنيتـــــــــي لا تحزنـــــــــي كـــــل الانـــــام إلـــــى ذهـــــاب

أبنيتـــــــي صـــــــبراً جميـــــــ لاً للجليـــــل مـــــن المصـــــاب

نـــــــوحي علـــــــيّ بحســـــــرةٍ مـــن خلـــف ســـترك والحجـــاب

قـــــــــولي إذا نـــــــــاديتني وعييـــــت عـــــن رد الجـــــواب

زيـــــن الشـــــباب أبـــــو فـــــر اس لـــــم يمتـــــع بالشبـــــاب[2]

وبما أن البنت ثمرة من ثمار العائلة، فإن فقدانها يؤدي إلى حزن عميق، تخفف من غلوائه المواساة والتعزية. كقول (ابن الرومي) في تعزية (علي بن عبد الله بن المسيب) عن ابنته، يخفف من وطأة الألم على ذويها يقول:

تعزيـــت عمـــن اثمرتـــك حياتـــه ووشـك التعـزي عـن ثمـارك اجـدر

تعـــذر ان نعتـــاض مـــن أمهاتنـــا وآبائنـــا والنســـل لا يتعـــذر

فـلا تهلكـن حزنـاً علـى ابنـة جنـة غدت وهـي عند الله تحبى وتحبر[3]

ومـن أرق رثـاء البنـات وأصـدقه لوعـةً فـي العصـر العباسـي، رثـاء الشـاعر (الصـنوبري – ت334هـ) لابنته الوحيدة (ليلى) فمما قاله في رثائها قصيدة تفيض بالحزن واللوعة تبلغ ثلاثين بيتاً، نختار منها قوله:

أقصـــر فمـــا تملـــك إقصـــاري صـــبرت مـــن لـــيس بصـــبار

(1) فرات الوفيات – لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس – بيروت، 1973: 164/1، وينظر وينظر – شعراء بغداد من تأسيسها حتى اليوم: 114/2.
(2) ديوان أبي فراس الحمداني – رواية ابن خالويه، طبع دار صادر، بيروت، د. ت: 55.
(3) ديوان ابن الرومي، مطبعة دار الكتب، مصر، 1976: 952/3.

أضـــر بـــي ثكلـــك ليلـــى وفـــي إضـــراره بـــي كـــل اضـــرار
أجيـــل فـــي قبـــرك عينـــي فـــي مجـــــــال أرواح وأمطـــــــار
اشـــــتاق رؤيـــــاك فـــــآتي فـــــلا أرى ســـــوى تـــــرب واحجـــــار
يـــا ربـــة القبـــر المضـــيء الـــذي يضـــيء ضـــوء الكوكـــب الســـاري
قـــومي إلـــى دارك قـــد انكـــرت صـــــبرك عنهـــــا أي إنكـــــار
استوحشـــــت دارك مـــــن أهلهـــــا واســـتوحش الأهـــل مـــن الـــدار
كنـــت لقريـــر العـــين إذ كنـــت لـــي تحلـــــو أحـــــاديثي وأخبـــــاري
وكـــــان شـــــعري يتغنـــــى بـــــه فاستحسنـــــت للنـــــوح أشعـــــاري[1]

والذي لفت نظري وأنا أتصفح ديوان الصنوبري، أنني وجدته قد رثى ابنته (ليلى) باثنتي عشرة بين قصيدة ومقطوعة، كلها على هذا النسق من الشعر الذي ينبض باللوعة والحزن. علماً بأن ديوانه المطبوع الذي حققه الدكتور (إحسان عباس) لم يشتمل على كل شعره حيث ضاع ولم يبق منه غلا ما قاله الشاعر من حرف الراء حتى حرف القاف.

ولم أجد في حدود تتبعي وبحثي عن المصادر والمراجع، شاعراً عباسياً رثى ابنته بهذا العدد من القصائد والمقاطيع.

ومن أشهر الشعراء الذين رثوا أبنائهم بشع حزين تداولته الألسن على مر العصور هو الشاعر (أبو الحسن التهامي) صاحب قصيدة:

حكـم المنيـة فـي البريـة جـار مـــا هـــذه الـــدنيا بـــدار قـــرار

الذي سبقت الإشارة إليه، فأنه رثى أبنه (أبا الفضل) بأربع قصائد فقط.

ولا شك بأن رثاء (الصنوبري) لابنته الوحيدة (ليلى) من أجود المراثي وأغزرها.

* * *

كذلك نجد صورة (الأم) في أدب العصر العباسي مختلفة السمات والملامح أيضاً، تبعاً لاختلاف الظروف وتباين النظرة إليها وتباعد مواقف القائلين فيها. وبدت صورتها مختلفة في أغراض الشعر جميعها كالمدح والهجاء والرثاء. فمما جاء في مديح الأمهات قول الشاعر (أبي الغول) يمدح الخليفة الأمين، ويبين في مدحه له اعتزازه بالانتماء إلى أمه الهاشمية السيدة (زبيدة):

ملـــكٌ أبـــوهُ وأمـــهُ مـــن نبعـــةٍ منهـــا ســـراج الأمـــة الوهـــاج

(1) ديوان الصنوبري: احمد بن محمد بن الحسن الضبي (ت 334هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، نشر دار دار الثقافة، بيروت، 1970: 99.

شـربت بمكـة مـن ذرى بطحائهـا مـــاء النبـــوة ليـــس فيـــه مـــزاج[1]

وتبقى الأم محط فخر الأبناء سواء كانت عربية صميمة أم أعجمية، ومن الطريف أن نذكر فخر الشاعر بشار بن برد في بعض شعره بأمه الرومية حيث يقول

جـــدي الـــذي اســـموا بـــه كســـرى وساســـان ابـــي

وقيصـــــــر خـــــالي إذا عـــددت يـــوماً نسبـــي[2]

وأحياناً تكون (الأم) ضحية للخصومات التي طالما تشتد بين الشعراء، فتكون مجالاً للشتم والهجاء، وأرى أن ذلك متأت من مكانتها الرفيعة في نفس المجتمع، فربما يكون الخطب أشد وأقوى وأكثر إيلاماً إذ كان في تجريح (الأم) سواء كان الكلام الفاحش والشتم المنسوب إليها حقاً أو باطلاً.

فهذا (ابن الرومي) يهجو (علي بن سليمان الأخفش) بأمه يقول:

ومـــا واحـــد جـــاء مـــن أمـــه بأعجـــب مـــن ناقـــدٍ اخفـــش

أســـيود جـــاءت بـــه قـــردةٌ سويـــداء غاويـــة المفـــرش[3]

وقال ابان عبد الحميد اللاحقي في أبي نؤاس ثلاث أبيات يهجوه بأمه:

أبـــو نـــؤاس بـــن هـــاني وأمـــــــهُ جلبـــــــان

والنـــــاس افطـــــن شـــــيءٍ إلـــــى حـــــروف المعـــــاني

إن زدتُ بيتـــــاً علـــــى ذي مـــا عشـــتُ فأقطـــع لسانـــي[4]

وتجلو (الأم) بقلبها الحنون كل الهموم وتمحو بيدها الطاهرة كل خطوط الأسى، فتكون عزاءاً وسلواناً في كل مصيبه، فيجري ذكره على السنة الشعراء في أشد حالات المحنة والضيق... فهذا (أبو فراس الحمداني) يكتب إلى والدته من الأسر وقد ثقلت جراحه، يبثها أشجانه ويصبرها على مصابها به، فيقول:

---

(1) مروج الذهب – للمسعودي: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، 1964، القاهرة: 405/3.

(2) ديوان بشار بن برد: جمع وتحقيق – محمد طاهر بن عاشور، نشر لشركة التونسية، 1967: 389/1، 389/1، وينظر – تاريخ الشعر في العصر العباسي: د. يوسف خليف، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1981: 40.

(3) ديوان ابن الرومي: 1247/3.

(4) طبقات الشعر– لابن المعتز: تحقيق– عبد الستار احمد فراج، طبع دار المعارف بمصر، 1956: 242.

تطـول بـي السـاعات وهـي قصـيرة وفـي كـل دهـرٍ لا يسـرك طـول

وان وراء السـتر أمـا بكاؤهـا علـيَّ وان طـال الزمـان يطـول

فيـا امتـا لا تعـدمي الصـب انـه إلـى الخيـر والـنج القريـب رسـول

ويـا امتـا لا تخطئـي الاجـر إنـه علـى قـدر الصـبر الجميـل جزيـل

تأسـي كفـاك الله مـا تحذرينـهُ فقـد غـال هـذا النـاس قبلـك غـول[1]

ولعل أصدق تعبير عن تلك الأغراض هو " الرثاء " لأنه لا يصدر إلا عن قلب مفجوع ونفس موجوعة تتدفق منها الأحزان واللوعة. ولا أحسبنا نغالي إذا قلنا أن رثاء (الشريف الرضي) لأمه السيدة (فاطمة بنت الناصر – ت 385هـ) من أروع وأوجع وأبدع ذلك الرثاء الذي ينبض بأصدق المشاعر والأحاسيس، ومما جاء في تلك الرائعة الحزينة قوله:

أبكيـك لـو نفـع الغليـل بكـائي وأقـول لـو ذهـب المقـال بـدائي

وأعـوذ بالصـبر الجميـل تعزيـاً لـو كـان بالصـبر الجميـل عزائـي

كـم عبـرةٍ موهتهـا بأنـاملي وسـترتها مـتجملاً برادائـي

فارقـت فيـك تماسـكي وتجملـي ونسـيت فيـك تعـززي وإبـائي

قـد كنـت امـل أن أكـون لـك الفـدا ممـا الـم فكنـت انـت فـدائي

وتفـرق البعـداء بعـد مـودة صـعب، فكيـف تفـرق القربـاء

لـو كـان مثلـك كـل أم بـرةٍ غنـي البنـون بهـا عـن الابـاء

لـو كـان يبلغـك الصـفيح رسـائلي أو كـان يسـمعك التـراب نـدائي

لسـمعت طـول تـأوهي وتفجعـي وعلمـت حسـن رعـايتي ووفائـي[2]

و(المتنبي) يرثي جدته لأمه لأن أمه ماتت وهو طفل رضيع، فقامت جدته لأمه بتربيته فكان يعتبرها أمه الحقيقية. وورد عليه كتاب من جدته، تشكو شوقها إليه وطول

(1) ديوان أبو فراس: رواية ابن خالويه، طبع دار صادر، د. ت: 232.
(2) ديوان: الشريف الرضي (ت404هـ): إصدار مؤسسة الاعلمي للمطبوعات في بيروت، نسخة مصورة على الطبعة الأصلية الأولى، د.ت: 18/1.

غيبته عنها، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه، فقبلت كتابه وحمت لوقتها سروراً به وغلب الفرع على قلبها فقتلها، فقل يرثيها:

ألا لا أري الأحداث مدحاً ولا ذما ... فما بطشها جهلاً ولا كفها حلما

لك الله من مفجوعة بحبيبها ... قتيلة شوقٍ غير ملحقها وصما

أحنُ إلى الكأس التي شربت بها ... وأهوى لمثواها التراب وما ضما

بكيت عليها خيفةً في حياتها ... وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما

أتاها كتابي بعد يأسٍ وترحة ... فماتت سروراً بي فمت بها غما

تعجبُ من لفظي وخطي كأنما ... ترى بحروف السطر أغربةً عصما

ولم يسلها إلا المنايا وأنما ... أشد من السقم الذي أذهب السقما

ولو لم تكوني بنت اكرم والدٍ ... لكان أباك الضخم كونك لي أما[1]

وشاعر عباسي ثالث هو (الصنوبري – ت334هـ) رثى أمه بقصيدة تفيض حزنا وتتفجر لوعة نشير منها إلى قوله:

قد صوحت روضتي المونقه ... وانتزعت دوحتي المورقه

لا يبعدن مثواك يا أمَّ ما ... أبعد مثواك وما اسحقه

لله أمٌ ما ينيي حزنها ... مجدداً أحزاني المخلقة

من تتحامى أن ترى ظلمةً ... أسكنتها في ظلم مطبقة

ومن تضيق الأرض في عينها ... أهديتها للحفرة الضيقة[2]

مدخل إلى العصر الحديث

ألزمت نفسي في دراستي أثناء التمهيد الذي بدأت به هذه الدراسة، بتجسيد عواطف الأمومة والبنوة في الشعر العربي خلال العصور المختلفة، وسرت فيها على منهج يبرز دور الأمهات والأبناء في مختلف الأغراض الشعرية المتداولة في تلك العصور كالرثاء والمديح والفخر والهجاء، وعرضنا في ثنايا الدراسة النماذج والشواهد التي يتطلبها سياق

(1) شرح ديوان المتنبي – للبرقوقي، ط2، 1938، (مصورة) عن طبعة بيروت، دار الكتاب العربي، 1986: 226/4.

(2) ديوان الصنوبري: 442.

البحث، من ذلك النتاج الشعري الرائع الذي يعبر عن العواطف والمشاعر في شتى مواقفها ومختلف انفعالاتها.

والآن يحق لنا أن نتساءل، هل بقيت تلك الأغراض الشعرية في تلك العصور السابقة على ما هي عليه في العصر الحديث الذي هو محور بحثنا ودراستنا ! سيتولى بحثنا نفسه الإجابة عن ذلك بالتفصيل في فصول هذه الدراسة.

ولكننا في هذا المدخل نرى لزاماً علينا أن نقدم خطوطاً عامة تؤهل هذا المدخل لأن يرسم ملامح خاطفة عن ذلك.

عواطف الأمومة ومشاعر البنوة تجاهها، هي هي لا تختلف باختلاف العصور والأمكنة لأنها مشاعر إنسانية ذاتية غريزية، ولكن الذي يختلف بين عصر وعصر ومكان ومكان هو الأفكار والأساليب التي يعبر بها عن تلك المشاعر، فلكل زمان أفكاره المستحدثة ومعانيه الجديدة المستوحاة من مستوى تقدمه الفكري والثقافي والاجتماعي، بالإضافة إلى ما تفرضه تقاليد كل عصر وعاداته.

وبطبيعة الحال فإن الأساليب تكون مما يتناسب مع ذلك المستوى الاجتماعي والفكري والثقافي، فمعاني العصر الحديث – إذن – مستوحاة من صميم عاداته وتقاليده الجديدة والتي يؤثر فيها تأثيراً بالغاً التقدم الفكري والحضاري الهائل الذي يسود روح هذا العصر.

أما أساليب العصر الحديث، فقد اختلفت هي الأخرى عن الأساليب القديمة حيث امتازت في هذا العصر بالبساطة والعفوية التي لا تخرج بها عن التعبير الفصيح وربما البليغ أيضاً، ولكنه يبتعد به عن التعقيد والجفاف والجمود، فيعمل الأسلوب الحديث على تعميق التأثير العاطفي في النفوس والاستحواذ على المشاعر.

وللأفكار الجديدة التي تعبر عنها أساليب العصر الحديث مجالاتها الجديدة والحديثة أيضاً، فالفخر مثلاً اختلفت بواعثه ودواعيه، والهجاء أنحسر – في الغالب- انحساراً كبيراً، والمديح أصبحت تفرضه قيم جديدة، والرثاء باعتباره عاطفة إنسانية بقي هو هو، ولكن معانيه اختلفت وأفكاره أخذت أبعاداً جديدة، ربما تكون – كما سنراها في ثنايا البحث – في تأثيرها العاطفي أبعد مدى وأوسع نطاقاً وأعمق صدى في النفوس والقلوب.

هذا بالنسبة للأغراض القديمة؛ وبطبيعة الحال فإن تلك الأغراض القديمة لم تبق وحدها في ميادين شعر الأمومة والبنوة في العصر الحديث، بل استجدت أغراض أخرى فرضتها طبيعة العصر ومستويات تفكيره فتشبع شعر الأمومة والبنوة بروح الوطنية والتطورات الاجتماعية والاتجاهات السياسية، فأخذ طابعاً يختلف كل الاختلاف عن مثيله من أشعار العصور السابقة في أفكاره وأساليبه.

كما سيتجلى ذلك لنا واضحاً كل الوضوح في ثنايا فصول هذه الدراسة...

الفصل الأول
العلاقات الأسرية والتربوية في شعر الأمومة والبنوة

الفصل الأول
العلاقات الأسرية والتربوية في شعر الأمومة والبنوة

مكانة الأم في البيت وأثرها في العلاقات الأسرية:

خلقت المرأة لتأدية دور إنساني عظيم تؤدي من خلاله واجبات كثيرة وكبيرة، تكون من خلالها منبعاً فياضاً للتربية القويمة والأخلاق السديدة والسجايا العالية والثقافة الرصينة ومثالاً حياً لصفات الكمال التي ننشدها في تربية الأبناء.

ما من أحد ينكر المكان البارز الذي تحتله الأم في الأسرة والبيت[1]، فهي المحور الأساس الذي تلتف حوله كل أطراف الأسرة.

ونخص الأم – لا الأب- بهذه الرسالة، لأن هناك فوارق أزلية أبدية بينها وبين الرجل (اقتضتها الحكمة الكونية العميقة التي تعنى دائماً بالتميز الدقيق، عناية تتطلبها عمارة هذه العوالم القائمة على تقسيم الأعمال) [2].

فالأم أساس الأسرة وعمادها، للخصائص الطبيعية التي تتميز بها دون الرجل، ومهما أريد لها أن تخرج عما خلقها الله سبحانه وهيئها له من إدارة الأسرة وتدبير شؤون المنزل وتربية الأطفال وبر الزوج، فإن ذلك خرق للقانون الطبيعي الذي خلقت له والفطرة التي فطرها الله عليها.

كما أن الرجل هيأه الله بموجب خلقته وصفاته وطبائعه الغريزية إلى أن يؤدي أعمالاً جساماً أخرى هي بطبيعة الحال غير الأعمال المنوطة بالمرأة.

فالحياة المثالية إذن لا يمكن أن تقوم لها قائمة صحيحة وسليمة إلا بالمرأة والرجل معاً، لأن كلاً منها متمم للآخر وبطبيعة الحال تبقى الحياة نافعة ومعطلة بعمل طرف واحد من طرفيها الأساسيين، كما عبر عن ذلك الشاعر (الزهاوي) بقوله:-

وكل جنس له نقص بمفيده أما الحياة فبالجنسين تكتمل[3]

ولكن الشيء الذي يجب علينا أن لا ننساه ولا نتغافل عنه أبداً هو إن قيام أي من الطرفين – الرجال والنساء – بما لم تؤهله له طبائعه وغرائزه يؤدي بلا شك إلى تدمير الأسرة، ثم بالتالي المجتمع الإنساني كله، الذي تكون الأسرة بذرته الأولى.

---

(1) الأسرة – هي الأساس الأول في القبيلة عند أكثر الأمم القديمة وبعد الأب رئيسها، تساعده زوجته، زوجته، ويحيط به أولاده الذين يمثلون عوامل ربط في قوة الأسرة واستمرارها، على أن عضوي الأسرة اللذين يعدان الأساس الأول لما هما (الأب والأم) يرتبط كل منهما بأواصر أسرية سابقة تأخذ نمطاً جديداً في التنظيم الأسري بعد المصاهرة، يطلق عليه العمومة والخؤولة الذي يمثل الأنصال الجذري بالانتماء إلى ركني الأسرة. ينظر – العملات الأسرية في الشعر العربي قبل الإسلام: حميد أدم ثويني، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1981: 10.

(2) الأسرة والمرأة – سعيد الأفغاني: 110.

(3) ديوان الزهاوي – (ط1972)، دار العودة، بيروت، بقلم عبد الرزاق الهلالي: 492، من قصيدة "الرجل والمرأة ".

(لذلك فليس غريباً أن نجد شاعراً من رواد النهضة الأدبية في العراق هو الشيخ " محمد رضا الشبيبي " يرى أن الطبيعة البشرية هي التي تحكمت في الواجبات والمسؤوليات الملقاة على عاتق كل من المرأة والرجل. إذ لا يمكن للحياة أن تكون بشكلها الأمثل إلا إذا قام كل من النشاء بما هيأتهما له طبيعتها البشرية) [1].

فيقول (الشيخ الشبيبي) في هذا الشأن من قصيدة " سراب الآمال":

وأربـــاب الحـــج لهـــم حقـــوق بنســـــبتهم كريـــــات الحجـــــال

بتـــدبير المنـــازل هـــن أولـــى وهـــم أولـــى بتـــدبير النـــزال

ولـــو كلفـــن جلـــب الـــرزق كانـــت وظيفـــتهن طـــوع الاخـــتلال

ومـــن للنســـل تربيـــةً وحفظـــاً إذا ســـاوينا فـــي كـــل حـــال

فيـــا بنـــت الكمـــال نعمـــت بـــالاً ولســـت أقـــولُ يـــا بنـــت الـــدلال

صـــنيعك لليمـــين تقـــوم فيـــه مفـــاخرة ومهـــدك للشمـــال[2]

وهذا شاعر آخر من جيل الشبيبي ومن رواد الشعر الحديث هو الشيخ (علي الشرقي) يعتبر صدر المرأة الحنون هو بيت الحياة وحياة البيت، فيقول في نفس المعنى الذي نحن بصدده[3]، من قصيدة عنوانها " الشرقية أو عذراء الشرق":

فيـــا صـــدر الفتـــاة ولســـت إلا حيـــاة البيـــت أو بيـــت الحيـــاة

حنانـــك هـــل عطفـــت علـــى صـــبي تلقـــى منـــك أســـنى العاطفـــات

بكيـــت علـــى البنـــات دمـــاً بعـــين بكـــت مـــن قبلـــها للأمهـــات[4]

وهذا شاعر آخر من شعراء النهضة الحديثة هو الشاعر (معروف الرصافي) يعبر عن المعنى نفسه في قصيدة " التربية والأمهات " بقوله:

فيـــا صـــدر الفتـــاة رحبـــت صـــدراً فأنـــت مقـــر أســـنى العاطفـــات

نـــراك إذا ضـــممت الطفـــل لوحـــاً يفـــوق جميـــع ألـــواح الحيـــاة

---

(1) المعارك الأدبية حول الدعوة إلى تحرير المرأة في الشعر العراقي الحديث (كتاب مخطوط) ألقي ملخصه في مؤسسة عبد الحميد شومان، المملكة الأردنية الهاشمية، في 1996/8/31م، بقلم: د. محمد جواد الغبان: ص9.

(2) ديوان الشبيبي، طبع القاهرة، 1940: ص100.

(3) المعارك الأدبية حول الدعوة إلى تحرير المرأة في الشعر العراقي الحديث: ص10.

(4) ديوان الشرقي، طبع وزارة الإعلام، 1979: ص42.

لــو اســتند الوليــد عليــك لاحــت تصـــــاوير الحنـــــان مصـــــورات

لأخـــلاق الوليـــد بـــك إنعكـــاس كمـــا انعكـــس الخيـــال علـــى المـــرأة

ومـــا ضـــر بـــأن قلبـــك غيـــر درس لتلقـــــين الخصـــــال الفاضـــــلات

فـــأول درس تهـــذيب الســـجايا يكـــون عليـــك يـــا صـــدر الفتـــاة

فكيـــف نظـــن بالأبنـــاء خيـــرا إذا نشـــؤوا بحضـــن الجـــاهلات

وهـــل يرجـــى لأطفـــال كمـــال إذا ارتضـــوا ثـــدي الناقصـــات

فمـــا للأمهـــات جهلـــن حتـــى أتـــين بكـــل طيـــاش الحصـــاة

حنـــون علـــى الرضـــيع بغيـــر علـــم فضـــاع حنـــو تلـــك المرضـــعات

وفي مطلع هذه القصيدة " التربية والأمهات " نفسها يؤكد شاعرنا (الرصافي) على أهمية الأخلاق ودورها الكبير والعظيم في تربية الأمهات لأبنائهن وانعكاس ذلك الدور على سلوكهم وتوجيهاتهم في حياتهم الخاصة والعامة. بقوله:

هـــي الأخـــلاق تنبـــت كالنبـــات إذا ســـقيت بمـــاء المكرمـــات

تقـــوم إذا تعهـــدها المربـــي علـــى ســـاق الفضـــيلة مثمـــرات

وتســـمو للمكـــارم باتســـاق كمـــا اتســـقت أنابيـــب القنـــاة

وتـنعش مـن صـميم المجـد روحـاً بأزهـــار لـــها متضوعـــات[1]

إن الشريعة الإسلامية السمحاء تسلط الضوء على دقائق كل الأمور – صغيرها وكبيرها – فالإسلام وضع الأساس الأول الذي يقوم عليه بناء الأسرة وجمع شملها على المودة والرحمة والتعاطف والتآلف، وقد تجسد ذلك بقوله تعالى: " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون "[2]، ذلك كي تستمر الحياة على النهج الذي يرضاه الله تعالى، لأن حنان الأبوين الأبوين تجاه أبنائهما هو سر هذا الترابط والتماسك العظيم بين أفراد الأسرة، وأن ذلك من حكمة الله تعالى لتبقى العائلة متماسكة ومترابطة بأفرادها.

وتزداد الأسرة تماسكاً وترابطاً إذا كانت أواصر الحب والود بين أفرادها بأشد حالات التماسك والترابط. لاسيما إذا كان جوها مفعماً بحنان الأم، وقد عبر عن ذلك خير

(1) ديوان الرصافي: 350/2.
(2) سورة الروم: 21.

تعبير الشاعر (محمد مهدي البصير) حين تصور روعة ذلك الحنان ومدى انتعاش جو الأسرة فيه بحيث تبين له جزاءه فوق ما يتصوره ذهن المتصور في الأبيات التالية:

مضـــى الليـــل إلا أن أمـــك عاصـــم بجنبـــك لـــم يطعـــم لهـــا النـــوم محجـــر

تلبيـــك إذ تـــدعو وترعـــاك نائمـــاً وتقلـــق ممـــا قـــد عـــراك وتســـهر

ألا ليت شعري كيف تجزي حنانها فـــذلك شـــي فـــوق مـــا تتصـــور[1]

ومما يؤسف له أن أواصر ذلك الحب تتفاوت بين أسرة وأخرى، ويرتفع شأن الأسرة وتعلو مكانتها في المجتمع إذا كان الحب والتعاطف بين أفرادها مثالياً ونموذجياً. وينحط شأن الأسرة وتهبط مكانتها إذا انحط مستوى ذلك الحب وهبطت أواصر الود بين أفرادها.

ومما يؤسف له أيضاً أن الحياة العصرية الجديدة بتعقيداتها ومشاكلها المتعددة الجوانب فككت من ذلك الترابط الأسري الذي كان يشد بين أفرادها.

وهذا التفكك الأسري بلا شك يؤدي مع الأسف البالغ إلى انحطاط الأسرة وتمزقها. وبالتالي.. وبالهول هذا التالي.. فإن ذلك يؤدي إلى انحطاط وتفكك المجتمع بأسره.

ومن أهم أسباب ذلك التفكك والانحطاط، هو عدم بناء الجسور المتينة المبنية على الود العميق والاحترام المتبادل والتفاهم المشترك بين الزوج والزوجة، اللذين هما عماد الأسرة وركناها الأساسيان. ومن أهم وأخطر نتائج تلك الأسباب انعكاسها المباشر على الأبناء في تربيتهم الخاصة وسلوكهم العام.

وعلى العكس من ذلك، فإنه لو امتدت تلك الجسور المتينة من الود والاحترام والتفاهم بين الزوجين فإن آثارها الإيجابية تمتد إلى أبنائهم وتنعكس على سلوكهم الذي سيكون نموذجياً رائعاً.

ويتجلى لنا واضحاً جلياً ذلك الانسجام والتفاهم الذي أشرنا إليه بين الزوجين في المشاعر الصادقة التي تدفقت بها قريحة الشاعر (محمد مهدي الجواهري) عندما فجع بفقد زوجته، فعبر في تلك القصيدة عن أحر العواطف وأصدق المشاعر وأعمق الأواصر التي كانت تشد بين قلبيهما وروحيهما.

ونترك القارئ الكريم الآن مع مقاطع من تلك القصيدة الطافحة بالحزن والألم، والمعبرة عما كان يربط بينهما من ود عميق، فيقول فيها:

قـد يقتـل الحـزن مـن أحبابـه بعـدوا عنـــه فكيـــف بمـــن أحبابـــه فقـــدوا

حييـــت أم فـــرات أن والـــدة بمثـــل مـــا أنجبـــت تكنـــى بمـــا تلـــد

تحيـة لـم أجـد مـن بـث لاعجهـا بـــداً وأن قـــام ســـداً بيننـــا اللحـــد

(1) ديوان زيد الأمواج: محمد مهدي البصير، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977: 153، قصيدة عنوانها عنوانها " حنان الأمومة " يخاطب بها أحد أنجاله (عاصم) أثناء أصابته بالحصبى.

بـــالروح ردي عليهـــا أنهـــا صـــلة بـــين المحبـــين مـــاذا ينفـــع الجســـد
عـزت دمـوعي لـو لـم تبعثـي شـجناً رجعـــت منـــه لحـــر الـــدمع ابتـــرد
بكيـت حتـى بكـى مـن لـيس يعرفنـي ونحـــت حتـــى حكـــاني طـــائر غـــرد
مُـــدي إلـــيَّ يـــدا تمـــدد اليـــك يـــد لا بـد فـي العـيش أو فـي المـوت نتحـد
كنـــا كشـــقين وافـــا واحـــداً قـــدر وأمـــر ثانيهمـــا مـــن أمـــره صـــدد
ناجيـــت قبـــرك اســـتوحي غياهبـــه مـــن حـــال ضـــيف عليـــه معجـــلاً يفـــد
ولفنـــي شـــبح مـــا كـــان أشـــبهه بجعـــد شـــعرك إذ آســـى وافتئـــد
أيـام أن ضـاق صـدري اسـتريح إلـى صـدر هـو الـدهر مـا وفـى ومـا يعـد
كنـــا كنبتـــه ريحـــان تخطمهـــا صـــر فأوراقهـــا منزوعـــة بـــدد
غطـى جناحـاك أطفـالي فكنـت لهـم ثغـرا إذا اسـتيقظوا عينـاً إذا رقـدوا
شـتى حقـوق لهـا ضـاق الوفـاء بهـا فهـــل يكـــون وفـــاء أننـــي كمـــد
لـم يبـق فـي قلبهـا غـلٌ ولا دنـس لـــه محـــلاً ولا خبـــث ولا حســـد
تلـك التـي رقصـت للعـين بهجتهـا أيـــام كنـــا وكانـــت عيشـــةٌ رغـــدُ
والله لـم يحـل لـي مغـدىً ومنتقـل لمـــا نعيـــت ولا شخـــص ولا بلـــد[1]

ولـيس (الجـواهري) وحـده بطبيعـة الحـال ممـن قـد فجـع بفقـد زوجتـه وأثـرت تلـك الفجيعة بالغ الأثر في نفسه، فهناك شعراء آخرون فجعوا الفجيعة نفسها فتدفقت قرائحهم الشعرية تعبر عن مدى ذلك في أنفسهم، ومن أولئك الشعراء الشاعر (محمد الهاشمي) الذي قال في رثاء زوجته:

لا ينضب الدمع من عين رآتك على مـــا لا تحـــب مـــن الاعيـــاء والســـقم
حتى قضيت وفي نفسي وددت بأن حملـــت عنـــك الـــذي تلقـــين مـــن ألـــم
يـا ربـة الـدار لا بخـلٌ ولا سـرفٌ تركـــت فـــي الـــدار آثـــاراً مـــن الكـــرم

(1) ديوان الجواهري (ط1973): 351/2.

ذكرى وفاتك في أعماق ذاكرتي لأنت أصدق ميثاق عن الذمم[1]

* * *

أما علاقة الأم بابنها الذي يعتبر قطعة من نفسها فإن علاقتها به علاقة غريزية وعاطفية وبالإضافة إلى ذلك كله، فإن الأمومة المثلى تفرض على الأم مسؤوليات خطيرة وتتطلب منها واجبات جسيمة، لأن رسالتها المقدسة ليست إنجاب الأولاد فحسب، بل أن تلك الرسالة تلزمها أن تقوم بتربية أولئك الأولاد على أحسن الوجوه، وأن تغذيهم بالصفات الحميدة والمزايا النافعة ليكونوا نافعين لأنفسهم، ومن ثم نافعين للمجتمع الذي ينشئون فيه.

وعند ذلك تكون الأم أدت دورها الطبيعي على أحسن وجوه التأدية، كما عبر عن ذلك الشاعر (صالح الجعفري) برباعية تشير إلى هذا المعنى السامي الذي تعنيه الأمومة المثالية، قائلاً في قصيدة عنوانها " واجب الأم ":

أراك شمخت إذ أنجبت طفلاً وقلت الآن قد أصبحت أما

وهمت، فما الأمومة أن تسيري مع الأمات نسواناً وبهما

فما أدى الرسالة غير أمٍّ غذت أطفالها نُبلاً وعلماً

وساقتهم إلى العلياء إما إلى فتح بلا حتفٍ، وإما[2]

فالأم إذن هي التي تربي الأبناء وتهذبهم وتغذيهم بالمبادئ السامية والمثل النبيلة، فهي التي تصنعهم وترسم طريقهم وتدفعهم إلى الأمام بخطى سديدة، وتجسد الشاعرة (فطينة النائب) كل هذه المعاني السامية، في قولها لأبنها (سعيد) تؤجج فيه الروح الثورية، لأن آمالها منعقدة عليه، تقول:

سأرعى مهدك السامي بروحي فإن بأضلعي قلباً حمولاً

منحتك يا سعيد رقاد جفني ولن أرضى لعينيك الذبولا

فكن رجلاً وكافح في بلادٍ أرى عدد الرجال بها قليلاً

وكن كالدهر جباراً عظيما وحلق للنجوم لكي تطولا[3]

(1) ديوان – السيد محمد الهاشمي البغدادي، بغداد، 1977: ص128 من قصيدة " يا ربة الدار ".
(2) ديوان: صالح الجعفري، جمع وتحقيق – علي جواد الطاهر وثائر حسن جاسم، طبع وزارة الإعلام، الإعلام، 1985: 419.
(3) ديوان لهيب الروح: فطينة النائب، مطبعة المعارف، بغداد، 1955: 9.

ويرتفع حب الأم لوليدها ويسمو إلى القمة والذرى، فتتمنى أن يعم السلام والأمان من أجل الاطمئنان على حياة ولدها هي وكل الأمهات، لأن الحروب لا تجلب سوى الدمار والشقاء، فنجد الشاعرة (لميعة عباس عمارة) تعشق السلام لأجل عيون ابنها (زيد) تقوله له:

لأجل عيونك، إذ تحلم

وثغرك يا زيد، إذ يبسم

فينساب برداً على مهجتي

ولحناً وديعاً بأغنيتــي

ونورا يبدد عني الظلام

لأجل عيونك أهوى السلام

* * *

لتنعم أنت وسرب الصغار

بمستقبل مطمئن النهــار

فلا غارة ترعب اللاعبين

لأجلك زيدا أحب السلام[1]

ولا ظلة الكرم فيها ضرام

ولا صرخة من رفيق طعين

* * *

أما الشاعر الشيخ (محمد بهجت الأثري) فقد عبر عن حب الآباء لأبنائهم بطريقة جديدة وذلك عندما ولدت له مولودة وهو في السجن، في 17 مايس 1942، وقد سماها (زينب) تيمناً باسم أمه ووفاءً لها، لكن رغم مكابدته ظروف السجن القاسية فقد أبت قريحته إلا أن تتفجر عن قصيدة عاطفية مؤثرة يعبر فيها عن فرحته بتلك المولودة الجديدة التي لم يرها بعينه يوم ولادتها، بل رآها بعين قلبه، فقال فيها:

(1) ديوان الزاوية الخالية لميعة عباس عمارة، بغداد، 1958 63.

أهـــــل بهـــــا ورحبـــــــ فهـــــي جمـــــال الرحـــــب

زائنـــــة المنـــــزل بالـــــ إينـــــــاس والتحبـــــــب

هـــــي النعـــــيم والســـــرور والرضـــــا فـــــي الملعـــــب

وهـــــي ضـــــياء القلـــــب إن يعمـــــر بـــــداجي الكـــــرب

عجبـــــت للمـــــرء وكـــــم داعيـــــــةٍ للعجـــــــب

إن بشـــــــروه بابنـــــــةٍ يبـــــت صـــــريع الغضـــــب

مكشـــــراً فـــــي وجـــــه أم مرضـــــعٍ لـــــم تـــــذنب

الأرض مـــــا يبـــــذر بهـــــا مـــــن البـــــذور تخصـــــب

لـــــم تشـــــنأ الأنثـــــى ألســـــنا مـــــن إنـــــاث العيـــــب

يـــــا مرحبـــــاً بزينـــــب بســـــر أمـــــي وأبـــــي

يـــا نفحـــة الزهـــر أريـــج الـــ عطـــــر لمـــــح الكوكـــــب

لا تحزنـــــي بنتـــــي مـــــن أمـــــري ولا تكتئبـــــي

مـــــا أنـــــا بالجـــــاني ولا الـــــ لـــــص ولا المهـــــرب

وإنمـــــا ذنبـــــي يـــــا بنتـــــي حـــــب العـــــرب

وحـــــبُّ دينـــــي وبـــــلا دي ولســـــاني اليعربـــــي[1]

لقد صور لنا الشعراء المحدثون مدى محبة الأم لوليدها، تلك المحبة التي لا يعادلها شيء في الوجود، وولهها عليه ومدى تعلقها به، لأنه قطعة من روحها، ولذلك فهي تبذل في سبيل ابنها كل شيء ولا تنتظر منه بالمقبل أي شيء... ترى أي تضحية هذه، تلك التضحية التي تؤديها الأمهات !

لقد جسد لنا الشاعر (خيري الهنداوي) ملامح صورة واقعية لأم أضناها ما يكابده أبنها من ألم في كبت الحب الذي يعانيه، فيصور لنا شعور هذه الأم تجاه أبنها عند علمها بما كان يحدث له واستيعابها لما كان يكابده من معاناة شديدة، ومدى محاولاتها

(1) ديوان ملامح وأزهار: الشيخ محمد بهجت الأثري، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974: ص384.

اليائسة في التخفيف عنه، فكان من مخاوفها عليه أنه ربما كان مصاباً بـ (العين) والحسد، ومن أجل ذلك أخذت ترقيه، فيقول:

رأت أمه من دائه ما أمضها ... وأيأسها من برئه المتطبب

فظننت به (عينا) ولم تدر أنها ... لإنسانها فيها الدواء المجرب

وجاءت إليه بالرقي وبالحصى ... ترقية في هذا وفي ذاك تضرب

رأت إن ما جاءت به غير نافع ... فثاب إليها رأيها المتنكب

أحست بأن الحب يرشق قلبه ... ولكن خفي عنها المراش المصوب

فظلت ولا بحث لديها سوى الهوى ... تطيل له فيه الحديث وتسهب

يهش ويصغي حين يسمع قولها ... ويعجبه ذاك الطراز المذهب

إلى أن ألانت بعد لأي حصانة ... فأعرب مسحورا وما كاد يعرب

فأبدت له كل السرور وسهلت ... له كل صعب دون ما هو يطلب

ولكنها قد أضمرت في فؤادها ... قنوطاً وخافت أن يحس فيعطب[1]

ج أما طبيعة العلاقات ومتانتها بين باقي أفراد الأسرة – خصوصاً بين الأبناء وعلاقتهم مع بعضهم – فإن أساس ذلك مرده إلى الأبوين وإلى الأم بالذات، بل وإلى طبائع وغرائز الأولاد أنفسهم، فتلك الصلات الأسرية إن كانت قد بذرت بالشكل الأمثل آتت ثمراً جنياً، يفوح بعطر المحبة والتسامح، والتعاطف والتآلف، وعلى العكس من ذلك، فإن تلك العلاقات إذا بنيت على أساس خاطئ فإن نتائجها بطبيعة الحال تكون خاطئة وغير صالحة.

ونحن لا نكتفي بتضامن الأبناء وهم في كنف آبائهم وأمهاتهم فحسب، بل نطمح أن تستمر تلك الصلات الصميمة حتى بعد استقلال الأبناء بحياتهم الخاصة فيما بعد. وبهذا التعاطف الأسري وهذا الالتفاف بين أبناء الأسرة حول بعضهم مما يعمل على تقوية الأواصر الأسرية، فهذا الشاعر (الجواهري) وهو يعيش تحت سقف بيت واحد مع أمه وأخته وكان يربط بينهم جميعاً حب ووئام، بحيث يلتقون على ذلك الحب والوئام ساعات طويلة من ساعات الليل والنهار يومياً، وحين يدفع بالجواهري طموحه العالي وآماله الكبيرة إلى التغيب عن البيت وبعلم وموافقة من أمه الحنون، بسبب مطاردة السلطة له، ويمر يومان – لا أكثر- على ابتعاده عن البيت بحكم الضرورة التي ألجأته إلى ذلك، فإذا

(1) خيري الهنداوي – حياته وديوان شعره: د. يوسف عز الدين، 1974، بغداد: 232.

بأخته تساءل أمها بكل مرارة وألم عن أخيها الذي لم يسبق له أن ابتعد عنهم ولا يوماً واحداً، فتحس الأخت بوجع شديد يعتصر قلبها، ولم تجد الأم لابنتها جواباً إلا انحدار الدموع من عينيها، لأنها لا تستطيع مكاشفتها ومصارحتها بالضرورات التي أرغمت أبنها على هذا الغياب سوى أنها تشير إلى طموحاته وأمانيه الكبار التي كانت وراء ذلك الغياب، فيرسم لنا " الجواهري " في القصيدة التالية مقاطع من ذلك الجو الأسري الحزين الذي عاشته الأسرة بسبب غيابه عنها.

يقول فيها:

ايه أماه ما أراب شقيق النفس منا حتى تبعد عنا

منذ يومين ليس يعرف عما ... نحن فيه شيئاً ولا كيف بتنا

جائياً ذاهباً يقسم في الأوجه ... لحظيه من هناك وهنا

إيه اماه إن نفسي أحست ... ما يقذي عينا ويوقر أذنا

فأنبرت دمعة تترجم عما ... في ضمير الأم الحنون استكنا

اسمعي يا عزيزتي أنا أوفى ... منك خبراً إذ كنت أكبر سنا

ولدي عرفته يملأ البيت ... بفتكيره ارتهاباً وحزنا

ولدي طامح تعنيه آمال ... كثار. إن الطموح معنى

يتمنى كل السرور ولا يستطيع نيلاً لبعض ما يتمنى [1]

ومن الأمثلة الصادقة والرائعة على مدى الترابط الأسري ما كتبه الشاعر (محمد صالح بحر العلوم) من سجنه في مدينة الناصرية إلى أخته في النجف حين بلغه أن الحكومة تريد إعدامه ذلك سنة 1935م؛ يقول من قصيدة عنوانها " لك في أمك سلوة":

لم تبكين؟ فلن يرجع ما ... فات بالدمع ولا يجدي البكاء

واعلمي أن يدي قاصرة ... وقلوب (القوم) والصخر سواء

ليس في وسعي أن أمحو ما ... فرض"العرف" وأجراه القضاء

لك في أمك بعدي سلوة ... ولي الموت على العز عزاء[2]

(1) ديوان الجواهري (ط 1973): 451/1 " صفحة من الحياة الشعبية ".
(2) ديوان محمد صالح بحر العلوم، مطبعة دار التضامن، بغداد، 1968، ط1: 108/1.

وهذا بلا شك موقف من أرق المواقف العاطفية الذي يدل على عمق الترابط الأسري فإن شاعراً يبلغه أن الحكومة تريد إعدامه فلا يهتم بنفسه، بل ينصب كل اهتمامه على أخته الحزينة والباكية عليه ويسليها عن نفسه بأمه الغالية وأن موته بعز وكرامة خير عزاء له ولها وللأسرة جميعاً، وذلك مثل أعلى من أمثلة عمق الترابط بين أفراده الأسرة.

ومن الأمثلة الأخرى عن ذلك الترابط الأسري، ما رسمه لنا الشاعر (وليد الأعظمي) عن التضامن والتكاتف الأسري يوم تعرضت مدينة بغداد لكارثة الفيضان عن أسرة يخاطب فيها أخ أخاه قائلاً:

قم يا ابن أم وناولني الحصيرات وغادر الكوخ هذي شر مأساة

قم يا ابن أم فإني صرت في جزع قلبي يحدثني عن نكبةٍ تات

قم واجعلن من الجذعين قنطرةً فالماء طوقنا قم هاتها هات

ثم يخاطب أمه وينبهها على الخطر الذي يحيق بهم، وبالمقابل تصيح الأم تريد الإعانة:

وقلت يا أم هيا نحن في خطرٍ هذي المصيبة من أدهى المصيبات

فصاحت الأم (يامحمود) خذ بيدي يا ابني عثرت وقد فرت دجاجاتي

ثم يصور شعور الأم تجاه الأب، ومدى خوفها عليه، فهو مستغرق بالنوم لا يدري ماذا يحدث:

أيقظ اباك فإن النوم طاب له في داخل الكوخ أو في مربط الشاة

أيقظ أباك ولا تتركه يا ولدي أني أخاف عليه لدغ حيات

وأحمل أخاك وداعبه فإن به حمى تضيق بها دور الحميات

أني عجزت ومالي حيلة أبداً يا أبني سئمت سؤال الصيدليات[1]

* * *

(1) ديوان الشعاع: وليد الأعظمي، بغداد، ط1، 1959: قصيدة " كنا نظن ".

أما إذا انتزعت يد الموت واحداً من أفراد العائلة المتحابة المتآزرة فإن ذلك بالطبع يمثل فاجعة كبرى لتلك العائلة، وحين اهتصرت يد القدر وأذوت غصن الشبيبة من الشاب (جعفر الجواهري) الذي قتل أثناء التظاهرات الوطنية عام 1948 نجد آخاه الشاعر المفجوع به (محمد مهدي الجواهري) الذي هزه ألم تلك الفجيعة من أعماقه فتفجرت قريحته بقصيدة شعرية يصور بها مدى فجيعته وفجيعة ذويه بالشاب الفقيد، وكان أسلوب تلك القصيدة رائعاً يبلغ القمة في عمق الأحاسيس التي كانت شلالاً متدفقاً بالحزن واللوعة يعكس من خلالها الألم والحزن الذي يعتصر قلبه ولا تدع قارئها أو سامعها إلا أن تغرورق الدموع في عينيه، فما جاء فيها قوله:

أتعلم أم أنت لا تعلم بأن جراح الضحايا فم

إلى أن يعبر بها عن تلك الأحاسيس العميقة تجاه فجيعته بأخيه الشاب فيقول:

أخي جعفراً يا رواء الربيع إلى عفنٍ باردٍ يسلم

ويا قبساً من لهيب الحياة خبا حين شب له مضرم

ويا طلعة البشر إذ ينجلي ويا ضحكة الفجر إذ يبسم

وقبلت صدرك حيث الصميم من القلب منخرقاً يخرم

وحيث تلوذ طيور المنى به فهي مفزعةٌ حوم

وربت خداً بماء الشباب يرف كما نور البرعم

ومسحت من خصل تدلي عليه كما يفعل المغرم

وعوضت عن قبلتي قبلةً عصرت بها كل ما يؤلم

إلى أن يقول، واصفاً حالة أخته:

واخت تشق عليك الجيوب فيغرز في صدرها معصم

تناشد عنك بريق النجوم لعلك من بينها تنجم

وتزعم انك تأتي الصباح وقد لذب القبر ما تزعم

أخي جعفراً بعهود الأخاء خالصةً بيننا أمتم

وبالبيت تغمره وحشةٌ كقبرك يسأل هل تقدم

وبالصحب والأهل يستغربون لأنك منحرفٌ عنهم

يميناً لتنهشني الذكريات عليك كما ينهش الأرقم

وأني عود بكف الرياح يسألة منها متى يقصم[1]

تربية الأبوين المثالية لأبنائهم:

إن مهمة الأبوين تجاه أبنائهم ليست عاطفية فقط، بل يجب أن تكون شعوراً بمسؤولية تربيتهم. وأن تكون تلك التربية مثالية ونموذجية؛ لنحقق الغاية التي ننشدها من خلال التربية الصالحة للأبناء.

ونظراً لأن الوالدين معاً هما المدرسة الأولى لتي يتربى الأبناء في أحضانها ويتجلى لنا الأهمية الكبرى التي تقع على عاتق الأبوين لأنهما اللذان يضعان اللبنات الأولى في بناء الأبناء التربوي لكي يكون الأبناء مؤهلين أن يؤدوا الدور المقدس الذي يجب أن يضطلعوا به عندما يتسلمون أداء أدوارهم في البيت والأسرة والمجتمع.

وقد رسم الشاعر الشيخ (علي الشرقي) صورة شعرية رائعة لتلك التربية المثالية للأبناء التي يجب أن تمتزج فيها عواطف الحب والحنان مع الشعور بمسؤولية تأهيلهم لمستقبلهم الزاهر، فحين نشمهم يجب أن لا ننسى أنهم مؤهلون للعلياء والشمم ليرتفع بهم كيان الأمة، يقول:

أيها الوالدون حسبكم وكفاكم تحرق الأرم[2]

وحي أطفالنا يعاتبكم لا تجروا العتاب للندم

اذكروا عند شمكم لهم أنهم ينشأون للشمم

شيم الوالدين تخبرنا أنهن ينشأون للشيم

كل كفٍ لرفعهم بسطت رفعت أمةً من الأمم[3]

ويجب أن لا نغفل أن الإنسان خلق لكي يتصارع مع الحياة ليتبوأ فيها موقعه الذي يليق به، وانطلاقاً من هذا المبدأ تأتي أهمية تربية الوالدين المثالية لأبنائهم، شريطة أن تكون العناية بهم جذرية، أي تبدأ معهم منذ ولادتهم مروراً بأيام رضاعهم وبعد فطامهم،

---

(1) ديوان الجواهري: 259/3.

(2) الأرم: الأضراس، كأنها جمع (أرم) وفلان يحرق عليك الأرم – يحك أضراسه بعضه ببعض. ينظر ينظر – المعجم الوسيط مادة (أرم).

(3) ديوان علي الشرق: جمع وتحقيق – إبراهيم الوائلي وموسى الكرباسي: ص262، قصيدة " أيها الوالدون". وينظر – ديوان عواطف وعواصف، بغداد، 1953: ص180.

وعلى مدى كل سنة من سني أعمارهم، إلى أن يكتمل نضجهم ويسلكون طريقهم الصائب في حياتهم الخاصة والعامة.

وقد أشار الشاعر (الرصافي) إلى ذلك الصراع الذي يخوضه الإنسان في خضم الحياة منذ طفولته حتى يطوي آخر صفحة من صفحات حياته، فقال:

وما هذي الحياة سوى صراعٍ يتم بفوز مفتول الذراع

وما سادت شعوب الخلق إلا بتهيئة البنين لذا الصراع

إذا لم يعن بالأطفال قوم فهضبة مجدهم رهن انصداع

ولا تزكو المناشيء في أناسٍ يرون الطفل من سقط المتاع

وما هاج العواطف في فؤادٍ كحال الطفل في زمن الرضاع[1]

ج

ويوجه الشاعر (مرتضى فرج الله) جل اهتمامه بل كله إلى البنات دون البنين، لأن البنات هن اللواتي تؤهلن الطبيعة البشرية ليصبحن أمهات المستقبل اللائي يقمن بتربية الأولاد – من بنين وبنات- لذلك فهو يدعو كل فتاة إلى أن تستعد كل الاستعداد للغد الذي ينتظرها ليجعل منها أماً، ولا يمكن لها أن تكون أما صالحة تؤتي الثمر الجني إلا إذا كان غراسها طيباً، وبذلك من دون شك يسمو كيان الشعب بسمو الأمهات وكما لهن فلنسمع إليه حيث يقول:

هـا هـو الفجـر تجلـى فاسـتفيقي يـا فتـاة

وافتحـي للشـمس عينـاً وانظـري نـور الحيـاة

يقظـة فـي الكـون عمـت لـيس يجـديك السـبات

قـوة الأحيـاء سـارت فأسـرعي فـي الخطـوات

هـدف الآمـال أنـت والأمـاني الطيبـات

يـا أبنـه اليـوم اسـتعدي بمهـات الغـداة

أصـلحي نفسـك غرسـاً كـي تطيـب الثمـرات

فكيـان الشـعب يسـمو بكمـال الأمهـات [1]

(1) ديوان الرصافي (ط 1986) بشرح مصطفى علي: 296/2 " الحياة الاجتماعية والتعاون ".

وإنما ينصب اهتمامنا وتركيزنا على الأمهات بصورة خاصة، لأنهن –وكما قلنا فيما سبق- المدارس الأولى التي يتربى في أحضانها الأولاد من بنين وبنات كما أشار إلى ذلك (الزهاوي) في أبياته الآتية:

الأمهـــــــات منابـــــــت أولادهـــــن لهـــــا زهـــــور

والأمهـــــــات كواكـــــــب وضـــــاءة والولـــــد نـــــور

والأمهـــــــات مـــــــدارس مـــنهم بهـــا ينمـــو الشعـــور[2]

والأم المثالية تعلم علم اليقين أن الطفل الصغير تتمثل فيه البراءة والنقاء والرقة المتناهية بأحلى وأعمق صورها الرائعة، مع ما هو عليه من ضعف شديد يجعله بحاجة ماسة إلى من يغمره بالحنان ويشد من أزره ويقيم أوده لذلك فإن الله سبحانه وتعالى ملأ صدر أمه وقلبها عطفاً وحناناً عليه ووهبها الطاقات الكبرى في تحمل الجهد والسهر المتواصل الممزوج بالحب والحنان وبسبب ذلك كله ينشأ الوليد نشأة سليمة وصالحة، نافعة له أولاً ولمجتمعه أخيراً.

ويصور لنا ذلك الشاعر (مرتضى فرج الله) أبدع تصوير حين يوصي الأم بأن تعنى بطفلها العناية التي تليق بأمومتها المثالية، كما يدعو الشاعر إلى أن تقوم الأم بتهذيب ذلك الطفل وتعليمه بكل ما ينفعه في الحياة وذلك في صيدته "الطفل":

أرفقـــــــي أن تحميلـــــــه أنـــــه طفـــــل صـــــغير

ظليلـــــــه كـــــــي تقيـــــه لفحـــــة الحـــــر الهجيـــــر

وإذا مـــــــا رام نومـــــــا أحضـــــري المهـــــد الـــــوثير

إنـــــه أنعـــــم جلـــــدا مـــــن نـــــدى الـــــورد النضـــــير

إنـــــه ألطـــــف روحـــــا مـــــن شـــــعاع فـــــي الأثيـــــر

إنـــــه اليـــــوم أســـــير فـــــارحمي حـــــال الأســـــير

بـــــالأذى لا تفزعيـــــه وإحـــــذري ســـــوء المصـــــير

هذبيـــــــه تجعليـــــــه سيـــــــداً بـــــين العشـــــير[1]

---

(1) مجلة المرأة العراقية الحديثة: حمدية الأعرجي، العدد الثاني، السنة الأولى، 1936، النجف: ص10.
(2) المجموعة الكاملة للزهاوي: دار العودة، بيروت، ط 1972، مج1، ضمن الأوشال: ص480.

ذلك التعليم الذي يجب أن تغذي به الأم أبناءها ينبغي أن تعلم كل العلم إنه ليس الغاية النهائية في تربية الأبناء بل يجب أن يكون وسيلة للنماء والعطاء والعمل النافع له في لحياة.. ذلك ما يقرره الشاعر (الرصافي) الذي لا يفوته أن يشير إلى تحاشي العقاب فيما يرتكبه الأطفال ببراءة وحسن نية، بل ينبغي توجيههم وإرشادهم لأن العقاب لأتفه الأسباب يؤدي بلا شك إلى أسوأ النتائج بخلاف النصائح التي تؤتي ثمراً شهياً، فلنستمع إليه حين يقول:

أن كان للجهل في أحوالنا علٌ ... فالعلم كالطب يشفي تلكم العلا

لا تجعلوا العلم فيها كل غايتكم ... بل علموا النشئ علماً ينتج العملا

وجنبوهم على فعل معاقبةً ... أن العقاب إذا كررته قتلا[2]

وتلك التربية المثالية التي ألمحنا إليها هي من أوجب الواجبات التي يجب أن يلتزم بها الوالدان تجاه أبنائهم. ذلك لأن سلوك الطفل هو نوع من ردة فعل على البيئة التي يعيش فيها، (فالطفل كالبذرة، إذا ما نشأ نشأة صالحة ووجد المربي والمذهب المجرب، أصبح رجلاً ومواطناً صالحاً، يعتز به أهله ووطنه)[3].

وشاعرنا (الرصافي) له رأي طريف بالنسبة للعقوق الذي يتمثل بعدم قيام الأبناء بواجباتهم تجاه أبائهم وأمهاتهم. فأنه يرى أن الأب الذي لا يحسن تربية أبنه وتوجيهه وإرشاده هو من أعق الآباء نحو أبنائهم كما قال في أبياته التالية:

وأن تربية الإنسان يرجعه ... أكسيرها وهو من ترب إلى الذهب

هذا إذا حسنت أما إذا قبحت ... فالمندلي بها يمسي من الحطب

فكل ما هو في الإنسان مكتسب ... فلا تقل فيه شيء غير مكتسب

والمرء كالنبت ينمو حسب تربته ... وليس ينبت نبعٌ منبت الغرب

أني أرى أسوأ الآباء تربية ... للابن أحرى بأن يدعى أعق آب[4]

وينبغي لنا أن لا ننسى التأكيد على أن الاهتمام بتربية الأطفال وتوجيههم وتعليمهم ينبغي أن يمشي جنباً إلى جنب مع إعطاء فطرة الطفولة ما تستحقه من الاهتمام البالغ، فمن الخطأ الجسيم هدر حقوق الطفل ونسيان ما تتطلبه تلك المرحلة من لعب بريء

---

(1) مجلة المرأة العراقية الحديثة – حمدية الأعرجي: العدد الأول، السنة الأولى، 1936، قدمت القصيدة إلى جمعية الرابطة الأدبية في النجف الأشرف: ص22.

(2) ديوان الرصافي – شرح وتعليق: مصطفى علي: 163/2، من قصيدة " المدارس ونهجها "، وينظر – الرصافي (1867-1945م): د. داود سلوم، مطبعة الحكومة، بغداد، 1966: ص28.

(3) البيت والمدرسة: محمود الجومرد، مطبعة الهدف، الموصل، 1960: ص 5-6.

(4) ديوان الرصافي (ط 1979): 175/4، من قصيدة " تأثير التربية ".

وتسلية نافعة لكي تنشأ الطفولة نشأة سليمة خالية من العقد النفسية التي تعيقها عن النمو الطبيعي.

وقد التفت الشاعر المجدد الشيخ (علي الشرقي) إلى هذا الجانب التربوي المهم في حياة الأطفال فرسم برشته الشعرية الرائعة صورة للشباب التائه الضائع الذي تقع مسؤولية تيههم وضياعهم على عاتق أبائهم وسحقوا – بجهلهم وعدم قيامهم بدورهم الواجب عليهم – كل فطرة الطفولة ومستلزماتها وسحقوا كل ما ينبغي القيام به نحوهم كما يسحقون الورود العطرة بأقدامهم. فقال وما أبدع ما قال:

يـــا شـــباب العـــراق أنكـــم كوجـــود الألمـــاس فـــي الفحـــم

ســـحق عاداتنـــا لفطـــرتكم مثـــل ســـحق الـــورود بالقـــدم

نجتلـــي الطفـــل كالســـراج فـــأن شـــب نخمـــده فـــي يـــدٍ وفـــم

ضـــاع جهـــلاً وذلـــةً فغـــدا لا لعلـــم ولا إلـــى علـــم

إنمـــا الطفـــل فـــي شـــوارعنا لوجـــود يمشـــي إلـــى العـــدم[1]

وفي نهاية هذا الموضوع نسجل عواطف شاعر، يصور بتلك العواطف امتنانه لتلك التربية المثالية التي غمره بها والداه بما فيها من حب وحنان وإحسان وتضحية وشقاء من أجل إسعاده، فلنستمع إلى الشاعر (حسن البياتي) [2] وهو يعبر عن تلك العواطف الجياشة الجياشة حيال أبويه، فيقول:

وأمـــي الـــرؤوم ســـقتني الحنـــان وكـــان أبـــي والـــدا محســـنا

يضـــحي هنـــاه لأجـــل هنانـــا يكـــد ويشقـــى لكـــي نأمنـــا[3]

ونختم هذه المختارات فيما يخص تربية الأبوين المثالية لأبنائهم، بقول الشاعر السيد (عباس شبر) [4] حينما مرضت ابنته فكان هو وأمها يغمرانها بعواطف الأبوة والأمومة، ويتباريان بتمريضها ويودان أخيراً لو يتصارعان مع الموت من أجلها، فقال:

يـــا حبـــذا تمـــريض أم بـــرة وأب حنـــــــــــــــــون

---

(1) ديوان علي الشرقي: ص 185، من قصيدة " الألماس في الفحم ".

(2) حسن البياتي – الدكتور الشاعر ولد في قرية السعدية 1930، له ديوانان (من شفاه الحياة، جنود الاحتلال 1959) ينظر – معجم المؤلفين العراقيين، ص314.

(3) المرأة في الشعر العراقي الحديث – احمد فياض المفرجي، مطبعة الجامعة، بغداد، 1958: ص59. ص59.

(4) عباس شبر – السيد، ولد في البصرة 1905، له ديوان جواهر وصور. ينظر – معجم المؤلفين العراقيين، ص223.

فالبيت بعد كل هذا (هو الإطار الذي يضم بين جوانبه الصورة المشرقة لحنان الأمومة وعطف الأبوة؛ وحرصاً من الشارع المقدس على جعل البيت هو المدرسة المثالية فقد رسم الخطوط العريضة، لأحكام أسسه وتحصين جوانبه. وأسس تكوين العائلة بلا شك هما الزوج والزوجة، لذلك خص الإسلام كل طرف منهما بوصايا وإرشادات مشتركة أو منفردة) [2].

بين الأمهات المتعلمات والجاهلات:

في البحث السابق درسنا كيف يجب أن تكون تربية الأبوين المثالية لأبنائهم، وخلصنا من ذلك إلى استحصال النتائج التي تصل بنا إلى تشخيص الأم المثالية بين سائر الأمهات.. وأشرنا هناك أن تعليم الأم هو من أهم الأسباب التي تجعل الأم في أرقى وأسمى مراتب مثاليتها التربوية مما يجعل منها نموذجاً يحتذى في تربية أبنائها.

وهنا من هذا البحث نقف وقفة فيها شيء من التفصيل والإلمام الواسع حول الفرق الكبير والبون الشاسع بين الأم المتعلمة والأم الجاهلة، فالأم المتعلمة تؤدي دورها التربوي على أحسن الوجوه وأتمها وأكملها، والأم الجاهلة لا تستطيع – حتى لو أرادت وبكل رغبة وتصميم – أن تؤدي من ذلك الدور إلا جزءاً يسيراً، ويسيراً جداً من ذلك الدور الخطير الذي لا يمكن أن يؤديه إلا من تسلح بسلاح العلم وازدان بحليته.

لذلك تعالت صيحات المخلصين ونداءاتهم بالتشديد على أهمية العلم وطلبه.... واستمرت صيحات أولئك المخلصين تتعالى رغم الأصوات المبحوحة التي دوت بها حناجر المعقدين والمتخلفين والتي لو قرناها بتلك الصيحات المدوية المخلصة لما كان تتعدى أصوات زئير الأسود حين يقارن بطنين الذباب.

ولسنا مبالغين أبداً إذا اعترفنا للإسلام العظيم بأن أصواته المدوية في حث المسلمين على طلب العلم هي أقدم وأقوى تلك الصرخات، وهي مضافاً إلى ذلك أعمق تلك الدعوات رسوخاً في النفوس واستحواذاً على الأفكار والقلوب في دعوتها المسلمين إلى طلب العلم في مجالات شتى ركزت على أهمية العلم وتقدمه، وتخلف الجهل والجاهلين عن ركب التقدم والازدهار في الحياة.

أجل أن الإسلام – وقبل أربعة عشر قرناً – بادر إلى التأكيد على أهمية العلم ومكانة طالبيه، ولسنا نريد هنا أن نستقصي كل ما ورد في مجال حث الإسلام للمسلمين على طلب العلم من الآيات الكريمة في القرآن الكريم فهي كثيرة جداً، ولكننا نكتفي منها بتقديم نماذج من تلك الآيات الشريفة فنذكر منها قوله عز من قائل: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ

(1) مجلة البيان: علي الخاقاني، النجف، العدد 29-30، السنة الثانية، 1948: ص753، مزدوجات من ((خوالج النفس)).

(2) الطلاق أبغض الحلال إلى الله: عز الدين بحر العلوم، بغداد، 1958: ص46.

يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ "وقوله عز وجل: " يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات "[2]...

ولم يقف الإسلام العظيم في حث المسلمين على طلب العلم بما جاء في ثنايا آيات قرآنه الكريم، بل تجاوز ذلك إلى السيرة النبوية العطرة بما جاء فيها من أحاديث شريفة تؤكد على أهمية طلب العلم، فمن ذلك ما قاله نبينا الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم): " تعلموا العلم، فإن تعليمه خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد " [3]، وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): " يوزن مداد العلماء، ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر"[4]، وروي عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة "[5]، وقال (صلى الله عليه وسلم): "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلماً "[6]، وقول وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): " اطلبوا العلم ولو بالصين "[7]، وقال علي (رضي (رضي الله عنه): (أقل الناس قيمة أقلهم علماً) [8] وجاء في الأثر: (خير الدنيا والآخرة مع مع العلم، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل) [9].

وبناء على تلك الدعوات البالغة الأهمية في حث المسلمين على طلب العلم نجدهم جميعاً وفي عهود الإسلام الذهبية الأولى انكبوا على تحصيل العلم وعكفوا على طلبه. ولم يكتفوا بأن علموا أنفسهم بل أنهم حملوا مشاعل العلم إلى مشارق الأرض ومغاربها حينما امتدت دولتهم الشاسعة الأطراف التي شملت أرجاء المعمورة كلها... وبقي الأمر على تلك الحال المزدهرة مدة ازدهار الدولة الإسلامية.

ومرت الأيام..... وإذا بوهج العلم الساطع يبدأ ضوؤه بالخفوت حتى تنتهي به الحال – وياالسوء تلك الحال – إلى تفشي الجهل وتراكم سحبه الداكنة في تلك السماء

---

(1) سورة الزمر: 9.
(2) سورة المجادلة: 11.
(3) كنز العمال: 167/10، رقم الحديث (28867).
(4) المصدر نفسه: 172/10، رقم الحديث (28901).
(5) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: مج7: ص405، رقم الحديث (2784) باب فضل طلب العلم، وينظر – سنن ابن ماجه: 47/1، رقم الحديث (236) المقدمة، وينظر – سنن الترمذي، رقم الحديث (2784) واللفظ له.
(6) سنن ابن ماجه رقم الحديث (4102).
(7) كنز العمال: 138/10 رقم الحديث (28697) – من الطريف أن نشير هنا إلى أنه – فيما يبدو لي – – ليس المقصود هنا – كما يرى – بلاد الصين نفسها بمكانها الحالي وحدودها القائمة، ولكن باعتبارها في ذلك الزمان أي زمان الرسول الأعظم، أبعد بلاد الدنيا عن المسلمين في محل إقامتهم من جزيرة العرب، ولا يمكن الوصول إليها بيسر وسهولة لوعورة الطرق وصعوبة وسائل النقل إلا بمرور شهور طويلة يتعرض خلالها المسافرون إلى اشد المخاطر ومع تلك الوعورة وهاتيك المخاطر آنذاك في الوصول إلى بلدة قامت في خلال تاريخ البشرية كله دعوة إلى طلب العلم تصل إلى عمق دعوة الإسلام واهتمامها البالغ بالعلم...
(8) المستطرف في كل فن مستظرف: 19/1.
(9) ورد الأثر في المستظرف في كل فن مستظرف، للايشمهي، طبع بيروت، د. ت: 19/1.

المتلألئة التي استحال بريقها إلى ظلام دامس، حتى بلغت عصور الانحطاط والتخلف والجهل أسفل درك لها في قرون الفترة المظلمة التي استمرت حتى آخريات القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن – الذي هو موضوع دراستنا – حتى أن الشاعر (محمد صالح بحر العلوم) يشير إلى تفشي ذلك الجهل المطبق وإلى الطفولة البريئة المغمورة بتلك الجهالة الشنيعة ويلقي تبعة ذلك كله على الأم والأب والمجتمع كله، فيقول:

الطفل في حجر الجهالة عندنا ينمو وضرع لبانه أشجاء

ومتى ترعرع عاش في وطن به ضعف اليقين لأهله سيماء

فالأم والأب والمحيط جميعهم في جرم من خسر النهى شكاء[1]

ويرى الشاعر (الزهاوي) أن التعصب الأعمى هو الذي تسبب في تأخر الشعوب الإسلامية والعربية ولكنه يؤمن أن الجهل حين يحاول أن يغلب العلم فإنه لن يستطيع ذلك أبداً لأن القوة في نهاية المطاف بيد العلم، وأن الجهل هو المغلوب والعلم هو الغالب، فيقول:

هو التعصب قد والله أخركم عن الشعوب التي تسعى فتقترب

عن الذين أبو ألا تقدمهم من الأَلى مشيهم نحو العلى خببُ

يا قوم في كل عصرٍ جاء ثم خلا قد غالب القوم جهالاً فما غلبوا[2]

ولقد وصل الحال بأولئك الجهلة في الفترة المظلمة وفي أخريات أيامها بالذات أن يتوهموا أن الإسلام ضد التقدم العلمي وأنه يمنع المسلمين ويصدهم عن التقدم كما صور ذلك الشاعر (الرصافي) فقال من قصيدة يرد فيها على تلك المزاعم الباطلة:

يقولون في الإسلام ظلماً بأنه يصد ذويه عن طريق التقدم

فإن كان ذا حقاً فكيف تقدمت أوائله في عهدها المتقدم

وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله فماذا على الإسلام من جهل مسلم

هل العلم في الإسلام إلا فريضةٌ وهل أمةٌ سادت بغير التعلم

لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلى بصائر أقوامٍ عن المجد نوم[3]

---

(1) ديوان بحر العلوم: 93/1، من مقطوعة بعنوان " الطائفية حية وقطاء ".
(2) ديوان الزهاوي (ط 1972): 317 من قصيدة " هي الحقيقة ".
(3) ديوان الرصافي (ط1986): مج 361/1، وفي ديوانه بشرح مصطفى علي: 26/2.

ووصل الجهل بأولئك الجهال أن يجعلوا طلب العلم – إن كان ولا بد منه – حكراً على الرجال دون النساء، كأن لم يكن الإسلام حث المسلمين الرجال والنساء معاً فصرخ بوجوههم شعراء النهضة الحديثة فخاطبهم (الزهاوي) قائلاً:

إنمـــــا المـــــرأة والمـــــرء سـســـــواء فـــــي الجـــــدارة

علموا المرأة فالمرأة عنوان الحضارة[1]

وهذا (الرصافي) يقول من قصيدة في ذلك:

هـــل يعلـــم الشـــرقي أن حياتـــه تعلـــوا إذا ربـــى البنـــات وهـــذبا

وقضـــى لهـــا بـــالحق دون تحكـــمٍ منهـــا وعلمهـــا العلـــوم وأدبـــا

فالشـــرق لـــيس بنـــاهضٍ إلا إذا أدنـــى النســـاء مـــن الرجـــال وقـــربا[2]

وذلك لأن الشريعة الإسلامية السمحاء تعتمد بإيقاظ المسلمين على الرجال والنساء معاً كما يقول (الرصافي) أيضاً في قصيدة " التربية والأمهات ":

وقـــالوا شـــرعة الإســـلام تقضـــي بتفضـــيل الـــذين علـــى اللـــواتي

وقـــالوا أن معنـــى العلـــم شـــيء تضـــيق بـــه صـــدور الغانيـــات

وقـــالوا الجـــاهلات أعـــف نفســـا عـــن الفحشـــا مـــن المتعلمـــات

لقـــد كـــذبوا علـــى الإســـلام كـــذبا تـــزول الشـــم منـــه مزلـــزلات

ألـــيس العلـــم فـــي الإســـلام فرضـــا علـــى أبنـــائه وعلـــى البنـــات؟[3]

وفي ذلك من دون شك رد حاسم على من يتوهم – جهلاً – إن الإسلام يحرم تعليم المرأة فقال في ذلك الشاعر السيد (محمود الحبوبي) في رباعية رائعة فكرة ومعنى وأسلوباً يقول فيها:

حـــرم الفتـــاة مـــن الثقافـــة مشـــعر حســـبوا الثقافـــة للفتـــاة تشـــين

باســـم الشـــريعة حرمـــوا تعليمهـــا والشـــرع يســـخر مـــنهم والـــدين

---

(1) الديوان نفسه (ط1924): 241 ؛ وينظر في هذا الصدد تعليق عبد الكريم الدجيلي في محاضراته عن عن – الشعر العراقي الحديث، بغداد، 1959: ص93 ؛ وينظر – حركة التطور والتجديد في الشعر العراقي الحديث: عربية توفيق للازم، مطبعة الإيمان، بغداد، ط1، 1971: ص185.

(2) ديوان الرصافي: 236/2.

(3) ديوان الرصافي، بشرح وتعليق مصطفى علي: 352/2.

ايســـــركم يـــــاقوم أن لا تهتـــــدي كيــف النجــاةُ مــن الشــقاء تكــون

بـــــالعلم والآداب خـــــدر فتـــــاتكم لا بالجهالـــة والجمـــود مصـــــون[1]

ومن أجل هذه الأفكار الجريئة التي عبر عنها الشعراء المجددون ومن أجل الدعوة إلى تعليم المرأة وأخذ قسطها اللازم من العلم الذي يؤهلها لأن تصير أما مثالية[2] تقوم بتربية أبنائها على أحسن ما تتمناه لهم التربية النموذجية.. أجل طالب شعراء النهضة الحديثة المجددون بأن تتلقى العلم كالرجال وأن تقف معهم جنباً إلى جنب في إعادة النباء الحضاري القويم لمجتمعها الذي أفسد تقاليده الجهل المطبق.

وهذه دعوة صارخة من الشاعر الكبيرة (محمد مهدي الجواهري) لتعليم المرأة لكي تلتحق بأختها المرأة الغربية التي أنجبت العلماء والمبدعين.. نعم المرأة الغربية التي كانت مكبلة بقيود الجهل يوم كانت المرأة المسلمة تشارك الرجال المسلمين في وضع لبنات البناء الحضاري الذي امتد شرقاً وغرباً وارتفع شاهقاً بسواعد المسلمين والمسلمات معاً.. فلنستمع إلى (الجواهري) في قصيدته الرائعة:

علموهـــا فقـــد كفـــاكم شـــنارا وكفاهـــا أن تحســـب العلـــم عـــارا

وكفانـــا مـــن التقهقـــر انـــا لـــم نعـــالج حتـــى الأمـــور الصـــغارا

هـــذه حالنـــا علـــى حـــين كـــادت أمـــم الغـــرب تســـبق الأقـــدارا

انجب الشرق جامدا يحب المرأة عارا وانجبت طيارا

تحكـــم البرلمـــان مـــن أمـــم الـــدنيا نســـــاء تمثـــــل الأقطـــــارا

ونســاء العـراق تمنـع أن ترسـم خطـاً أو تقـــــــــرأ الأســـــــــفارا

انكـــم باحتقـــاركم للنســـاء اليـــوم اوسعـــــتم الرجـــــال احتقـــــارا[3]

فما أروعها من فكرة بديعة حين يرى (الجواهري) أن من يحتقر المرأة ولا يسمح لها بتبوء مكانها اللائق في المجتمع، فأنه يحتقر الرجال الذين يحملون تلك الأفكار.

* * *

(1) ديوان – رباعيات الحبوبي: طبع النجف، 1948: ص139، " الثقافة حصانة الفتاة ".
(2) ينظر للتوسع في هذا الصدد – الأمهات: د. أسعد احمد علي، بيروت، ط2، 1981: ص27.
(3) ديوان الجواهري: جمع وتحقيق – إبراهيم السامرائي، مهدي المخزومي، علي جواد الطاهر، رشيد رشيد بكتاش، 1973، مطبعة الأديب البغدادية: 461/1 من قصيدة علموها ".

وبطلب المرأة العلم ونفض غبار الجهل عنها يمكنها أن تستعيد أمجادها، وعهود جدودها وجداتها الخالدات الموهوبات التي ليست الخنساء إلا واحدة من تلك النساء اللاتي ما تزال البطولة العربية والأدب العربي مديناً لها.

وفي ذلك يقول الشاعر (صالح جواد الطعمة) [1]:

يـا ابنـة الرافـدين أنشـودة المجـد تهـادت علـى لسـان الوجـود

أنـت سـطرت فـي سـجل البطـولات فخـارا مـن للفخـار المجيـد؟

أنـت مزقـت رغـم قيـد التقاليـد ورغـم الحجـاب ثـوب الجمـود

انـت انـت التـي أعـادت لهـذا الجيـل عهـد الخنسـاء عهـد الجـدود[2]

وفـي ختـام هـذا البحـث يجـدر بنـا أن نختـتم بمقتطفـات مـن قصـيدة رائعـة للشـاعر (محمود الحبوبي) يحيي بها المرأة المتعلمة التي تكتسب فضيلتها وتعلو منزلتها بالعلم... وبالعلم وحده يقول:

سلي لداتك حول ((النيل أو بيدي)) هـل زدن بـالعلم إلا عفـة وهـدى

قسا عليهن عصر قد مضى فمضت جهالـة، واحلـت بعـدها رشـدا

فعـدن ينجـبن جـيلاً غيـر ذي وهـن ان هـن انجـبن مـا بـين المـلا ولـدا

وان خلعـن رداءً قـد حجـبن بـه فـالعلم أضـفى علـيهن العفـاف ردا

يـالبوة الرافـدين الشـعب منتظـر أن تنجبـي لنضـال دونـه اسـدا

وانـت بـالعلم أم ذات تربيـة فضـلى، وذات حيـاة تـألف الرغـدا

وانـت بـالعلم اسـمى منـك منزلـة بيـن الأنـام وارسـى منـك معتقـدا[3]

* * *

وليس ذلك التقدير والاحترام للمرأة المتعلمة كبيراً ولا كثيراً لأن تلك المرأة هي المؤهلة لأن تكون أماً فاضلة ومربية مثالية لأبنائها وبناتها من رجال ونساء المستقبل أجل أن المرأة عموماً مؤهلة لأن تكون أماً، وهنا تتجلى لنا أهمية تعليم المرأة وأخذها القسط

---

(1) صالح جواد طعمة – الدكتور، ولد في كربلاء عام 1928، له ديوانان (الربيع المحتضر 1952، ظلال الغيوم 1950). ينظر – معجم الشعراء العراقيين، ص120.

(2) المرأة في الشعر العراقي الحديث – المفرجي: 94-95 " أكليل الشاعر ".

(3) ديوان محمود الحبوبي، مطبعة دار النشر والتأليف، النجف، 1948: ص20، " يا ربة الدار" ونشرت في مجلة البيان، ع 25-26، سنة 1947.

الكافي والوافي من التعليم لأن هناك فرقاً شاسعاً ومدى بعيداً بين الأمهات المتعلمات والأمهات الجاهلات، فالمتعلمات يجعلن من أبنائهن أعضاء نافعين في المجتمع والجاهلات ينجبن البنين والبنات غير الأكفاء وغير المؤهلين لأن يكونوا أعضاء أكفاء في مجتمع ينشد الرقي والتقدم. ذلك لأنها المدرسة (الأولى) التي تتربى الأجيال في أحضانها – كما عبر عن ذلك الشاعر المجدد الكبير الشيخ (محمد الجواد الشبيبي) في قصيدة جاء فيها قوله:

مدرسة الدار هي الأولى التي تتبعها تلك المدارس الآخر

أستاذها الأم ومن سيرتها يقبس تاريخ السجايا والسير

حق لهذي الأم ما أكبره لو كوفئت عليه في عهد الكبر[1]

وفي ذلك المعنى الرائع يخاطب الشاعر (الزهاوي) " الأم المتعلمة " قائلاً:

إنما الصدر منك يحمل للطفل غذاء وحكمة وشرابا

يتلقى عليه أول درس فهو للطفل ليس إلا كتابا

منك قبل الجميع وهو صبي يتلقى الفنون والادبا[2]

وفي ذلك المعنى أيضاً يقول الشاعر (خضر الطائي) [3]:

أم البنين لأنت مدرسة لهم ربي بنيك على الفضيلة ينبلوا

لا تعبثي بكرامة هي كل ما يسمو به الشرف الرفيع ويحفل[4]

ونختتم ما قيل في هذه المعاني البديعة من أن صدور الأمهات وأحضانهن هن المدارس الأولى التي يتربى الأطفال فيها وينهلون منها كل ما يغذيهم وينمي بهم قابليات التفوق والتقدم التي يتسلحون بها حين ينزلون إلى ميادين المجتمع ليعملوا على ازدهاره وتقدمه.. أجل نختم ذلك كله بمقتطفات من قصيدة (الرصافي) التي عنوانها " التربية والأمهات " بقوله:

---

(1) الشبيبي الكبير – الشيخ محمد جواد الشبيهي – حياته وأدبه: حمودي الحمادي، طبع النجف، 1972: 1972: ص386.

(2) ديوان اللباب للزهاوي: ص 335 ؛ وينظر – تحرير المرأة العراقية بين شاعرين الرصافي – والزهاوي: خضر العباسي، منشورات دار المستنصرية، د. ت: ص40.

(3) خضر الطائي – ولد في بغداد عام 1909 وهو شاعر من الطبقة الأولى غلبت عليه روح التجديد، ولولا قساوة قساوة الحياة لكان اليوم رائد الشعر العراقي. ينظر – معجم الشعراء العراقيين، ص409 وينظر – شعراء العراق المعاصرون: غازي عبد الحميد الكنين، مطبعة الشباب، بغداد، 1958: 33/2.

(4) شعراء العراق المعاصرون: 46/2-47، قصيدة تحت عنوان " أسبوع المرأة ".

ولـــم أر لخلائـــق مـــن محـــلٍ يهـــذبها كحضـــن الأمهـــات

وحضـــن الأم مدرســـة تســـامت بتربيـــــة البنـــين والبنـــات

وأخـــلاق الوليـــد تقـــاس حســـناً بـــأخلاق النســـاء الوالـــدات

ولـــيس ربيـــب عاليـــة المزايـــا كمثـــل ربيـــب ســـافلة الصـــفات

ولـــيس النبـــت ينبـــت فـــي جنـــانٍ كمثـــل النبـــت ينبـــتُ فـــي الفـــلاة

فـــأول درس تهـــذيب الســـجايا يكـــون عليـــك يـــا صـــدر الفتـــاة

فكيـــف نظـــن بالأبنـــاء خيـــراً إذا نشـــؤوا بحضـــن الجـــاهلات[1]

أثر الحجاب في تعليم المرأة:

كما أن تعلم الرجل واجب إنساني عليه، تحتمه ما يتطلع إليه من تقدم في الحياة، وما تنزع إليه نفسه من تحقيق الرفاه الفردي والاجتماعي له ولمجتمعه، فكذلك الأمر بالنسبة إلى المرأة فإن تعليمها أيضاً واجب إنساني تفرضه وتحتمه الدوافع والتطلعات نفسها التي تدفع الرجل إلى التعلم..

ولا أحسبني أكون مغالية إذا رايت أن تعليم المرأة ربما يكون أشد ضرورة وأكثر أهمية، لأنه بالإضافة إلى أهمية التعلم بالنسبة لها شخصياً لتتفهم أمور الحياة على حقيقتها بما يفتحه العلم أمامها من الآفاق المجهولة والعوالم الفسيحة التي يحل العلم الكثير من أبوابها المغلقة ويوضح منها المعالم الخفية.

أجل، بالإضافة إلى كون التعليم مهما لها كأهميته للرجل نفسه، فأنها ربما تزيد عليه بأن أحضانها الكريمة هي المدرسة الأولى التي تفتح أطفالها عليها أعينهم وتتلقى أسماعهم أول الكلمات من ذلك الفم الكريم الذي ينبغي أن لا يسمعوا منه إلا الكلمات المهذبة التي تنطوي على معان سامية وتوجيهات كريمة، لأن الطفل كالطينة الرخوة الطرية يتكيف بكل يسر وسهولة كما تتكيف تلك الطينة الطرية بيد من يهيئها للشكل الذي يريد أن يجعلها عليه [2]...

---

(1) ديوان الرصافي: 2/350-351 ؛ وينظر تعليق (محمود العبطة) على هذه القصيدة في مقاله المنشور في مجلة أفاق عربية، السنة الرابعة عشرة، 1989: ص107 والذي عنوانه (في شعر الرصافي).

(2) الحجاب لغة: هو المنع، يقال حجبوا زيدا عن الدخول أي منعوه ومثله حجبوه عن الكلام ويطلق على الستر. وحجبت المرأة وجهها بالنقاب أي سترته.. ينظر – الحجاب والسفور: جعفر النقدي، مطبعة الآداب، بغداد 1348هـ: ص21.

نعم من هنا اتصف تعليم المرأة بالأهمية البالغة، من أجلها هي أولاً كإنسانة وعضو مهم في هذا المجتمع ومن أجل أطفالها الذين يضفي عليهم تعاليمها نسيجاً متيناً من التربية القويمة...

ولهذه الأسباب المهمة اهتم الدين الإسلامي الحنيف أبلغ الاهتمام بتعليم المرأة ووضعها في ذلك المجال جنباً إلى جنب مع الرجل لأنهما معاً يمثلان الجانب الإنساني بوجهيه كليهما المرأة والرجل، ولا أظن أن هناك اهتماماً بتعليم المرأة أعمق وأقوى من اهتمام الإسلام البالغ بها حيث جاء في الحديث النبوي الشريف " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة "[1]، فوضعها في هذه المهمة الخطيرة جنباً إلى جنب مع الرجل الذي هو الشق الثاني – كما المحنا – من الجانب الإنساني كله ولم نجد في الحديث الشريف إعطاء أي أهمية لتعليم الرجل وحده بل وضعهما في هذا المجال على مستوى واحد.

وهناك التفاتة في هذا الحديث الشريف هي ما جاء فيه من كلم (فريضة) التي تعني (الإلزام)، فهل هي لفتة سامية من ديننا العظيم نستطيع أن ندعي أنها دعوة إلى التعليم لإلزامي لكلا الجنسين (الرجل والمرأة) سبقت التقدم العلمي الحديث الذي دعا إلى التعليم الإلزامي متأخراً في حين أن الإسلام سبقه إلى ذلك قبل أربعة عشر قرناً من الزمان...

وهذه فكرة اسمح لنفسي أن أدعي بكل اعتزاز بأنني لم أسمعها من أحد ولم أقرأها في كتاب.

أجل إن ذلك هو موقف الدين الحنيف من أهمية تعليم المرأة.. ولكن شاءت الظروف الاجتماعية القاسية والعادات والتقاليد البالية أن تقسو على المرأة قسوة لا حدود لها، وتكبلها بقيود ما أنزل الله بها من سلطان، وفي مقدمتها حرمانها من التعليم الذي جعله الإسلام فريضة يجب عليها أن تؤديها..

وعاشت المرأة عدة قرون تعاني اضطهاداً مستمراً وظلماً متواصلاً وحرماناً متزايداً انتهى بها إلى حرمانها من التعليم الذي هو من أهم واوجب حقوقها التي تؤدي إلى بناء شخصيتها ومن ثم إلى بناء بيتها على أسس سليمة، وبنهاية المطاف إلى بناء شخصية وكيان أطفالها على أحسن الوجوه، ليكونوا أعضاء صالحين في المجتمع بل ونافعين له، مما يؤدي به إلى التقدم والازدهار.

ومن القيود القاسية التي اثقلت المرأة هو الحجاب الشديد الذي ربما وصل بعض الأحيان إلى حدود القسوة والتزمت، فجاءت النهضة الحديثة في العصر الحديث تدعو إلى تحرير المرأة من قيود ذلك الحجاب[2] المتشدد ومن ثم الدعوة إلى تعليمها، وانطلقت أصوات تلك الدعوة من مصر على يد الداعي الأول لتحرير تعليمها، وانطلقت أصوات

---

(1) سنن ابن ماجه: 48/1: رقم الحديث (237) المقدمة.

(2) الواقع أن الحجاب انشر في أكثر البلاد الإسلامية منذ زمن بعيد لكنه لم يبلغ من حيث تأثيره الاجتماعي في تلك البلاد كما بلغ في العراق، ففي العراق كانت للحجاب تقاليد صارمة تضيق على المرأة الخناق، وقد اعتمدت جذورها من عادة غسل العار، وظل المجتمع العراقي محافظاً على معانيه حتى اليوم. ينظر – أساليب المقالة وتطورها في الأدب العراقي الحديث: ص222 ؛ وينظر المرأة في الشعر العراقي الحديث – عربية توفيق للازم: ص72.

تلك الدعوة من مصر على يد الداعي الأول لتحرير المرأة (قاسم أمين) الذي دعا إلى التخفيف من وطأة ذلك الحجاب القاسي[1].

وسرعان ما وصلت أصداء تلك الأصوات إلى سائر البلاد العربية وعبرت السهول والجبال والوديان لتصل بأسرع من البرق إلى العراق الذي كانت فيه بداية نهضة حديثة وبلا شك تقوم على أكتاف المثقفين وينهض بأعبائها المنورون من أبناء المجتمع[2].

ومن دون أدنى شك فإن الشعراء يمثلون الطبقة التي هي أكثر رهافة وأعمق إحساساً من كل تلك الطبقات المتنورة..

ولكن الفارق بين أبناء تلك الطبقة أنه يبقى لكل فرد منهم – على عمق أحاسيسه وشدة رهافته – وجهة نظره الخاصة به التي قد تصل ببعضهم إلى التطرف في تبني وجهات النظر، وتصل ببعضهم الآخر إلى الوقوف عند الجانب المنطقي غير المندفع مما يحسب لعواقب الأمور أعمق الحسابات. وربط أولئك المندفعون بين الدعوة إلى السفور وبين الدعوة إلى تعلم المرأة، ورأى الآخرون أن تعلم المرأة شيء وسفورها شيء آخر.. [3].

ولا بد هنا من الإشارة والتأكيد، أن (قاسم أمين) الداعي الأول لتحرير المرأة من الحجاب لم يقصد من ذلك إلا رفع الحجاب المتمثل بالبراقع وأمثالها عن الوجوه... أي أن دعوته لم تتعد حدود (السفور الشرعي) [4] الذي فرضته الشريعة، وليس السفور الذي يؤدي إلى التهتك والخلاعة كما نص على ذلك في كتابيه الشهيرين (تحرير المرأة) [5] و(المرأة الجديدة) [6]. وإذا كان الأمر كذلك فإن الحجاب الشرعي لا علاقة له أبداً بحرمان بحرمان المرأة من التعليم... وبذلك يتضح لنا أن الحجاب لا أثر له إطلاقاً في تعلم المرأة ونيلها القسط الذي هي مؤهلة له كالرجل تماماً[7].

ويجب أن لا ننسى أن أساس موضوعنا هو الحديث عن الشعر المعاصر في العراق وموقفه من الحجاب ومن تأثيره في تعلم المرأة.

وكما أشرنا إلى انقسام شعرائنا إلى فريقين، فريق أيد السفور وربما اندفع بعضهم إلى تأييده إلى حد الإسراف، وفريق آخر وقف ض السفور موقفاً حازماً كل الحزم وأنه لا علاقة له بتعليم المرأة.

---

(1) ينظر المرأة الجديدة: قاسم أمين، طبع القاهرة، 1900: ص156 وما بعدها.
(2) ينظر: المعارك الأدبية حول الدعوة إلى تحرير المرأة، ص6.
(3) المصدر نفسه، ص18 وينظر الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه: يوسف عز الدين، القاهرة، 1965: ص20.
(4) المقصود به سفور الوجه والكفين.
(5) ينظر: المعارك الأدبية حول الدعوة إلى تحرير المرأة، ص6.
(6) ينظر ص156 من المرأة الجديدة.
(7) ينظر: المعارك الأدبية – حول الدعوة إلى تحرير المرأة، ص10.

فهذا الشاعر (صالح الجعفري) [1] وهو من الدعاة إلى تحرير المرأة يقول في قصيدته "هذبوها":

كيف ترجو نجاحها فئة ... كللتها البرود والسجف

من وراء الحجاب نسوتها ... تتهادى كأنها تحف

كلما أبصرت على كثب ... شبحاً للجديد ترتجف

تتحرى استقلال امتها ... اخسأوا أن ذلكم صلف

كم حصان تروح سافرة ... بالحيا والعفاف تلتحف

لا تخالوا الحجاب يمنعها ... (لو ارادت) فذلكم سخف[2]

وهذا (الزهاوي) يقول بنفس المعنى السابق في قصيدته " ما في السفور معرة ":

ما في السفور معرة ... تخشى على امرأة عفيفة

إن النظيفة في قرارة ... نفسها تبقى نظيفة

والفرق جم بين أخلاق ... الرزينة والخفيفة[3]

وهذا الشاعر (الرصافي) يقول في قصيدته " التربية والأمهات":

وما ضر العفيفة كشف وجه ... بدا بين الإعفاء الأباة

فدى لخلائق الأعراب نفسي ... وأن وصفوا لدينا بالجفاة[4]

ويقول الشاعر (الرصافي) في قصيدته " حرية الزواج عندنا " إن حجاب المرأة هو تهذيبها وتعليمها، والحياء الذي تتنقب به المرأة يغنيها عن النقاب الذي يغطي وجهها كله:

شرف المليحة أن تكون أديبة ... وحجابها في الناس أن تتهذبا

والوجه إن كان الحياء نقابه ... أغنى فتاة الحي أن تتنقبا[5]

---

(1) صالح الجعفري – شاعر عراقي، من مواليد النجف 1907، نشر نماذج من شعره علي الخاقني في في شعراء الغري: 307/4.

(2) ديوان صالح الجعفري (ط1985)، جمع وتحقيق: علي جواد الطاهر وثائر حسن جاسم: ص193.

(3) ديوان الزهاوي (ط1972)، مج1: ص714.

(4) ديوان الرصافي: 350/2-357 ؛ الرصافي (1867-1945)، د. داود سلوم: ص26.

(5) ديوان الرصافي (ط 1974): 344/2.

ذلك نموذج من الشعراء الذين دعوا إلى السفور وربما ربطوا بينه وبين تعلم المرأة.

أما الشعراء الآخرون وهم من كبار شعرء النهضة الأدبية في العراق فقد وقفوا ضد الدعوة إلى السفور، ونشير هنا إلى الشاعر الشبيبي الكبير – ونعني به (محمد جواد الشبيبي)– الذي يقول من قصيدة يؤكد فيها على النصوص الواردة في الشريعة والمأثورة من سيرة السلف الصالح، جاء فيها:

ياربة الخدر عن نظارك احتجبي	إن الحجاب لمنصوص ومأثور
وطهري النفس بالأخلاق فاضلة	فإنها لك تنزيه وتطهير[1]

ويعود الشيخ نفسه ليقول مؤكداً إن كتابنا القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة منعت السفور، فيجب على المرأة أن تصون فتنتها وجمالها بالحجاب الشرعي، فيقول:

منع السفور كتابنا ونبينا	فاستنطقي الآثار والآيات
صوني جمالك بالبراقع أنها	ستر الحسان ومظهر الحسنات[2]

وهذا الشاعر المجدد (عبد الحسين الازري) يعارض قصيدة الشاعر (الرصافي) " المرأة في الشرق" بقصيدة عنوانها " الكتاب والحجاب " وهي تفصح عن نفسها وتعبر عما فيها من أفكار عند سماعها أو قراءتها، جاء فيها قوله:

اكريمة الزوراء لا يذهب بك الـ	نهج المخالف بيئة الزوراء
حصروا علاجم بالسفور وما دروا	أن الذي حصروه أصل الداء
أو لم يروا أن الفتاة بطبعها	كالماء لم يحفظ بغير أناء
من يكفل الفتيات بعد ظهورها	مما يجيش بخاطر السفهاء
ومن الذي ينهى الفتى بشبابه	عن خدع كل خريدة حسناء
ليس الحجاب بمانع تهذيبها	فالعلم لم يرفع على الأزياء
فكأنما إصلاحها متعذر	إلا إذا برزت بدون غطاء
نص الكتاب على الحجاب	ولم يدع للمسلمين تبرج العذراء

(1) الشبيبي الكبير – الشيخ محمد جواد الشبيبي – حياته وأدبه: حمودي الحمادي، النجف، 1972، ص384.

(2) المجموعة الشعرية الكاملة – محمد جواد الشبيبي – 2/98-102.

شـــيد مدارســـهن وأرفـــع مســـتوى أخلاقهـــــن لصـــــالح الأبنـــــاء

وأنظـــر إلـــى شـــأن المحـــيط وأهلـــه كيـــــلا تفوتـــك حكمـــة الحكمـــاء[1]

وهذا شاعر آخر ممن خاض تلك المعارك الأدبية حول السفور والحجاب هو (حمزة القفطان) [2] يرى أن الحجاب لا يمكن أن يعيق المرأة عن طلب العلم وسعيها في سبيله، فيقول:

أيمنـــع أن تمشـــي إلـــى العلـــم حـــرة محجبـــــة فـــــي برقـــــع ورداء

تـــروح وتغـــدو مـــا الحجـــاب بمـــانع طـــلاب العلـــى عنهـــا صـــباح مســـاء[3]

ومن أطرف ما نختتم به هذا الموضوع، هو قصيدة الشاعر المجدد (عبدالرحمن البنا) التي يصور بها مشاعر فتاة شهدت وعاشت تلك المعارك الأدبية من أجل الحجاب والسفور حتى وصلت بها الحال إلى البرم والضيق بما ملئت به صحف ومجلات تلك الحقبة خصومات حول حجاب المرأة وسفورها بلغت ببعضهم إلى حد الشتائم والبذاءة في القول، فطلبت منهم أن يهذبوا أنفسهم قبل أن يدعوا إلى تهذيبها، فقال بلسان حالها:

ليتنـــي مـــت ولـــم أســـمع بمـــن قتلـــوا الأوقـــات مـــن أجلـــي عتابـــا

بـــين حجبـــي وســـفوري اختلفـــوا ولهتكـــي مـــلاؤا الصـــحف ســـبابا

هـــذبوا أنفســـكم ثـــم ارجعـــوا هـــذبولي وارفعـــوا عنـــي الحجابـــا

أنـــا عـــن عـــادات قـــومي لـــم أحـــل فـــدعوني وارجعـــوا عنـــي غضـــابا

اتركـــوا عـــن برقعـــي اللـــوم فكـــم رفـــع البرقـــع للديـــن قبابـــا[4]

* * *

ومن خلال حديثنا عن المعارك الأدبية التي دارت في بداية العصر الحديث حول الحجاب والسفور وحول المطالبة بتحرير المرأة وتعليمها، نخلص إلى شيء مفاده أن

---

(1) ديوان عبد الحسين الأزري: تحقيق – مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، تقديم – علي الشرقي، الشرقي، طبع بيروت، د.ت: ص30.

(2) حمزة القفطان (1890-1924): ولد الشيخ حمزة بن الشيخ مهدي قفطان في حي واسط ونشأ بها. نهل نهل من علوم النجف ما سمح له فكره أن ينهل، ويعتبر من أبرز شعراء مدرسة النجف توفي عام 1342هـ. نشر نماذج من شعره علي الخاقاني في (شعراء الغري): 272/3. ينظر – أعلام العراق الحديث (1869-1969) تقديم د. ناجي معروف: 306/1، وينظر – معجم المؤلفين العراقيين، ص375.

(3) من شعراءنا المنتسبين: عبد الله الجبوري: ص110.

(4) ديوان عبد الرحمن البناء، طبع 1345هـ - 1927م، مطبعة الفرات، بغداد: 165/2.

سفور المرأة شيء وتعليمها شيء آخر نعم أن الإسلام نادى بتعليم المرأة ولكن لتلتزم وزيها الشرعي.

هذا وأن الأهمية من تعليمها جاءت بناءً على الدور الخطير الذي تؤديه كأم في تربيتها لأولادها ومدى تأثير تعليمها على تلك التربية التي نتمنى لها أن تكون على أكمل وأتم وجه.

عمل الأم خارج البيت وأثره في تربية الأبناء:

تبين لنا – واضحاً- خلال البحوث السابقة أن الرجل والمرأة معاً هما حجرا الأساس في بناء المجتمع الإنساني، ولا يمكن لذلك البناء الإنساني أن يعلو ويتكامل إلا بحدودهما المشتركة معاً.

ومنذ بدأت الحياة على وجه هذه الأرض كان الرجل والمرأة معا يشتركان بوضع لبناتها الأولى ويعليان دعائمها إلى أن سما ذلك البناء وعلا كيانه بجهدهما المشترك.

وبما أن التركيب الفسيولوجي لكل من الرجل والمرأة يختلف اختلافاً كبيراً تقتضيه طبيعة تكوينهما الخلقية والنفسية والجسدية والوظيفية، فإن طبيعة قدرتهما على العمل فيها من التميز ما يجعل لكل منهما قابليات خاصة به فهي إن اختلفت عن غيرها من قابليات الطرف الآخر فإنها تؤدي دوراً في الحياة العامة، لا يقل أبداً عن الدور الذي يؤديه ذلك الطرف الآخر إذ لكل منهما أهميته وخطورته في بناء المجتمع.

واستمر عملهما مشتركاً وكل منهما يبذل طاقاته كلها ويستنزف قابلياته كلها وقام المجتمع الإنساني على أحسن ما يتمنيانه له من دعائم الجهد المشترك.

وهنا يبدو لنا كيف ازدهرت الحياة الإنسانية بجهدهما وعملهما المشترك كل حسبما هو مؤهل له من حيث الفطرة التي فطره الله عليها. وفطرة الله هي المثل الأعلى التي يجب أن يحتذى، وبموجب تلك الفطرة فإن المرأة تعمل ولكن في النطاق الذي أهلتها له الطبيعة البشرية، ولذلك فهي منذ عهود الإنسان البدائية كانت تعمل داخل ذلك النطاق في إدارة شؤون البيت من تهيئة جميع مستلزماته وهي أعمال كبيرة وكثيرة وليست سهلة أبداً، بالإضافة إلى ما تقوم به من تربية أولادها الصغار لتجعل منهم رجالاً أشداء وأمهات حانيات ليستمر فلك البشرية بدورانه دوراناً سديداً مستقيماً.. كل يؤدي دوره في موقعه ومن موضعه، فإذا اختلفت المواقع والمواضع وأدى الإنسان دور غيره الذي هو غير مؤهل له تسرب الاختلال والانحلال إلى جميع مناحي الحياة.

فالمرأة إذن – بكل غرائزها وطبائعه ومقومات تركيبها، مؤهلة إلى البيت وعمله المتشعب والكثير بما فيه من رسالة مقدسة شاءت لها الأقدار أن تكون تأديتها على يديها.

أما تكليفها بأداء الأعمال التي لا تطيقها ولا تتحملها، أو بأعمال تطيقها ولكن تأديتها تكون على حساب وظيفتها الرئيسية في شؤونها البيتية وفي مقدمتها تربية الأبناء، فذلك ما ترفضه طبيعة المرأة وبالتالي لا يقره العقل ولا يرضاه الضمير ولا المروءة.

فإذا هجرت المرأة إدارة شؤون مملكتها في داخل البيت، وتركت رعاية أبنائها، وتركتهم في تخبط أوهامهم يعمهون، فإنها بذلك تكون قد أخلت بالواجبا الطبيعية الملقاة على عاتقها، وكان لذلك الإخلال أثر بالغ على أولئك الأبناء ومن ثم على سلوكهم الخاص والعام.

لذلك فإننا نجد الشعراء لم يغفلوا هذا الجانب المهم من الأمومة والبنوة، بل تطرقوا باهتمام بالغ إلى عمل الأم عموماً وأثره العميق على الأبناء.. ولكن ذلك الاهتمام اختلف باختلاف وجهات نظرهم، حيث أخذ كل منهم جانباً من جوانب تلك المشكلة وطرحها بشكل يتلاءم مع فكره ومزاجه.

فهذا الشاعر المجدد أحد رواد الشعر المعاصر الكبار الشيخ (محمد رضا الشبيبي) يعرض رأيه في قصيدته " سراب الآمال " التي مطلعها:

دعوتك أن تهب إلى المعالي ودعواي الخيال من الخيال

فيقول:

وأرباب الحجا لهم حقوق بنسبتهم كربات الحجال

بتدبير المنازل هن أولى وهم أولى بتدبير النزال

ولو كلفن جلب الرزق كانت وظيفتهن طوع الاختلال

ومن للنسل تربية وحفظاً إذا ساوينا في كل حالٍ

فيا بنت الكمال نعمت بالاً ولست أقول يا بنت الدلال

صنيعك لليمين تقوم فيه مفاخرة ومهدك للشمال[1]

فهو هنا يرى بإصرار أن الأولى أن تؤدي رسالتها المقدسة في إدارة شؤون البيت وتربية النشئ. وبذلك تقوم بإشراف عمل تزاوله من أجل ازدهار المجتمع وسلامته من آفات التخلف.

وربما كان شاعرنا (الشبيبي) يرد بقصيدته هذه على الشاعر (الزهاوي) الذي بهرته نهضة الغرب الجبارة والإسراف في المناداة بمساواة المرأة في الأعمال جنباً إلى جنب مع الرجل، فقال في قصيدته " المرأة والرجل ":

في الغرب حيث كلا الجنسين يشتغل لا يفضل المرأة المقدامة الرجل

كلا القرينين معتز بصاحبه عليه أن نال منه العجز يتكل

وكل جنس له نقص بمفرده أما الحياة فبالجنسين تكتمل[2]

(1) ديوان محمد رضا الشبيبي: عنيت بنشره جمعية الرابطة العلمية والأدبية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1940: ص100. ونشرت في مجلة العرفان سنة 1327هـ - 1909م.

(2) مجموعة الزهاوي الكاملة (ط 1972): ص492.

وفي قصيدة أخرى عنوانها " ضلوا واضلوا " يذكر أن المرأة احتلت مناصب عديدة حين اقتحمت ميادين العمل في الغرب فقال:

للمرأة اليوم في مجلس القضاء محـــل

للمرأة اليوم في مجلس البرلمان عقد وحل[1]

ثم يستمر بتعداد المناصب التي تبوأتها في الغرب فيدعو العراقية إلى متابعتها في ذلك.. وكأن شاعرنا (الزهاوي) نسي أو تناسى أن هناك بيتاً يجب أن تبقى المرأة مسؤولة عنه وأن هناك أبناءً يجب على المرأة أن تبقى حريصة كل الحرص على تربيتهم التربية المناسبة.. ولم يلتفت إلى الانحلال الذي يطرأ على المجتمع الذي يتخلى عن مسؤوليته الأساسية ويقوم بأداء مسؤوليات كفاه من نيطت بهم شؤونها.

وكما أشرنا في ثنايا هذا البحث إلى أن المرأة كانت تؤدي أي الأعمال التي لا تعارض مسؤولياتها في إدارة البيت وتربية الأولاد.. فهذه الشاعرة (عاتكة الخزرجي) يهزها منظر امرأة رأت أبنائها يغطون بنوم هنيء عميق ويضع ندى الفجر حبات من لآلئه على خدودهم المتوردة فتقبلهم قبلة الحنان العميق وتخرج إلى الحفل وهي ترتجف من البرد لتساعد زوجها ساعة من الزمان قبل استيقاظ أولادها فتقول الشاعرة:

قبيـــل الصـــباح جفـــت كوخهـــا وأطفالهـــا فـــي الكـــرى غـــارقون

يقضقضـــــها البـــــرد عريانـــــة فتلتـــف بالشعـــر خـــوف العيـــون[2]

أجل ساعة من الزمان تعود بعدها ليفتح أطفالها عيونهم على نظرتها الحانية وبسمتها الدافئة فتغمرهم في ذلك السعادة.

وهذا الشاعر (مرتضى فرج الله) أثاره ذلك المنظر المؤثر حيث يرى الفلاحات بعد فراغهن من أداء أعمال البيت وتربية الأولاد يساعدن أهلهم من الرجال في أعمالهم في الحقول[3]، فقال:

بهجـــة الريـــف فـــي الحقـــول بنـــات جهـــدها لا يقـــل عـــن فتيانـــه

كالفراشـــات أيـــن مـــا وجـــد الـــروض تراهـــا تهـــب مـــن أحضـــانه

تحســـن العـــزق والحراثـــه والســـقي وتحمـــي القطيـــع فـــي وديـــانه[1]

---

(1) مجموعة الزهاوي الكاملة: ص323 ؛ وينظر ديوان الزهاوي (ط1924): ص33 ؛ وينظر – حركة حركة التطور والتجديد في الشعر العراقي الحديث: عربية توفيق للازم، ط1، بغداد، 1971: ص185.

(2) أدب المرأة العراقية في القرن العشرين: بدوي طبانة، ط2، 1974: ص152 من قصيدة " بائسة".

(3) ينظر في ذلك عمل المرأة وأثره على دورها في الأسرة (رسالة ماجستير): فريال بهجة عزيز، القاهرة، 1985: ص58 ؛ وينظر – المرأة في الشعر العراقي الحديث – عربية توفيق للازم: ص119.

ولقد أثارت الشاعر (مرتضى فرج الله) ما تقوم به المرأة الريفية بعد فراغها من شؤونها بيتها وأولادها من الجرش في الجاروش، فقال:

اجترشـــــي للقـــــوت لا تيأســـــي فالكســـب فـــي أرجائـــه العافيـــة

لـــئن تركـــت الـــزوج فـــي وحشـــة فعينـــه مـــن تعـــب غافيـــه

لا تهجريـــــه وأنظـــــري فرصـــــة تقصـــيه عـــن حياتـــه القاســـية[2]

* * *

ومنذ بدء البشرية كانت المرأة بعد قيامها بشؤون بيتها والعناية بأطفالها، تقوم بمساعدة الرجل في أعماله حسب الفراغ المتاح لها لا على حساب عملها في البيت وفي تربية الأولاد لذلك أشار الشاعر (صالح الجعفري) إلى ذلك بقوله:

أنظـــروا المـــرأة التـــي ســـلفت كيـــف أعلـــى مقامهـــا الأول

فهـــي تـــأتي عكـــاظ نابغـــة وهـــي فـــي الحـــرب فـــارس بطـــل

وهـــي فـــي بيتهـــا لأشـــبلها مـــرأة وهـــي فـــي اللقـــا رجـــل[3]

ويقول (الرصافي) في قصيدته " التربية والأمهات ":

ألـــم تـــر فـــي النســـاء الغيـــد قـــبلا أوانـــس كاتبـــات شـــاعرات؟

وقـــد كانـــت نســـاء القـــوم قـــدما يـــرحن إلـــى الحـــروب مـــع الغـــزاة

يكـــن لهـــم علـــى الأعـــداء عونـــا ويضـــمدن الجـــروح الـــداميات

فمـــاذا اليـــوم ضـــر لـــو التفتنـــا إلـــى أســـلافنا بعـــض التفـــات

فهـــم ســـاروا بـــنهج هـــدى وســـرنا بمنهـــاج الترفـــق والشتـــات[4]

وفي هاتين القصيدتين يتضح لنا أن المرأة العربية وقبل المرأة الغربية بمئات السنين، شاركت الرجل في أعماله، ولكن ليس في كل أعماله.. وليس في الأعمال التي تعيقها عن مهمتها الأساسية في تربية الأبناء وإدارة البيوت.

* * *

---

(1) شعراء الغري: علي الخاقاني، النجف، 1954-1956: 286/11 " عروس الفرات ".

(2) المصدر نفسه: 274/11.

(3) ديوان صالح الجعفري، بتحقيق علي جواد الطاهر، وثائر حسن جاسم: ص193 من قصيدة " هذبوها".

(4) ديوان الرصافي: 350/2.

ولعل خير ما نختتم به هذا البحث قصيدة عامرة عنوانها " الأمومة المحتضرة " للشاعرة (فطينة النائب) تدعو فيها (الفتاة) – أي فتاة – أن لا تخلبها مظاهر الحضارة الحديثة وأن لا تجرفها بتياراتها العاتية التي انتهت بكثير من العائلات إلى هدم بيوتها حين تخرج (المرأة الأم) لتجرفها تيارات العمل[1]، تاركة أفلاذ كبدها برعاية الخادمات الجاهلات، فيالهول هذه المأساة التي بدأنا الآن نسمع الكثير والكثير عن آثارها السيئة وجراحاتها التي لا تندمل؛ ولنستمع الآن إلى أبيات من تلك القصيدة لتكون نعم الختام لهذا البحث:

رويدك واستقري يا فتاتي ... فقد خلبتك شتى المغريات

وقد جرفتك اثباج الأماني ... فأنت غريقة والبحر عاتي

وما قاومت واستسلمت دوماً ... لما يقصيك عن سبل النجاة

إلا أين النجاة ولم تبالي ... ولم تصغي لنصح الناصحات

بربك هل علمت بما نعاني ... وهل أبصرت جهل الجاهلات؟

وهل أشفقت يوماً للماسي ... التي صنعت اكف الوالدات ؟

إلام الطفل يحيا في ظلام ... ويفسده ضلال الخادمات !

ألست رقيقة أو لست أما ... أما هزتك إحدى الحادثات![2]

إذا نفهم من ذلك كله أن المرأة خلقت لتأدية واجب إنساني مقدس، فالأولى أن تؤدي رسالتها المقدمة في إدارة شؤون البيت وتربية النشء. وبذلك تقوم بأشرف عمل تزاوله من أجل ازدهار المجتمع وسلامته من آفات التخلف.

وإن أدت وظيفة أخرى على حساب وظيفتها الرئيسية هذه، فإنها تكون قد أخلت بالواجبات الطبيعية الملقاة على عاتقها، ذلك الإخلال الذي يتسرب إلى الأبناء فيؤثر على سلوكهم.

فكان نداء واضح وصريح من أغلب الشعراء لبعض الأمهات اللاتي انجرفن بمظاهر الحضارة الحديثة وانتهى بكثير من العائلات إلى هدم بيوتها حين تخرج الأم إلى العمل، وأفظع من هذا كله أن تترك أولادها برعاية الخادمات الجاهلات.

لكن هذا لا يمنع أن وجدت لديها فسحة من الوقت لا تتعارض مع أداء واجبها فإنها تؤدي بعض الأعمال الأخرى لمساعدة زوجها أو أبيها أو أخيها أو أبناء وطنها.

---

(1) ينظر في هذا الصدد – عمل المرأة وأثره على دورها في الأسرة: ص64.

(2) ديوان لهيب الروح – فطينة النائب: ص109.

وصايا الآباء لأبنائهم:

يستمد الآباء والأمهات فرحتهم بأبنائهم، من حبهم الطبيعي لهم، وحنوهم الغريزي عليهم، وتعلقهم بهم، ويزداد هذا الحب والحنو والتعلق عند الارتقاء بالأبناء إلى أعلى المستويات، الأدبية والأخلاقية، ولن يتم لهم ذلك الارتقاء إلا بالتوجيه والإرشاد والنصح الذي يقدمه الآباء للأبناء.

ويجسد لنا هذا المعنى الشاعر الشيخ (محمد بهجت الأثري) عندما ولدت له مولودة وهو في السجن أسماها (زينب) حيث لم تمنعه ظروف السجن القاسية والمرارة التي يكابدها فيه من أن تتدفق قريحته بقصيدة مؤثرة يعكس فيها حبة لأبنته الوليدة (زينب) التي لم تكتحل عيناه برؤيتها بعد، لأنه يعيش في غياهب السجن بعيداً عنها وعن أمها، ولم يكتف بتصوير عواطفه تجاه ابنته الوليدة وإنما كان يغمرها بنصائحه وتوجيهاته وإرشاداته في قصيدته تلك، حيث يقول فيها:

يـــا بنـــت خيـــر الأمهـــات ... فـــي معـــالي الحســـب

ألقـــي لهـــا الزمـــا ... ن طاعـــة المـــؤدب

وأكثـــري البـــر بهـــا ... فـــالبر خيـــر مكســـب

إيـــاك والتفكيـــر ... إلا فـــي رفيـــع الرتـــب

مـــن العفـــاف والحيـــا ... ء والعـــلا والحســـب[1]

وسار شاعرنا (الأثري) على هذا النهج في توجيه أبنائه وإسداء النصائح لهم والتوجيهات النافعة في حياتهم، فقال في قصيدة أخرى يخاطب بها أبنهُ الصغير من معتقله في العمارة في عام 1948م، نقتطف منها:

تـــيقظ ودع غفـــلات الصـــبا ... ولايـــك بـــاللهو منـــك اعتصـــام

فهـــذا أوان طـــلاب الكمـــال ... لكســـب الرهـــان وأخـــذ الزمـــام

تلـــق مـــن العـــم غاياتـــه ... ولاتـــك فـــي المجـــد إلا (عصـــام)

ولـــيس بمغنيـــك فـــي حالـــةٍ ... فخـــارك أنـــي ابـــوك الهمـــام

وراع مـــع الله حـــق التقـــى ... وراع مـــع النـــاس حـــق الـــذمام

(1) ديوان ملاحم وازهار: الشيخ محمد بهجت الأثري: ص384.

ومعرفة النفس أقصى المنى من العلم عند الذكي الهمام

أعرني فؤادك لا مسمعيك ليودع من در نصحي نظام

إذا انت مني لم تنتفع بنصح فقل للحياة السلام [1]

وهذا شاعر آخر من شعراء النهضة الأدبية الحديثة هو الشيخ (محمد علي اليعقوبي) عميد الرابطة الأدبية في النجف، يسافر من مدينة النجف إلى (بغداد) التي يطول مكثه فيها وذلك عام 1358هـ - 1939م فتتفجر في حناياه عواطف الأبوة شوقاً وحنيناً إلى ولده البكر (موسى) فينظم قصيدة يعرب فيها عن حبهُ له وشوقه وحنينه إليه، وينثر في ثناياها نصائحه وإرشاداته وتوجيهاته له في حياته. ونظراً لروعة تلك القصيدة وأهمية تلك النصائح والإرشادات فإننا ننقل فيما يلي قسماً من تلك القصيدة الرائعة التي عنوانها " وصايا ونصائح":

بعدت وأنت من قلبي غريب وعن عيني خيالك لا يغيب

إذا ما غبت عني بعض يوم كأني بين أحبابي غريب

ذكرتك يا بني وفي عيوني عيون الدمع ليس لها نضوب

فهلا رق قلبك مثل قلبي فليس الحب أن تقسو القلوب

بني هل الهوى إلا دموع مرقرقة وأحشاء تذوب

أصخ لأبيك يا موسى وخذها وصايا ليس فيها ما يريب

توق الجهل أن الجهل داء عضال لا يعالجه الطبيب

ورد روض المعارف والمعالي فإن الجهل مرتعه جديب

أظنك إن سعيت لها تنلها وظن المرء أحياناً يصيب

ولا تقرأ سوى الأخلاق درساً ففيها للعلى ترقى الشعوب

وثق بالله تسلم إن ألمت بك الأحداث يوماً والخطوب

ومل عن حرفة الأدب اجتناباً فشعبك لا يعزُ به أديب

(1) ديوان ملاحم وأزهار: ص403، قصيدة عنوانها " إلى ولدي ".

ومهمـــا ضـــاقت الأحـــوال يومـــاً يكـــن مـــن بعـــدها فـــرج قريـــب

رعيتـك فـي الشـباب عسـاك ترعـى أبـــاك إذا ألـــم بـــه المشـــيب

وإنـــك إن عصـــيت اليـــوم قـــولي وغـــرك بـــارق العـــيش الخلـــوب

ســـتعلم والتحـــارب شـــاهدات بأنـــك مخطـــئ وأنـــا المصـــيب[1]

وهذه شاعرة أخرى من شاعرات النهضة الأدبية الحديثة هي الشاعرة (فطينة النائب) نجد في ديوانها ((لهيب الروح)) قصيدة عامرة بالإرشادات وطافحة بالوصايا القيمة والنصائح النافعة لابنها الوحيد (سعيد) نقتطف منها الأبيات التالية التي نقرأ بين سطورها أسمى عواطف الأمومة الطافحة بأعظم النصائح والإرشادات التي تتمنى أن يتحلى بها ولدها، فتقول:

بنـــي اســـمع فـــإن الحـــق قـــولي كفـــاني أن تصـــيخ وأن أقـــولا

فكـــن رجـــلاً وكـــافح فـــي بـــلاد أرى عـــدد الرجـــال بهـــا قلـــيلا

وكـــن كالـــدهر جبـــاراً عظيمـــاً وحلـــق للنجـــوم لكـــي تطـــولا

وســـر قـــدماً مـــع الأيـــام واصـــعد إلـــى العليـــا ولا تـــرض القفـــولا

فـــديتك لا تهـــن وارفـــض خضـــوعاً فلســـت منـــاي إن كنـــت الـــذليلا

وفكـــر مـــا اســـتطعت بكـــل أمـــر فخيـــر النـــاس ارجحهـــم عقـــولا

وقلـــب كـــل رأي بارتيـــاب إلـــى أن يظهـــر ألحـــق الـــدليلا

ولا تـــأمن رفاقـــك واستشـــرني لكـــي أهـــديك إن رمـــت الخلـــيلا

وأحبـــب كـــل مظلـــوم وســـاعد ضـــعيفاً يرتجـــي الظـــل الظلـــيلا

تبســـم للصـــعاب ولا تهبهـــا ولاتـــك فـــي تقحمهـــا كلـــيلا

ولا تســـرف بقـــول أو وعـــود وأرجـــو أن تكـــون لهـــا فعـــولا

وهـــذب ميـــل نفســـك بالتســـامي فأســـمى الخلـــق أشـــرفهم ميـــولا

(1) ديوان اليعقوبي: مطبعة النعمان، النجف، 1957م، ط1: 140/1.

ستصـــبح شـــاعراً إن شـــاء ربـــي يســـيل يراعـــه عـــذباً جـــزيلاً

يصـــوغ لنـــا القـــوافي ثـــائرات يعشـــن علـــى المـــدى جـــيلاً فجـــيلا

تخيـــر مـــا تشـــاء بنـــي وانهـــض فخلفـــك قلـــب أم لـــــن يحـــولا[1]

أمـا رائـد الشـعر الحـر الشـاعر (بـدر شـاكر السـياب) فإنـه يحـس بـأعمق المشـاعر والأحاسيس تجاه ابنـه (غيلان) وتـزداد مشـاعره وأحاسيسـه تجـاه ابنـه وهـو علـى فـراش المـوت فـلا ينسـاه فـي تلـك اللحظـات الرهيبـة فيخاطـب زوجتـه وأم أولاده السـيدة (إقبـال) موصياً إياها بأن تكون له كما يتمنى أن تكون وأن تعلمه ما يجب أن يتعلم فيقول مخاطباً لها:

إقبال يـا زوجتي الحبيبه

لا تعذليني ما المناي بيدي

ولست لو نجوت بالمخلد

كوني لغيلان رضـى وطيبه

كوني له أباً وأماً وارحمي نحيبه

وعلميه أن يديل القلب لليتيم والفقير

وعلميـــــه..... [2]

وهذا شـاعر مجدد آخـر مـن شـعراء النهضـة الأدبيـة الحديثـة هـو الشـاعر (صـالح الجعفري) يصـور اهتمامـه البـالغ بـأولاده معربـاً مـن خـلال ذلـك عـن تمنياتـه لهـم بـالتوفيق والسعادة والنجاح الباهر في حياتهم لأنهم معقد آماله وامتداد وجوده فيخاطبهم قائلاً:

بنـــي وهبـــتكم عينـــي لألقـــى بكـــم عنهـــا عيونـــا مبصـــرات

انـــرت دروب امســـكم فشـــبوا بـــدرب غـــدي منـــائر مرشـــدات

غرســـتكم ورداً فـــي حيـــاتي لا نشـــقكم عطـــوراً فـــي وفـــاتي

فكونـــوا عنـــد ظنـــي كـــي أرانـــي حييـــت بـــروحكم بعـــد الممـــات[1]

(1) ديوان فطينة النائب: ص 9-12، قصيدة عنوانها " آمال أم ".
(2) العبد الغريق، دار العلم للملايين، بيروت، 1962: ص161.

وهكذا فإن كل الآباء والأمهات يرجون لأولادهم أن يكونوا على أروع ما يتمنون من السلوك القويم والصفات الحميدة والجد والاجتهاد وشق طريقهم المثالي في الحياة.

وتتحطم تلك الأماني على صخرة الخيبة، حينما يرى الآباء والأمهات أبناءهم وقد خاب فيهم كل ما كان يرجونه لهم. فهذا الشاعر (صالح الجعفري) نفسه نراه يعبر عن خيبة أمله في أبنه فيخاطبه بمرارة وألم عند رسوبه، رغم كل أتعابه وجهوده تجاهه:

قد كنت أمل أن اشب بمهده بعد المشيب

متهلل القسمات وضلح المعالم والدروب

حتى إذا فاحت شمائله بمختلف الطيوب

وحمدت أتعابي وهنأتي رفاقي بالنخوب

عاف التطلع للشروق ميمماً شطر الغروب

مستلهماً سر النجاح من التخبط في الرسوب

أ ألومه، ما ذنبه، أنا لا ألوم سوى نصيبي[2]

وما أعمق ما تتجلى به عواطف الأبوة الحانية بحيث يتحاشى لوم ابنه على فشله في الدراسة، فلا يلقي الذنب عليه بل يلقي كل اللوم على نصيبه الذي انتهى به إلى الفشل الذريع؛ فهل توجد عاطفة في الدنيا أسمى وأعمق من عاطفة الأبوة هذه ؟

* * *

وأدهى من ذلك كله أن نجد بعض الأولاد رغم قيام آبائهم وأمهاتهم – على وجه الخصوص – بأسباغ الحب الوارف عليهم وتوجيههم التوجيه الجيد الذي يجب أن يتبينوا فيه الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

أجل، رغم ذلك كله فإننا نرى بعض الأولاد لم يكتفوا بعدم الأخذ بنصائح الأبوين والتوجه نحو الطريق الأمثل الذي يجب عليهم أن يسلكوه ولكنهم – ولأسباب ربما تعود إلى ما تركب في أعماق نفوسهم من الطبائع والغرائز التي هي من اختصاصات علم النفس لأمن اختصاص بحثنا الأدبي هذا – أجل، ولكنهم يقابلون كل ذلك الحب والتوجيه الذي يغمرهم به الآباء والأمهات بالجحود والنكران، بل بالعقوق الذي هو شر مظاهر ذلك الجحود.

---

(1) ديوان صالح الجعفري: جمع وتحقيق د. علي جواد الطاهر وثائر حسن جاسم: ص407، رباعية عنوانها " إلى أولادي ".

(2) الديوان نفسه: ص65 من قصيدة عنوانها " التعب الضائع ".

وهذا الشاعر (صالح الجعفري) يرسم لنا صورة مؤلمة لأم كان يتعلق بها ابنها في طفولته لحاجته إليها ثم كيف عقها وتنكر لها بعدما كبر وصلب عوده؛ فقال على لسان الأم:

نعمت به طري النبع غضا ترعرع بين أحضاني وصدري

تطوقني ذراعاه فأزهى بعقدهما المفصل حول نحري

فلما شب انكرني كأن لم أكن اسعدته بشقاء عمري

سقيت الكرم دمع العين لكن تعاقر خمر ذاك الكرم غيري[1]

وصورة أخرى من صورة ذلك الجانب المعتم من واقع حياتنا الاجتماعية المر، الذي هو " العقوق " يرسمها لنا الشاعر (صالح الجعفري) لولد عاق لأبيه، فيقول فيها على لسان الأب يخاطب فيها ذلك الولد بقصيدة بالغة الروعة والجمال، يقول:

هكذا كان جزائي بعد جهدي وشقائي

كم قضيت الليل سهر ان لتهنا بالغفاء

يقظاً احلم أني في عداد السعداء

ووصلت اليوم خمصان[2] صباحي بمسائي

طاوي البطن لتحيا انت عني بغذاء

ودفعت البرد عن جسمك غضاً بكسائي

لا أبالي – وأنا الشيخ – بالأم الشتاء

- وتناسيت إذا انتابك داء – الف داء

واجداً بين ثناياك دوائي وشفائي

كم تركت البيت حيران ومن دون رجاء

جسداً لا روح فيه تاركاً قلبي ورائي

---

(1) ديوان الجعفري: 474 " الأم المحرومة ".
(2) خمصان: جوعان.

واتيت الدرس قبل الوقت من دون اهتداء

منهياً باسمك موضوعي من قبل ابتدائي

وكـــــأني رغـــــم افصـــــاحي مصـــــــــاب بالعيـــــــــاء

كـــــم تطفلـــــت بلطـــــف نـــــازلا عـــــن كبـــــر يـــــائي

تـــــارة أحبـــــو وأخـــــرى اختفـــــي خلـــــف الـــــرداء

واناغيك بما يشبه لحن الببغاء

كنت عذري حينما أسال عن سر انطوائي

كنت اعددتك عكازي لضعفي وانحنائي

وسراجي – سلمت عيناك – أن غاب ضيائي

أمـــــن الرحمـــــة أن تأخـــــذني بـــــــــــــــــــــالخيلاء

وأناديـــــك فـــــلا تفـــــتح قلبـــــاً لنـــــــــــــــــــــدائي

ناســـــياً أنـــــي أعطيتـــــك قلبـــــــــي بســـــــــخاء

منكـــــراً أنـــــي ربيتـــــك فرخـــــــــاً بعـــــــــراء

فإذا قدرت أن الخلف من بعض وفائي

فترقب (لا ولن أفعل) آثار دعائي[1]

(1) ديوان صالح الجعفري: 27، من واقع حياة الأبوة والبنوة، قصيدة عنوانها " دغدغة ".

الفصل الثاني
العلاقات الاجتماعية في شعر الأمومة والبنوة

الفصل الثاني
العلاقات الاجتماعية في شعر الأمومة والبنوة

حقوق المرأة الاجتماعية:

في هذا الفصل نتحدث عن العلاقات الاجتماعية في شعر الأمومة والبنوة؛ وأول ما نبدأ به الحديث عن تلك العلاقات هو عن غمط أغلب الحقوق الاجتماعية التي يجب أن تتمتع بها المرأة. لذلك فإن أول عنوانات هذا الفصل هو ((حقوق المرأة الاجتماعية)) والذي يعرفه الجميع أن أغلب تلك الحقوق كانت مغموطة وقد غمطها الرجل سواءاً كان ذلك في إطار البيت أم في إطار المجتمع.

ولأهمية الموضوع فقد ألفت فيه كتب وكتبت بحوث عديدة مما يقتضيها أن لا نسهب في شرح ذلك، لأننا وبلا مبالغة لن نأتي بجديد، ولكن الذي يكفينا الآن ونحن نتحدث عن حقوق المرأة الاجتماعية أن نشير إلى ذلك إشارات موجزة ومركزة، ليكون ذلك الإيجاز والتركيز مدخلاً إلى عنوانات هذا الفصل التي سنتحدث عنها في هذه الدراسة.

كان المجتمع العراقي – ونحن نتحدث عن حقوق المرأة الاجتماعية في العراق – يعامل المرأة بكل قسوة ويشدد عليها كل التشديد، مما أدى إلى فقدانها حرية التفكير وإبداء الرأي حتى عن ابسط حقوقها وأخص الخصوصيات التي تمس صميم حياتها الشخصية حتى وصلت بها الحال إلى أنها لا تستطيع إبداء رأيها حتى في شريك حياتها الذي ستقضي معه عمرها كله بحلوه ومره، فلا يسمع لها صوت في رفض أي متقدم للزواج منها إذا تمت موافقة أسرتها على ذلك، مهما كان مستوى ذلك المتقدم لطلب يدها من حيث الخلق والسلوك والصفات والطبائع..

والذي يثير الدهشة أن ذلك ليس مقتصراً على الفتيات الصغيرات فقط، بل أن الزوجات وحتى الأمهات لا يسمع لهن أي رأي فيما يتعلق بوضع الأسرة -التي هي جزء لا يتجزأ منها – فالرأي للرجال وحدهم لا للنساء.

ذلك من حيث حرية الرأي، أما من حيث التعليم فكما سبق أن أشرنا إلى ذلك في موضعه من الفصل السابق من أن المرأة لم يكن المجتمع ليسمح بتعليمها حتى مبادئ القراءة والكتابة...

تلك هي القاعدة العامة وطبعاً لكل قاعدة شذوذ، فهناك أسرٌ قليلة، وقليلة جداً تعلم بناتها في الكتاتيب أو على أيدي الشيوخ، ولكن تلك المتعلمات لا يمثلن في المجتمع النسائي إلا نسبةً ضئيلةً جداً ربما لا تتعدى الواحد من الألف.

وأن ذلك التضييق الاجتماعي على المرأة يمشي معها ويصاحبها منذ ولادتها حتى آخر يوم من حياتها، حيث كانت النظرة المشؤومة إليها تحدق بها وتطوقها – عند أغلب الأسر- منذ أن تفتح عينيها على نور الحياة، فكم من أب إذا علم أن زوجته ولدت لهُ بنتاً تقوم قيامتهُ ولا تقعد، ولا ينظر إلى تلك المولودة البريئة إلا بعين الازدراء والاحتقار.

وأما في أثناء طفولتها فإنها تعامل ليس كما يعامل الذكور، وبعد ذلك حين تصل إلى مرحلة اليفاعة تفرض عليها قيود أشد، فهي لا تخرج من البيت حتى في الزقاق الذي يقع فيه مسكن أسرتها.

ثم إذا هي كبرت وصارت فتاة تقارب مرحلة النضج يفرض عليها المجتمع قيوداً أكثر شدة وأشد قسوة وذلك أن لا تخرج إلا مع أفراد أسرتها وهي مثقلة بأشد أنواع الحجاب التي تتعدى حدود الحجاب الإسلامي.

ولقد صور لنا المشاعر (الرصافي) حالة المرأة في تلك الفترة خير تصوير في قصيدته " المرأة في الشرق " حيث يقول:

لقد غمطوا حق النساء فشددوا عليهن في حبس وطول ثواء

وقد ألزموهن الحجاب وأنكروا عليهن إلا خرجة بغطاء

أضاقوا عليهن الفضاء كأنهم يغارون من نور به وهواء

أهانوا بهن الأمهات فأصبحوا بما فعلوا من ألام اللؤماء[1]

وهناك كثير من الشعراء صوروا تلك الحالة ورسموا بريشتهم الشعرية البارعة نماذج من تلك الصور لحياة المرأة في تلك الفترة، ونذكر من أولئك الشاعر (عبد الحق فاضل) [2] في قصيدته " الجمال الضائع " التي نظمها عام 1939 والتي جاء فيها قوله:

وأنت في السجن لا يصغى لشكواك

ترنو إلى ما وراء الستر عيناك

تذوين شيئاً فشيئاً دون ماباكي

وعيروك بأن القيد اضناك

لو حرروك افادوا من مزاياك

وأدركوا الخير ما شاؤوا وإياك[3]

تلك صورة عن حياة المرأة الاجتماعية في المدن؛ أما في الأرياف فحياة المرأة الاجتماعية تمثل العجب العجاب، لما ينطوي عليه ذلك من التناقض فهي فضلاً عن قيامها

---

(1) ديوان الرصافي: شرح وتعليق – مصطفى علي: 332/2.

(2) عبد الحق فاضل – من مواليد الموصل 1911، لع عدة مؤلفات سجلها كوركيس عواد في معجمه: معجمه: 233/2.

(3) الفكر الاشتراكي في الأدب العراقي: عبد اللطيف عبد الرحمن، رسالة ماجستير، كلية الآداب، بغداد، 1976: 311.

بكل أعمال البيت فإنها تشارك الرجل في أغلب أعماله حيث ترعى معه الماشية وتساعده في الحرث والبذر والسقي والحصاد، ومع ذلك كله فهي لم تلق عند الرجل التقدير والاحترام اللائق بها وبجهودها فلا يسمع لها رأي في أي شأن من الشؤون العامة وحتى الخاصة، فزواجها مثلاً يتم في عملية ربما تكون أقرب إلى عمليات البيع والشراء[1].

(وبقيت المرأة العراقية عموماً على تلك الحال تعيش اضطهاد التقاليد البالية وتتلوى تحت سياط التسلط الاجتماعي الموجع إلى أن بدت تباشر فجر النهضة الحديثة في آخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فكان مما نادت به تلك النهضة الدعوة إلى تحرير المرأة من صنوف التخلف، بإعطائها حقوقها المشروعة التي من أبرزها التعليم والسفور الشرعي واحترام أرائها فيما يتعلق بشؤونها الخاصة أو بالشؤون العامة) [2]؛ لتأخذ المرأة دورها اللائق بها الذي يتناسب مع طبيعتها زوجةً صالحةً وأماً حنوناً تمثل نصف المجتمع الذي لا يتم صلاحهً إلا بصلاحها وتقدمه إلا بتقدمها.

ولقد أثارت تلك المعاناة التي كانت تكابدها المرأة مشاعر الشعراء المجددين وألهبت عواطفهم وأذكت أحاسيسهم، فرسموا صوراً بارعة لوضع المرأة الاجتماعي عموماً والأم خصوصاً؛ واندفعوا بكل حرص وصدق إلى الدفاع عن حقوق المرأة المهضومة التي غمطها أبناء المجتمع، فهذا أحد شعراء النهضة الحديثة الكبار الشاعر (صالح الجعفري) يصرخ في وجوه من فرضوا تلك التقاليد الظالمة مخاطباً إياهم بقوله:

هـــذبوها فإنهـــا بشـــر لكمـــال الحيـــاة تفتقـــر

النـــواميس بيـــنكم شـــرع فهـــي أنثـــى وآخـــر ذكـــر

ألكـــي تســـتحيل حامضـــةً فـــي زوايـــا البيـــوت تـــدخر؟

وأدوهـــا وحقهـــا غمطـــوا رب رحمـــاك أنهـــم كفـــروا

زعمـــوا أنهـــم بـــذا ربحـــوا لا وعينيـــك أنهـــم خســـروا

أهملوهـــا وأي مدرســـة أهملوهـــا لـــو أنهـــم شـــعروا

مشـــعر الطفـــل مـــن مشـــاعرهم ولإحساسهـــم بـــه أثـــر [3]

---

(1) ينظر – المعارك الأدبية حول الدعوة إلى تحرير المرأة: ص3-10.

(2) المصدر نفسه: ص45. وينظر- تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي في القرنين التاسع عشر والعشرين: د. داود سلوم، مطبعة المعارف، بغداد، 1959: ص27.

(3) نشرها الأستاذ الهلالي ضمن شعر (محمد باقر الشبيبي) سهراً في كتابه " الشاعر الثائر" وهي للشاعر (صالح الجعفري) منشورة في ديوانه المطبوع عام 1985 بجمع وتحقيق د. علي جواد الطاهر وثائر حسن جاسم: ص193، ويشار إلى أن الأستاذ الهلالي نفسه اعتذر عن هذا السهر الذي وقع فيه فأشار إلى ذلك في كتاب له صدر بعده بعنوان (دراسات وتراجم عراقية): ص63.

فكما نرى في ثنايا تلك المقطوعة، يقول الشاعر أن النواميس الطبيعية تساوي بين الرجال والنساء فهم شركاء في بناء المجتمع فهذا ذكر وتلك أنثى وهذا رجلٌ وتلك امرأة، وعلى عاتق الجميع تلقى مسؤولية تقدم الأسرة والمجتمع، فإن الله سبحانه وتعالى خلق المجتمع من رجال ونساء وعلى كل فرد منهم واجبات معينة يؤدي القيام بها إلى ازدهار ذلك المجتمع.

وهذا الشاعر (مرتضى فرج الله) يدعو بنات اليوم اللواتي هنَّ أمهات الغد أن يتهيأن كل التهيؤ لذلك الغد الباسم المشرق وأن يصلحن من غراسهن لكي يعطي أطيب الثمر، وذلك لأن كيان الشعب لا يمكن أن يرقى إلى المستوى اللائق به إلا بكمال الأمهات فقال:

يـــا ابنـــة اليـــوم اســـتعدي بمهمـــــات الغـــــداة
اصـــلحي نفســـك غرسكـــ كـــي تطيـــب الثمـــرات
فكيـــان الشـــعب يســـمو بكمـــال الأمهـــات[1]

ولعل الشاعر (الزهاوي) أكثر الشعراء تعبيراً عن طمس معالم حقوق المرأة الاجتماعية، فتحدث عن سجن المرأة في البيت الذي يؤدي إلى شلل نصف المجتمع لأن المرأة هي التي تمثل ذلك النصف بالتمام والكمال، فقال في قصيدته التي عنوانها " هزأوا بهن ":

هـــزأوا بالبنـــات والأمهـــات وأهـــانوا الأزواج والأخـــوات
هكـذا المسـلمون فـي كـل صـقع حجبـــوا للجهالـــة المســـلمات
ســـجنوهن فـــي البيـــوت فشـــلوا نصـــف شـــعب يهـــم بالحركـــات
منعـــوهن أن يـــرين ضـــياء فتعـــودن عيشـــة الظلمـــات
دفنـــوهن قبـــل مـــوت مـــريح فـــي قبـــور ســـودٍ مـــن الحجـــرات
وفـــي بيـــوت لزمنهـــا كقبـــور أظلمـــت كـــم سـكبن مـن عبـرات[2]

وقال (الزهاوي) في قصيدة أخرى، يعبر فيها عن ظلم النساء الفظيع وغصب حقوقهن محذراً من الشعب الذي تغمط كل حقوق أبنائه من رجال ونساء، وعنوان تلك القصيدة " يا ابنة يعرب ":

غصـــبوا النســـاء حقـــوقهن فـــلا تصـــان ولا تـــؤدى

(1) مجلة المرأة الحديثة: حمدية الأعرجي، ع2، السنة الأولى، 1936: ص10.
(2) ديوان الزهاوي (ط1972): ص319.

القـــوم يـــا ابنـــة يعـــرب مـــــن جهلهـــــم وأدوك وأدا

ظلمـــوك ظلمـــاً مـــا رأيـــت لـــــه لعمـــــر الحـــق حـــدا

لا تمســـــــكي بـــــــالقوم أن القـــــوم لا يرعـــــون عهـــــدا

حجبـــوك عـــن أبنـــاء نـــو عـــك حاســـبين الغـــي رشـــدا

ســـجنوك فـــي بيـــت اريـــد بضـــــيقه ليكـــــون لحـــــدا

لـــــم يعـــــدلوا إذ غـــــادرو ك صـــدي بكهـــن الـــدار فيـــدا

ونسوا حقوقاً لا يكون بدونهن العيش رغدا

الام لـــــو رقيـــــت لربـــــت عـــن هـــدى للشـــعب ولـــدا

وإذا النســـــاء رديـــــن فـــــي شـــعب فـــإن الشعـــب يـــردى[1]

* * *

فـي نهايـة القـرن التاسـع عشـر وبدايـة القـرن العشـرين غمطـت حقـوق المـرأة الاجتماعية سواء كان ذلك في إطار البيت أم في إطار المجتمع، ومن ابسط تلك الحقوق المشروعة هو احترام رأيها فيما يتعلق بشؤونها الخاصة أو العامة وأهمية تعليمها.

لذا حاول الشعراء تصوير حالة المرأة في تلك الفترة فاندفعوا بكل حرص إلى الدفاع عن حقوقها المهضومة. كل ذلك لتأخذ دورها اللائق بها والذي يتناسب مع طبيعتها زوجة صالحة وأماً حنوناً تمثل نصف المجتمع الذي لا يتم صلاحه وتقدمه إلا بصلاحها وتقدمها.

الزواج:

الـزواج هـو سـنة الله الطبيعيـة لتكـوين المجتمعـات البشـرية ونموهـا نمـواً سـوياً، متكاملاً، ولقد (اقتضيت إرادة الله سبحانه أن يكون مبدأ هذا الخلق مكون من ذكر وأنثى، فما لم يتم التلاقح بين هذين العنصرين لا يتحقق النسل ولا يتم التكثير بين المخلوقات البشرية وغيرها من كافة الفصائل الحيوانية، لذلك بحث الرجل عن المرأة ليجد فيها ما يحقق له الشيء الذي يبتغيه من شريك في حياته، وتبعته المرأة لأنها مخلوقة له فهي نصفه المنشود وكان من ثمر هذا اللقاء " البنون " الذين هم زينة هذي الحياة الدنيا) [2].

---

(1) ديوانه: ص325- 326.

(2) الطلاق أبغض الحلال إلى الله: عز الدين بحر العلوم، طبع بغداد، 1988: ص32.

لذلك فإن المرأة (هي الدنيا والمرأة سكن الرجل ومصدر إلهامه، والمرأة بعد كل هذا وذاك ريحانة يجد الرجل فيها ما يجده في الزهرة العطرة) [1].

ولأهمية وقدسية الارتباط بين الرجل والمرأة نرى جل الاهتمام منصباً عليه بوصفه (سُنةً ثابتة دقيقة لا تسير على نحو من الاعتباط والعبث ولا تسير على مقتضى نواميس لا تقبل التغيير) [2].

هذا الارتباط الذي دعا إليه الدين الحنيف وحث عليه القرآن الكريم بقوله تعالى: " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة" [3]؛ والسنة النبوية تحث المسلمين على التزاوج، فقد قال محمد (صلى الله عليه وسلم): " تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة" [4]؛ فقد بارك الإسلام للزوجين بناء بيتهما السعيد وورد في الأثر: " ما بني بناء في الإسلام أحب إلى الله عز وجل من التزويج" [5]؛ [5]؛ لأن هذا الارتباط المقدس، الأساس الرصين الذي يقوم عليه كيان الأسرة، (فحضن الأسرة هو البيت هو المدرسة التي يتلقى فيها الجيل الصاعد تعاليمه وفيها يتهيأ للأفراد أن يكونوا أعضاء صالحين ينتفع بهم المجتمع أو فاسدين ينخرون في كيانه. وإذا كان البيت هو المدرسة الأولى فإن الزوجين هما نواة الهيئة التعليمية في تلك المدرسة الحياتية الكبرى) [6].

ويجدر بنا أن نوضح أن الزواج لا ينعقد بصورته الحقيقية وبشكله المثالي بورقة العقد الرسمية، وإنما يتحقق له الانعقاد الأمثل بتوفر الانسجام الوئام لكي يتم بناء أسرة سوية وسعيدة وبيت يبتني كيانه على الوئام والتفاهم، الذي يؤدي بهم إلى الهناء والعيش الرغيد، وقد جسد لنا تلك المعاني الشاعر (محمد صالح بحر العلوم) حين قال:

ليس الزواج سوى عقد يقوم به ... كلا الفريقين إيجاباً وتصديقاً

ولا يصح انعقاد دون معرفة ... تثبت العقد أحكاماً وتوثيقاً

العرس بالجبر والإكراه فاحشة ... يقرها (العرف) إعجاباً وتضييقاً [7]

وكان من أهم ما جاء به الدين الحنيف أنه (أعطى المرأة الحرية في اختيار الزوج وليس لأحد أن يغصبها عليه، حتى ولو كان احد أبويها، كما جعل لها حق فسخ عقد الزواج إذا اتضح فيما بعد أنها أكرهت عليه، وخدعت فيه.

---

(1) المصدر نفسه: ص40.
(2) المصدر نفسه: ص33؛ ينظر في ذلك – المرأة في الشعر العراقي الحديث: عربية توفيق للازم، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1983 (رسالة دكتوراه): ص 132.
(3) سورة الروم: 21.
(4) سنن البيهقي: 78/7.
(5) المصدر نفسه: 78/7.
(6) الطلاق أبغض الحلال إلى الله: ص45.
(7) ديوان محمد صالح بحر العلوم، (ط1965): 59/2.

ولقد فسخ الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) زواج خنساء بنت حذام الانصارية لان أباها أكرهها على ذلك) [1]، ومن ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم): "أمروا "أمروا النساء في أنفسهنَّ، فإن الثيب تعرب عن نفسها وأذن البكر صمتها" [2].

ومع الأسف البالغ فقد سلبت كثير من المجتمعات المرأة، ما منحها الإسلام من حقوقها، فلم يعد يكترث الأهل برأيها ولا يهمهم رفضها أو موافقتها، مع إنها الوحيدة التي ستقع عليها كل العواقب المؤلمة والنتائج السيئة التي قد يجرها هذا الإكراه؛ ولقد صور ذلك الشاعر (محمد مهدي البصير) في أبيات بعنوان "زواج وطلاق" قائلاً:

إن تختطف ليلى لفرط جمالها فلتبدلن وصالها بفراق

أو زوجت قسراً بغير حبيبها فلسوف تسعى جهدها لطلاق[3]

بل وأكثر من ذلك، صارت الفتاة المسكينة عند بعض الأسر والمجتمعات كالسلعة الرخيصة يبيعها أهلها، فهم يتحكمون في أمرها فإذا زوجوها بمن يشاءون يتحكم بها الزوج الذي يطلقها متى دفعته نزواته إلى ذلك، لذلك تفجرت قريحة الشاعر (الرصافي) بوصف هذا الواقع المر بقوله:

فوليها عند الزواج يبيعها وحليلها عند الطلاق يضيعها

وكلاهما متحكم في أمرها هذا يعريها وذاك يجيعها[4]

إذن فإن تزويج المرأة بالإكراه من إنسان لم يتحقق فيه شيء من أحلامها وأمانيها بل تختلف كل طبائعها مع طبائعه كلها، مما سيهدد حياتهما بالخطر، بل ويؤدي بهما إلى الانهيار وهدم كيان الأسرة التي بنيت على هذا الأساس الخاطئ. والشاعر (الزهاوي) التقط صورة مؤلمة لواقع حياة فتاة تزوجت من فتى لم تره ولم يرها، ولم يعرف هذا الزوج حقوق وواجبات الزوجية التي لم يرع حرمتها، فقال:

ليلى بكت مما قد شجاها حتى تقرح مقلتاها

وبكت سعادتها وأحلا م الصبا وبكت مناها

قد طال عهد شقائها فبكت فلم ينفع بكاها

---

(1) الإسلام وتنظيم الأسرة: ص93.

(2) البخاري: 2556/6، وينظر – كتاب المصنف: لعبد الرزاق، القسم الثاني: 142/6.

(3) محمد مهدي البصير – المجموعة الشعرية الكاملة، دار الحرية، بغداد، 1977، ص66 ؛ وينظر تعليق د. عربية توفيق اللازم في هذا الصدد ضمن رسالتها (المرأة في الشعر العراقي الحديث): ص136.

(4) ديوان الرصافي بشرح وتعليق مصطفى علي، بغداد، 1972: 449/5 قصيدة بعنوان " هوان المرأة المرأة عندنا ".

إذ زوجوهـــــا مـــــن فتـــــى ... مـــــا أن رأتـــــه ولا رآهـــــا

زفـــــت إليـــــه فلـــــم تجـــــد ... شـــــيئاً جمـــــيلاً فـــــي فتاهـــــا

مضـــــت الشـــــهور فلـــــم يـــــرد ... فـــــي أمـــــره إلا ســـــفاها

مـــــا شـــــاهدت مـــــن خلـــــة ... فيـــــه موافقـــــة هواهـــــا

ســـــمج لئـــــيم الـــــنفس لـــــم ... تـــــك وصـــــمة إلا أتاهـــــا

إن الـــــزواج لـــــه حقـــــو ... ق واجبـــــات مـــــا رعاهـــــا

مـــــاذا تفيـــــد الواجبـــــا ... ت أخـــــا غـــــرورٍ قـــــد عصـــــاه

فكأنمـــــا هـــــي ســـــلعة ... لقضـــــاء حاجتـــــه اشتراهـــــا[1]

إذن فالزواج حسب رغبة الأهل واختيارهم وحدهم بدون أخذ رأي الزوجة نفسها لا يؤدي إلى الانسجام أو التفاهم بين الزوجين، وبذلك يخلط القدر نهايتها من قبل البدء بالحياة الزوجية؛ ويشير إلى ذلك ما تفجرت به قريحة الشاعر (صالح الجعفري) في وصف رائع عن مثل هذا النوع من الزواج الذي ينتهي إلى الفشل الذريع لأنه زواج من دون دراسة ومن دون فحص وتمحيص، لذلك أبدع الشاعر في تسميته بـ " زواج العميان " فقال:

قبلـــت بهـــا علـــى ترشـــيح أهلـــي ... ولـــم تـــك ذات رأي فـــي قبـــولي

حييـــت فلـــم افـــه عنهـــا بقـــال ... ولـــم ترمـــز إلـــيّ ولا بقيـــل

جهلنـــا بعضـــنا لفظـــاً ومعنـــى ... وهـل نقـوى علـى خـرق الأصـول !

فلـــم نبـــدأ ولكنـــا انتهينـــا ... وكـــان فرقانـــا قبـــل الدخـــول[2]

لذلك (حث الإسلام كلاً من الرجل والمرأة أن يتريث قبل الإقدام على الزواج لئلا يكون ذلك الإقدام ناتجاً عن لقاء عفوي أو مجازفة لا تعتمد على الأسس الكفيلة لإبقاء هذا الصرح تظلله السعادة والهناء في جميع مراحل الحياة الزوجية) [3].

ويكون الواقع أكثر إيلاماً والخطب أشد فداحةً عندما يتسرع أهلها أو تتسرع هي نفسها باختيار شريك حياتها ويتضح لهم ولها فيما بعد أنه لا يحمل أي صفة من الصفات

---

(1) ديوان الزهاوي: ص327، قصيدة بعنوان " ليلى بكت ".
(2) ديوان الجعفري: ص421.
(3) الطلاق أبغض الحلال إلى الله: ص47.

التي يجب أن يبنى اختيارها على أساسه؛ وبعد فوات الأوان ينكشف الأمر على حقيقته البشعة وواقعة المر وفي ذلك يقول (الزهاوي):

ورب مخطوبة عذراء قد جهلت ... ما قد تقاسي غداً من قسوة الرجل

تزف في عنفوان من شبيبتها ... إلى فتى لشعار النبل منتحل

مهما به احتفلت بعد الزواج فما ... تلقى سوى ذي غرور غير محتفل[1]

أما حينما ترضخ المرأة لواقع التقاليد والأعراف الاجتماعية السائدة ولا تقوى على خرق الأصول المتبعة، فترضى بما قسمه الله لها من زوج ويتضح لها بعدئذٍ أن هذا الزوج ((متعسف)) معها في كل تصرفاته وسلوكه، أي كلما ازدادت زوجته منه قرباً زاد عنها بعداً، وهذا مما يؤلم حقاً أشد الألم ويثير مشاعر الشفقة على تلك الزوجة التي حكم على زواجها بالفشل لكونهما غير متكافئتين، رغم كل جهودها المبذولة لانجاحه، وعن ذلك عبر الشاعر (الزهاوي) بقوله في قصيدة "يا ابنة يعرب":

ويل لغانية لها ... بعل من الجهل استبدا

قبلت به زوجاً ولم ... تر من قبول الزوج بدا

جمّ الكراهة كلما ... زادت دنواً زاد بعدا

ابدى غراماً ثم غير ... مالها من قبل ابدى

جعلت ترى في عينه ... برقاً وتسمع منه رعدا[2]

إن ائتلاف القلوب بين الزوجين سبب رئيس في نجاح الزواج وعامل مهم في استمرار الحياة الزوجية بكل انسجام، لأن (جو البيت لا يكفيه إلا الزوجان بحسن معاشرتهما واحترام كل منهما للآخر، وإظهار المودة من أحدهما لصاحبه لكي يتلقى ويتلقن ذلك كل من يعيش معهم من أفراد تلك الأسرة تحت ظلال ذلك البيت) [3]؛ لكن، عدم تقدير الأهل لهذه المسألة وعدم أخذها بالحسبان وذلك بإكراه ابنتهم على الزواج من أحد أقاربها مع أنها تحب شاباً آخر ينسجم معها وتنسجم معه كل الانسجام، مما يخلق فجوة عميقة جداً بين الزوجين – المكرهين- سرعان ما ينهدم بسببها عش الزوجية الذي هو بذرة الأسرة المثالية.. ومن أين تتحقق السعادة لأسرة تقترب فيها الأجسام وتبتعد القلوب، عن بعضها بعداً سحيقاً وهذا ما رسمته ريشة الشاعر (محمود الحبوبي) في رباعيته عنوانها " زواج بالإكراه ":

---

(1) ديوان الزهاوي: (طبعة دار العودة – بيروت): ص318 من قصيدة " رب مخطوبة ".
(2) ديوان الزهاوي: ص325.
(3) الطلاق أبغض الحلال إلى الله: ص60.

أحبـــت وهـــي يافعـــة غلامـــاً بعيـــداً عـــن قبيلتهـــا غريبـــاً

وكـــان يحبهـــا هـــذا ويخشـــى ذويهـــا أن يكـــون لهـــا خطيبـــاً

وزفـــت لابـــن عمتهـــا عروســـاً علـــى كـــره فحالفـــت الكروبـــا

وهـل سـعد الـورى ائتلفـوا جسـوماً إذا اختلفـــوا بعيشـــهم قلوبـــا[1]

والأمر أفظع وأشد مرارة أن أجبرت على الزواج من شيخ كبير السن – وقلبها مشغوف بآخر- فسيكون زواجها وموتها سيان، ويجسد لنا هذه الحال الشاعر (جميل صدقي الزهاوي) في حادثة فتاة أكرهت على الزواج من شيخ كبير السن وهي مشغوفة بشاب اسمه (نعيم)، فيالمرارة ما كانت تقاسيه المسكينة ويالهوان حياتها عندها، حيث انتهت حياتها نهاية موجعة حين تجرعت السم الذي أدى بها إلى الموت، ويقول:

وقـد زوجوهـا وهـي غيـر مريـدة بشـيخ كبيـر جـاء بالمـال يطمـع

وفـي الـدار ازواج لـه غيـر هـذه ثـلاث فـود الشـيخ لـوهن اربـع

ومـن بعـد أيـام تـزف لبيتـه فتعنـو لحكـم الشـيخ فيـه وتخضـع

هنـاك ستشـقى أو تمـوت كئيبـة على أن مـوت المـرء فـي الهـم أنفـع[2]

وماتت أسماء... وبكت أمها عليها وحمل نعشها إلى القبر:

فلمـا بـدا صـبح وشـاعت فجيعـة وصـاح بهـا النـاعون والنـاس اسـعوا

أتـت أمهـا تجثـو إلـى جانـب رأسـها وتلطـم حـر الوجـه الوجـه اسـفع

تقـول لهـا والعـين تهمـي وقلبهـا يكـاد بأظفـار الأسـى يتقطـع

اريحـانتي مـا بـال خـدك ذابـلاً وعهـدي بـه بـالأمس ريـان ينصـع

اريحـانتي أنـا قتلنـاك ليتنـي هلكـت ومـا أبصـرت غصـنك يهـزع

وعـضَّ أبوهـا للندامـة كفـة ومـا أن لـه هـذي الندامـة تنفـع

(1) ديوان – رباعيات الحبوبي، طبع النجف، 1951: ص17.

(2) ديوان جميل صدقي الزهاوي، مج1، دار العودة، بيروت، ط 1972: ص78، ضمن مجموعة (الحديث شجون) ؛ وينظر التيار الاجتماعي في الشعر العراقي الحديث بين الحربين العالميتين (1914-1945)، رسالة ماجستير: ابتسام عبد الستار محمد، القاهرة، كلية اللغة العربية، 1979: ص67.

وطافت بذاك النعش من كل جانب عيون رجال للرزية تهمع

مشى عاليا ما أوفر النعش إذ مشى وقد رفعته للمقابر أذرع[1]

وإن تجاهل روابط الحب والود بين الزوجين من قبل أهلهما معاً أمر خطير، فتزويج الفتاة بشيخ كبير من أجل المال والمال وحده بدون أي ارتباط عاطفي أو نفسي أو روحي سينتهي حتماً نهاية مأساوية تكون الفتاة المسكينة ضحيتها الأولى، فقد رسم لنا الشاعر (الرصافي) بريشته ذلك، بقوله:

ظلموك أيتها الفتاة بجهلهم إذ أكرهوك على الزواج بأشيبا

طمعوا بوفر المال منه فأخجلوا بفضول هاتيك المطامع (أشعبا)

إن الكريمة في الزواج لحرة والحر يأبى أن يعيش مذبذبا

قلب الفتاة أجل من أن يشترى بالمال لكن بالمحبة يجتبى

إتباع أفئدة النساء كأنها بعض المتاع وهن في عهد الصبا

هذا لعمر الله يأبى مثله من عاش ذا شرف وكان مهذبا

بيت الزواج إذا بنوه مجدداً بالمال لا بالحب عاد مخربا[2]

فزواج الشيوخ من الفتيات الصغيرات لقضاء وطر معها.. أي وطر، حتى لو كان قصيراً جداً ولا يهم مثل ذلك الزوج أبداً إلا قضاء ذلك الوطر، حتى لو لم يكن بينه وبين تلك الزوجة أي رابط مقدس يشد بين قلبيهما من روابط الحب النقي الصادق، مما دفع الشاعر (الزهاوي) إلى أن يقول في ذلك:

كم قد تزوج ذو الستين يافعة والشيب في رأسه كالنار يشتعل

يقضي لبانته منها إلى أجل وقد يكون قصيراً ذلك الأجل

ولا يبالي بحبل الود بعدئذ أكان متصلاً أم ليس يتصل[3]

والأبيات تعطينا من الدلالة الكافية أن المرأة لم يكن لها شأن يذكر في المجتمع، إذ أنها لا تملك حق التصرف في أبسط حقوقها كحق الزواج، وهذا الوضع المتردي للمرأة لم يكن إلا نتيجة طبيعية لوضع مجتمع متخلف جاهل بتعاليم الإسلام ومقتضيات حله لتعدد

---

(1) ديوان الزهاوي: ص81.
(2) ديوان الرصافي: 344/2 من قصيدة " حرية الزواج عندنا ".
(3) ديوان الزهاوي: ص493.

الزوجات ويعيش في ظلمات الجهل والعادات السقيمة، فلا بد أن تنعكس ظلال تلك الأوضاع على المرأة[1].

وفي أحيان أخرى يكون دخول الحياة الزوجية الجديدة بمثابة سجن للمرأة التي فقدت حريتها قبل وبعد الزواج وأكرهت عليه لتبقى قابعة في بيتها إلى يوم يبعثون، فقال فيها الشاعر (بسيم الذويب):

ظلمـــوك، ســـجنوك، زوجـــوك شـــــر زوج فـــــي الوجـــــود

قـــــائلاً زوجـــــي لا تخـــــرج إلا يـــــوم تدعوهـــــا اللحـــــود[2]

أما الشاعر (الزهاوي) فهو يصور لنا إنسانة تزوجت بالإكراه من جاهل يتعامل معها بضراوة الوحش، لأنه لا يعرف أي معنى من معاني النبل والإنسانية، فيقول في قصيدة " لا عن خيار ":

قـــد زوجـــت لا عـــن خيـــار مـــن جاهـــل كـــالوحش ضـــاري

فـــي العـــين دمـــع كالجمـــا ن وفـــي الفـــؤاد لهيـــب نـــار

تبكـــي وتنـــدب حظهـــا والـــــزوج لاه بالقمـــــار

غـــر مـــن الأغـــرار قـــا ســـي القلـــب مخلـــوع العـــذار[3]

وبعض حالات الزواج يحكم عليها بالفشل الذريع، لأن الزوج يتجاهل حقوق زوجته ويعاملها كمملوكة له، فإذا أبدت شيئاً ولو قليلاً من التذكر بادر بكل استخفاف وعدم مبالاة إلى طلاقها، فيالخشونته ويالرقتها، وما أفظع وأوجع أن تلتقي الصفات المتناقضة تحت سقف واحد، فيقول (الزهاوي) في هذا المعنى:

لقـــد أضـــاعت عنـــده مـــن الحيـــاة حقهـــا

فهـــل تزوجـــت بـــه أم ملكتـــه رقهـــا

يســـومها الخســـف فـــإن تـــذمرت طلقهـــا

ذلـــك مـــا أخشـــنه وتلـــك مـــا أرقهـــا[4]

* * *

(1) التيار الاجتماعي في الشعر العراقي الحديث: ص67.
(2) الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه – يوسف عز الدين: ص238.
(3) ديوان الزهاوي (طبع بيروت): ص324.
(4) ديوان الزهاوي: ص318.

يتضح لنا من ذلك أن المرأة قد سلبت في كثير من المجتمعات ما منحها الإسلام من حقوق، فلم تعد تملك حق التصرف في أبسط حقوقها كحق اختيار شريك حياتها، فليس لأحد أن يغصبها عليه ولو كان أحد أبويها، ولكن ما يحدث هو العكس فقد برزت – في تلك الفترة – ظاهرة الزواج بالإكراه أو زواج الشيوخ بالفتيات. فلم يعد لها شأن يذكر في المجتمع وذلك طبعاً انعكاس لواقع متخلف جاهل بتعاليم الإسلام ويعيش ضحية للجاهل وللعادات السقيمة.

وكان من اختصاصات هذا البحث أن يوضح ماهية الزواج وأهميته، فهو الذي يهيئ الرجل والمرأة إلى أن يكونا أباً وأماً صالحين، لأنه بناء لأسرة جديدة، فإن بني خطأ أو كانت أسسه ضعيفة انهار بسرعة وإذا ما توفرت له أسباب النجاح نما وتكامل وقويت دعائمه.

وبذلك نكون قد سلطنا الضوء على جانب مهم من واقع حياة الأمومة التي تؤثر بدورها بشكل واضح على البنوة.

الطلاق[1]:

الطلاق بلا شك من أعقد المشاكل الاجتماعية التي تؤدي إلى تفكك الأسرة وهدمها، وتترتب عليه آثار سيئة، بالغة الخطورة، لذلك جاء في الحديث النبوي الشريف " أبغض الحلال إلى الله الطلاق "[2] وقال الرسول (صلى الله عليه وسلم): " تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش "[3] وورد في الأثر: " وما من شيء أبغض إلى الله عز وجل من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة – يعني الطلاق – " [4].

وإنما أباحت الشريعة الطلاق على ضوء هذه الأحاديث الشريفة عند الضرورة القصوى حينما تتعذر الحياة السوية بين الزوجين ويكون الوئام بينهما مستحيلاً، أما لتنافر الطباع بينهما بحيث يستحيل التقاء بعضهما ببعض، وأما بسبب التناقض الأخلاقي الذي لا يسمح لهما بالعيش تحت سقف واحد، ونحو ذلك من الأسباب الجوهرية المهمة التي يتحتم معها فصم عرى الزوجية؛ والانفصال والفراق الذي اصطلحت عليه الشريعة اسم (الطلاق)[5] وهو وأن أحلته الشريعة في نطاق ضيق ومحدود جداً ودعت إلى بذل كل الجهود الممكنة من الزوجة والزوج معاً لتحاشية وتلافيه بل دعت أهلهما وأقاربهما ومن

---

(1) الطلاق لغةً: يعرف اللغويون الطلاق بأنه الترك والإرسال والتخلية، فيقال: طلقت القوم إذا تركتم. وإذا قلت: ناقةٌ طالق أي أنها مرسلة. وفي المصطلح الفقهي: عرفوا الطلاق بأنه – إزالة قيد النكاح بصيغة طالق، وقال بعضهم بأنه صفة حكمية ترفع حلية مدحة الزوج بزوجته. – نقلاً عن كتاب: مواهب الجليل: 18/4 من كتاب: الطلاق أبغض الحلال إلى الله ؛ وينظر الزواج والطلاق في الاسم: زكي الدين شعبان، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964: ص81.

(2) سنن أبي داود: رقم الحديث (1863) كتاب الطلاق، وسنن ابن ماجه: 373/1 رقم الحديث (2028) باب الطلاق.

(3) سنن ابن ماجه رقم الحديث (2018).

(4) الوسائل: 267/15.

(5) (لم يكن – الطلاق – من التشريعات التي اختص بها الإسلام بل عرف التاريخ مسيرة الطلاق منذ آلاف السنين عبر التشريعات السماوية والوضعية التي سبقت رسالة الإسلام). ينظر – الطلاق أبغض الحلال إلى الله: ص27 ؛ وينظر للتوسع – المجتمع الإنساني في ظل الإسلام: محمد أبو زهرة، بيروت، ط2، 1970، ص78.

يتعلق بهما لأن يحلوا كل المشاكل التي وقفت عقبات كأداء في استمرار الحياة الزوجية بالحسنى[1]، - كل ذلك صيانةً لحقوق الزوجة ورعايةً لمصلحة الأبناء لئلا يحصل خلل وارتباك في تربيتهم يؤدي إلى تشردهم – أما إذا باءت كل جهود الجميع بالفشل الذريع وأصبحت الهوة التي بين الزوجين يتعذر ردمها، فعند ذلك يصبح الطلاق مباحاً ومحللاً في الشريعة الإسلامية بل وربما يكون (دواء لا بد من تجرعه ولو كان مراً شرعه الله لإنهاء الخلاف بين الزوجين) [2]؛ ولكنه وكما أشرنا إليه في الحديث الشريف يبقى ذلك الشيء المباح والمحلل هو ابغض الحلال عند الله، لما يؤدي إليه من تشتت الأسرة وضياعها، وبالتالي يكون ذلك التشتت والضياع مدعاة لتخلخل النظام الاجتماعي بأسره لما يخلقه من مشاكل عويصة ومعقدة لا عد لها ولا حصر، تعود على المجتمع بأسره بأوخم العواقب وأسوأ النتائج وأوجع العلل التي يصعب، وربما يتعذر شفاؤها.

ولقد استغل كثير من الجهلة تلك الإباحة وذلك التحليل الذي سمح به الشارع المقدس عند الضرورات والعقبات التي تعجز كل الوساطات عن حلها وتذليلها، فجعلوا من ذلك التحليل أداة من أدوات اللهو بمقدرات الزوجة التي هي شريكة حياتهم فيقدم على الزواج برضاه ورغبته التامتين ولكنه سرعان ما يسترد ذلك الرضا ويسحق تلك الغربة فيلفظ الزوجة من حياته كما يلفظ الآكل النواة من فمه ويالفظاعة وسوء ذلك التصرف المهين المشين، وكل ذلك بدوافع من الجهل واللامبالاة؛ ولبعدهم عن وحي السماء وحكمة الأنبياء، فيتحول سكن الود والرحمة إلى نكد الخصام والنقمة.

لذا فقد (وقف الإسلام في وجه الرجل ليحد من تعسفه وليخفف من قسوته وليأخذ للمرأة حقها، وليجعلها في مكانها اللائق بها كشريكة حياة وربة بيت لا يستغني الرجل عنها في جميع المراحل فلا فضل للرجل من حيث هو رجل على المرأة ولا فضل للمرأة من حيث كونها امرأة على الرجل إلا في بعض الأحكام الخاصة والحقوق الشرعية والتي تنبع من طبيعة الرجل وما يتميز به من قوة وصلابة وطبيعة المرأة وما تتحلى به من ليونه وعطف وإلا فهما شيء واحد.. غرس لنبته واحدة، وثمرة لشجرة واحدة) [3]..

ولقد صور ذلك، الشاعر (الزهاوي) بقصيدة يقول فيها:

الـــزوج كـــان هـــو الـــذي يـــولي الرضـــا ثـــم اســـتردا

وعلـــى جمـــوع حقوقهـــا مـــن بعـــد لذتـــه تعـــدى

يـــأتي الطـــلاق لغيـــر ذنـــب ثـــم يحســـب ذاك رشـــدا

(1) كما قاله الله سبحانه وتعالى: " وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكماً من أهلها أن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما "... سورة النساء: 35.

(2) الطلاق أبغض الحلال إلى الله: ص85 ؛ وينظر الزواج والطلاق في الإسلام: ص83.

(3) المصدر نفسه: ص18.

لا شـــــيء يمنـــــع جـــــاهلاً ذا غلظـــــــــة أن يســـــــــتبدا[1]

ومن الاستخفاف المشين بحقوق الزوجة المقدسة أن يجلس الرجل مع أصحابه أثناء مزاحه، أو خلال تعامله حتى بأتفه القضايا مع الناس وحين يختلف معهم يقسم لهم بطلاق زوجته ثلاثاً لا رجعة فيها، بدافع من حماقته ورعونته وجهله، والمسكينة في بيته لا علم لها بكل ذلك أو ربما تكون في تلك اللحظات التي أقدم فيها على تلك الفعلة الشنيعة في بيته تهيء له طعام غدائه أو تقوم بغسيل ملابسه أو ترضع طفله البريء...

وأخيراً يتم تبليغها بذلك، فترتجف رعباً من هدم حياتها الزوجية وتتحدر دموعها الغزار على خديها لأن كل ذلك حصل لها بدون أي ذنب ارتكبته أو جريمة اقترفتها، فتعاتبه بمرارة وتصرخ في وجهه بحرارة، فيطأطيء رأسه خجلاً منها وندماً على ما تسرع واقترفه في حقها، ولكن هيهات يجديه الندم أو ينفعه الاعتذار منها.. ثم يصحو ضميره بعد ذلك الطيش والتسرع فيؤكد لها أنه باقٍ على حبها والوفاء لذلك الحب حين لا ينفعها ذلك البقاء ولا الوفاء بعد فوات الأوان..

ولقد صور لنا الشاعر (الرصافي) نموذجاً من تلك النماذج الكثيرة التي تزخر بها المجتمعات التي يعشعش فيها الجهل ويتغلغل فيها الطيش في قصيدة ترسم حياة إحدى تلك المطلقات بتلك الطريقة الرعناء فيقول من قصيدة عنوانها " المطلقة " جاء فيها قوله:

توثـــق حبـــل ودعمـــا حضـــورا ولـــم يمكـــث توثقهـــا المغيـــب

فغاضـــب زوجهـــا الخلطـــاء يومـــا بـــأمر للخـــلاف بـــه نشـــوب

فأقســـم بـــالطلاق لهـــم يمينـــاً وتلـــك آليـــة خطـــأ وحـــوب

وطلقهـــا علـــى جهـــل ثلاثـــاً كـــذلك يجهـــل الرجـــل الغضـــوب

فبانـــت عنـــه لـــم تـــأت الـــدنايا ولـــم يعلـــق بهـــا الـــذام المعيـــب

فظلـــت وهـــي باكيـــة تنـــادي بصـــوت منـــه ترتجـــف القلـــوب

لمـــا يـــا "نجيـــب صـــرمت حبلـــي وهـــل أذنبـــت عنـــدك يـــا نجيـــب ؟

ومـــا لـــك قـــد جفـــوت جفـــاء قـــال وصـــرمت إذا دعوتـــك لا تجيـــب

أيـــن ذنبـــي الـــي فـــدتك نفســـي فـــإني عنـــه بعدئـــذ أتـــوب

أمـــا عاهـــدتني بـــالله أن لا يفـــرق بيـــننا الا شعـــوب ! [1]

(1) ديوان الزهاوي (ط1924): ص314 ؛ وينظر حركة التطور والتحديد في الشعر العراقي الحديث: ص188.

فـاطرق رأسـه خجـلاً واغضـى وقـال ودمـع عينيـه سـكوب

(نجيبـة) أقصـري عنـي فـإني كفـاني مـن لظـى النـدم اللهيـب

ومـا والله هجـرك باختيـاري ولكـن هكـذا جـرت الخطـوب

فلـيس يـزول حبـك مـن فـؤادي ولـيس العـيش دونـك لـي يطيـب

ألا قـل فـي الطـلاق لموقعيـه بمـا فـي الشـرع لـيس لـه وجـوب

غلـوتم فـي ديـانتكم غلـواً يضـيق ببعضـه الشـرع الرحيـب

أراد الله تيسـيراً وانـتم مـن التعسـير عندكـم ضـروب[2]

وذلك رجل آخر يمثل نموذجاً آخر من نماذج الرعونة والحماقة فبينما زوجته التي كانت تقوم معه بكل واجبات الزوجية وحقوقها خلال زيارتها لأمها وباستئذان منه بالطبع، وبينما هي تشكو لأمها طيش زوجها واستهتاره رغم سلوكها معه على أحسن ما يرام، وإذا بالباب يطرق وينفتح لها عن أسوأ مفاجأة وأعظم صدمه، حيث يبعث لها – بكل تسرع وطيش – وثيقة طلاقها التي تؤذن بهدم حياتها الزوجية دونما سبب ومبرر فتلوذ بأمها وتخونها كل الكلمات حين ترى أن سراج حياتها ينطفئ فجأة لتحيا في ظلام دامس، فراحت تتمنى الموت لأنها ترى فيه نجاه من العذاب الذي تعيشه وتحياه، فيرسم تلك اللوحة الشجية الحزينة الشاعر (الزهاوي) بقصيدته الثانية فيقول:

سـلمى جثـت يومـاً بجانـب أمهـا تبكـي كمـا يبكـي الحـزين المفجـع

تشـكو تبـاريح الفـراق لهـا كمـا قـد كنـت فـي صـدر القصـيد تسـمع

والام جالسـة تسـليها إذا بالبـاب مـن دون انتظـار يقـرع

سـلمى تسـلمت الكتـاب وقلبهـا فرقـا يكـاد بصـدرها يتقلـع

فضـته تاليـة لـه حتـى إذا فرغـت مـن المتلـو صـاحب تجـزع

يـا أمِّ طلقنـي فمـاذا حيلتـي يـا أم سـرحني فمـاذا أصـنع

---

(1) شعوب: الموت.

(2) ديوان الرصافي، شرح وتعليق مصطفى علي، بغداد، ط 1986: 136/2 ؛ وتعلق د. عربية في رسالتها حركة التطور والتجديد في الشعر العراقي الحديث ص189: إن هذا النقد – في نهاية القصيدة – لبعض رجال الدين جرأه غير عادية يمثل انتفاضة ذهنية ووجدانية محددة.

يـــا أم فـــي نفســـي عـــذاب مـــؤلم يـــا أم فـــي قلبـــي اضـــطراب موجـــع

وأحـس أن سـراج روحـي ينطفـي والقلـــب منـــي بالأســـى يتصـــدع

لهفـي علـى الأيـام كيـف تبـدلت والعـيش كيـف مضـى فمـا أن يرجـع

يـا مـوت انـك انـت انـت الملتجـى واليـك مـن هـول الحيـاة المفـزع

يـاموت يـا كـل النجـاة يقـول لـي قلبـي فضـاؤك مـن فضـائي أوسـع[1]

وعلى كثرة قصص الطلاق المؤلمة التي تمزق النفوس وتوجع القلوب فإننا لا نستطيع أن نثقل بحثنا هذا بنماذج كثيرة منها، بل نحتم هذا الموضوع بقصة مطلقة كانت تعقد كل أمالها في السعادة والاستقرار على حياتها الزوجية التي كانت وفية لها كل الوفاء، ولكن زوجها لم يرع لكل ذلك الوفاء حقاً حين خانها وطلقها بعد أن زرع في أحشائها جنيناً أصبحت تعقد كل أمالها عليه لعله يعوضها عن السعادة التي حطمها ذلك الزوج الذي يستخف بكل القيم ومبادئ الأخلاق..

وتلك القصة الحزينة رسمها بريشته البارعة الشاعر (أكرم فاضل) [2] حين فاضت فاضت قريحته بقصيدة يعبر بها عن لسان تلك الأم وهي تخاطب ولدها الذي ترجو أن يحقق لها كل ما ضاع منها من أمال وأمان، فقال:

يـا ابـن مـن خـانني جـزاء وفـائي عنـــدما كنـــت ســـاكناً أحشـــائي

بـــرأت عـــذره حمـــاة القضـــاة لا تـــدع جرمـــه بغيـــر جـــزاء!

يـا ابـن بلـواي عـش لامـك يهنـأ قلبهـــا بعـــد ذلـــة وشـــقاء

وترعـرع فـي حضـنها زهـرة غـر اء شـــبت فـــي دمنـــة خضـــراء

انـــت ربيـــت يـــا اعـــز رجـــاء بـــين دمـــع وحســـرة وعنـــاء

كـم غفـت عينـه وأمـك ترعـا ك بعـــين عديمـــة الاغفـــاء

تتلـــوى خوفـــاً عليـــك وتـــدعو ربهـــا أن يقيـــك شـــر الـــداء

---

(1) ديوان الزهاوي، د. محمد يوسف نجم، ط1، 1955، دار مصر للطباعة، مكتبة مصر: 123/1. من قصيدة " سلمى المطلقة ".

(2) أكرم فاضل – ولد في الموصل عام 1918 تخرج من كلية الحقوق العراقية ونال الدكتوراه في العلوم العلوم السياسية من فرنسا عام 1955، أشغل عدة وظائف في الدولة منها مدير الفنون الشعبية في وزارة الإعلام العراقية ورئيس تحرير مجلة بغداد التي تصدرها وزارة الإعلام باللغتين الفرنسية والإنكليزية. ينظر – معجم المؤلفين العراقيين، ص139 وينظر – إعلام العراق الحديث: 138/1.

فترفــق إذا كبــرت بهــا وانــع م بتحنانهـــا الفريـــد الصـــفاء
كلمــا أبصــرت بوجهــك ظــلا اصـــفر اللـــون أجهشـــت بالبكـــاء
ويراهــا الــراؤون تصــمت لا يــد رون مـــا داؤهـــا الغريـــب الـــداء
واســني فلــذتي وضــمد جراحــاً أحـــدثتها الأيـــام فـــي كبريـــائي
يــا شــعاعاً يلــوح فــي ظلمــة اليــأ س وقــد جــاء كوكبــاً فــي ســمائي[1]

ومن خلال هذا العرض نؤكد حقيقة واحدة وواضحة هي أن الطلاق أبغض الحلال عند الله، فهو من أعقد المشاكل الاجتماعية التي تؤدي إلى تشتت الأسرة وهدمها وضياعها ومن ثم يكون ذلك مدعاة لتخلخل النظام الاجتماعي بأكمله.

نعم أباحته الشريعة الإسلامية لكنه بقى محدداً في نطاق ضيق وذلك عندما تصبح الحياة بين الزوجين متعذرة لذا دعت الزوج والزوجة إلى تحاشيه وتلافيه وذلك صيانة لحقوق الزوجة ورعاية لمصلحة الأبناء فلا يحصل ارتباك في تربيتهم ربما يؤدي إلى تشردهم.

وعرضنا لمشكلة الطلاق في بحثنا هذا متأت من الآثار السيئة التي يجرها إلى الأم والأبناء لأنه هدم لعالم الأسرة بأسره.

ترمل المرأة وأثره في حياتها:

إن الرجل بحكم موقعه الاجتماعي وظروفه العامة التي جعلت منه رباً للأسرة وراعياً لها ومسؤولاً عنها إذا أصيب بفقد زوجته تكون وطأة المصيبة والفجيعة أقل عليه بكثير من وقع مصاب المرأة حين تفقد زوجها؛ لأن المرأة حين تصبح أرملة فهي بالإضافة إلى خسارتها الفادحة بفقدان الزوج العزيز الذي يترك فراقه فراغاً في حياتها لا يمكن أن يملأه شيء... أجل أنها بالإضافة إلى ذلك، تبقى بلا كفيل يرعاها ولا معين يعينها على قسوة الحياة حين تعصف بها عواصفها الهوجاء التي تقلع من نفسها كل جذور الأمل والتشبث بالحياة.

إن ترمل المرأة يترك في أعماق حياتها جروحاً لا تكاد تندمل، لأنها فقدت الزوج والمعيل والمعين على الشدائد والكوارث التي تحل بها..

والترمل من المآسي الاجتماعية التي تركت أثرها البالغ في نفوس الشعراء المعاصرين، فصوروا جوانب مؤلمة وقاسية من مآسيها، وهذا الشاعر (جميل صدقي الزهاوي) يصور لنا في قصة ملؤها الحزن والمرارة فراق زوج لزوجته.. وحين يطول ذلك الفراق تأكل الوساوس والتشاؤمات قلب الزوجة المسكينة فتشكو لأمها ما تعانيه من هم وقلق على زوجها.. وتبذل أمها الحنون كل المحاولات الممكنة لتهدئة ابنتها والتخفيف من قلقها وحزنها.. وهنا يقول (الزهاوي) بلسان تلك الزوجة وهي تخاطب أمها التي لا تجد من تشكو إليه همومها سواها:

---

(1) الكوميديا البشرية: أكرم فاضل، بغداد، 1948: ص36 من قصيدة: (ترنيمة راقصة لطفلها).

كـل الـذين عـن المـواطن غـابوا يـــا أم الا احمـــداً قـــد آبـــوا

اخبرتـــه يـــا أم فـــي كتبـــي لـــه انـــي مرضـــت فلـــم يـــواف جـــواب

يـــا أم انـــي اليـــوم صـــرت بأحمـــد بعـــد الوثـــوق بعهـــده أرتـــاب

ويصف لنا بعد ذلك ما تحاول الام أن تخفف به من الوطأة على ابنتها، فيقول بلسانها:

قالـــت لهـــا الأم الشـــفيقة خولـــة مـــا كـــل ظـــن يـــا ســـعاد صـــواب

لا تتهميـــــه بالســـــلوّ فربمـــــا عاقتـــــه فـــــي أســـــفاره أســـــباب

ولننتظـــر يـــومين بعـــد فربمـــا تـــأتي لنـــا حديثـــه الأصـــحاب

إن الحقيقـــة عنـــد ذلـــك تتجلـــي فيـــزول عنـــا هـــذا الاســـتغراب

وتمر الأيام ثقيلة الظل على الزوجة الشقية (سعاد) حتى تكشف لها عن الأمر على واقعه، فتعرف أن زوجها الحبيب (احمد) قد اغتاله اللصوص في أثناء تطوافه وتجواله في بلاد الله العريضة، فلا يستوعب ذهنها وعقلها ذلك الخبر المؤلم بالنهاية المفجعة لزوجها العزيز لأن حياتها أصبحت بعد فراقه لا تعني شيئاً، فيمشي في جسدها الانهيار وتخور قواها يوماً بعد يوم حتى تقع فريسة تحت وطأة المرض القاسي، وتقف معها إلى جانب أمها صديقة وفية وهي (خولة) فتبذل كل المحاولات لتسليها وتصبرها فلم ينفعها تصبر ولا تسلي حتى أنشب بها المرض مخالبه، وقضت نحبها وفارقت الدنيا على أمل أن تلتقي روحها بروح ذاك الزوج الحبيب، فيقول في ذلك (جميل صدقي الزهاوي):

أخـــذت تســـليها هنالـــك خولـــة وســـحاب هـــم ســـعاد لا ينجـــاب

حتـــى قضـــت حزنـــاً وذلـــك بعـــدما عبثـــت بنـــاعم جســـمها الأوصـــاب[1]

* * *

وهذه صورة لمأساة أرملة أخرى يرسمها الزهاوي – وما أكثر مآسي الأرامل في المجتمع – فهناك أحد الجنود يعيش عيشة رضية مع زوجة تحبه ويحبها وتشاء الأقدار لهذا الجندي الباسل الذي صار ضابطاً أن يشارك في حرب يحتم عليه واجبه الوطني المقدس المشاركة فيها فيموت شهيداً في ميادين الشرف والبطولة.. ويصل نبأ استشاده إلى تلك لزوجة البائسة فيهتز كيانها من هول تلك الصدمة حيث فقدت الحبيب والمعيل والانيس، وما قدر حياة المرأة بلا حبيب يلفها بحنانه ومعيل يكفل لها العيش الكريم وأنيس يظلل لها بيت الزوجية بأفياء السعادة..

(1) ديوان الزهاوي (ط1972): ص109 من قصيدة " سعاد بعد زوجها ".

وعضها ناب الفقر فاضطرت إلى بيع أثاث بيتها بعد أن أعرض عنها الأهل وتجنبها الجيران لتحتفظ بكرامتها وشرفها إلى أن خارت قواها وانشب المرض بها أنيابه. ولنستمع الآن إلى القصة المفجعة التي يرسمها (الزهاوي) لأرملة ذلك الشهيد فيقول من قصيدة عنوانها "أرملة جندي":

قضى أحد الضباط في الحرب نحبه ... وكان إذا دارت رحى الحرب يبسل

وخلف زوجاً قلبها رهن حبه ... وكان له قلب بها متشغل

نوار كشخص للعفاف مجسم ... فإن ذكر الناس العفاف تمثل

ترقرق ماء الحسن في وجهها الذي ... حكى الزهر في البستان أو هو أجمل

فجل لفقدان الولي مصابها ... وباتت تناجي الهم والعين تهمل

وقد كان منها الخد كالورد زاهياً ... فأصبح ذاك الورد بالهم يذبل

وفاجأها فقر فباعت لدفعه ... أثاثاً به قد كانت الدار تجمل

تجنبها الأدنى وكل لداتها ... وأعر عنها جارها المتمول

هنالك ابدا الجوع ناجذه لها ... وزاد بها الداء الذي هو معضل

فخارت قواها في غضير شبابها ... وحارت فلم تدر الذي هي تفعل[1]

* * *

ويكون ترمل المرأة أشد إيلاماً لها وأعنف مرارة وقسوة على حياتها حين يترك لها زوجها الراحل طفلاً يتيماً، فما أفظع وأوجع أن تجتمع مرارة الترمل واليتم تحت سقف واحد، فألف آه على تلك المرأة المفجوعة التي تركها فقدان زوجها بلا معين ولا كفيل بالإضافة إلى المسؤولية الجسيمة التي أصبحت وحدها تتحمل وطأتها الثقيلة وهي القيام بتربية طفلة بريئة تلتفت يميناً وشمالاً تبحث عن عطف الأبوة فلا تجد غير أمها بجانبها فتكسب قطرات من دموعها الحارة على وجهها وجسمها اللذين لسعها البرد فأوجعهما بالبؤس حظ تلك الطفلة البريئة جمعت إلى مرارة الفقر مرارة اليتم التي هي أوجع وأعمق أثراً على حياتها، وما أشد المرارة على الأم الأرملة التي جفف الجوع ثدييها لتصبح تلك الطفلة بلا لبن ولا غذاء.. ولم تستطع الأم إلا أن ترمق السماء بعينيها وهما مملوءتان بالدموع إذ ليس لها إلا رحمة الله.. واليكم القصة الحزينة كما صورها الشاعر (الرصافي) في قصيدة عنوانها " الأرملة المرضعة":

---

(1) ديوان الزهاوي (ط1972): ص92.

ما أنس لا أنس إني كنت أسمعها تشكو إلى ربها أوصاب دنياها

تقول: يا رب لا تترك بلا لبن هذي الرضيعة وارحمني وإياها

ما تصنع الأم حيلتي فيها وقد ذبلت إن مسها الضر جف ثدياها

يا رب ما حيلتي فيها وقد ذبلت كزهرة الروض فقد الغيث أظماها

ما بالها وهي طول الليل باكية والأم ساهرة تبكي لمبكاها

يكاد ينقد قلبي حين أنظرها تبكي وتفتح لي من جوعها فاها

ويلمها[1] طفلة باتت مروعة وبت من حولها في الليل أرعاها

تبكي لتشكر من داء الم بها ولست أفهم منها كنة شكواها

قد فاتها النطق كالعجماء ارحمها ولست أعلم أي السقم آذاها

ويح ابنتي ان ريب الدهر روعها بالفقر واليتم آها منهما آها

كانت مصيبتها بالفقر واحدة وموت والدها باليتم ثناها[2]

وتلتقط ريشه الشاعر الرصافي منظراً آخر من مناظر الترمل واليتم معاً.. فتلك مأساة أم أرملة جف ثديها من مكابدة الجوع والفقر مما اضطرها إلى أن تفطم ذلك الرضيع قبل موعد فطامه ليشب مثلها منهوك القوى ضعيف البنية..

وهنا تبرز في تلك القصة مأساة أخرى لها أثرها البالغ في حياة تلك الأرملة البائسة وهي أن أهل بيتها ووضعها الاجتماعي بتقاليده القاسية يأبون لها أن تعمل لتكسب قوتها وقوت طفلها بشرف وعز لا يشوبه ذل، فيالقساوة تلك التقاليد التي تأبى لها كسب القوت ولا تسمح لها بسد رمقها من العمل الشريف، وهذه القصيدة لشاعرنا (الرصافي) ترسم لنا تلك الملامح:

وكم فتاة فقدت بعلها من بعد ما قد ولدت توئمه

فانقطعت في العيش أسبابها وأصبحت للبؤس مستسلمه

تبيت لم تحمد لفرط الجوى لا قمر الليل ولا أنجمه

---

(1) ويل أمها.

(2) ديوان الرصافي: شرح وتعليق – مصطفى علي، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1979: 4/61-62.

جـــف علـــى مرضـــعها ثـــديها فاضـــــطرها ذلـــــك أن تفطمـــــه

فعـــاش عـــيش الأم لـــم يوفـــه ملبســـــه الـــــدهر ولا مطعمـــــه

فشـــب منهـــوك القـــوى مثلهـــا يشـــكو مـــن الـــدهور الـــذي ايتمـــه

***

عـــاب عليهـــا.. قومهـــا ظلـــة أن تكســـب القـــوت وأن نطعمـــه

مـــن أي وجـــه تبتغـــي رزقهـــا وطرقهـــا بالجهـــل مســـتبهمه

وكيـــف والقـــوم رأوا ســـعيها فـــي طلـــب الـــرزق مـــن الملائمـــه[1]

اليتم وآثاره الاجتماعية في الأمومة والبنوة:

درسنا في البحث السابق حالة من الحالات الاجتماعية المتعلقة بالأمومة والبنوة.. وهي حالة الترمل حين تصبح المرأة من غير كفيل يرعاها، ولا مساعد يعينها على قسوة الحياة ويمسك بيدها أمام عواصفها الهوجاء، التي تكاد تقتلع من نفسها كل جذور الأمل في الحياة.

والآن – وفي هذا البحث ندرس حالة اجتماعية أخرى مؤلمة وقاسية هي حالة اليتم وما تتركه على اليتامى من ظلال داكنة وما تحيط به أجواءهم من سحب مدلهمة طالما تمطرهم بالبؤس والأسى والخوف الرهيب من المستقبل المجهول؛ مما جعل من اليتم مشكلة اجتماعية جديرة بالوقوف عندها، وإسداء يد العون والمساعدة الإنسانية إلى كل الذين يعانون منها.

ولا بد من وقفة – ولو عاجلة – نعرف من خلالها من هو (اليتم)؟ ونظرة في كتب (اللغة ومعاجمها) تطلعنا على أن (اليتم): من (كل شي): هو المفرد العظيم الذي يعز نظيره.

فيقال بيت من الشعر يتيم أي مفرد لا نظير له

والدرة اليتيمة: الثمينة التي لا نظير لها

ومن (البهائم): من فقد أمه.

ومن (الناس): من فقد أباه.

ذلك ما تقوله معاجم اللغة وتقف عند التفسير اللغوي لمعنى اليتم واليتيم... ونحن لا يهمنا ذلك وحده، بل إن الذي يعنينا أكثر وأهم وأعمق.. هو أثر اليتم في البنوة ومكانه في الأمومة والمواقف الإنسانية التي يجب أن نتخذها تجاه اليتيم.

فمن هو اليتيم في المنظور الإنساني النبيل، وما هي الآثار العميقة المترتبة على اليتم في المجال الاجتماعي، أجل من هو اليتيم في المعاجم الإنسانية...

---

(1) ديوان الرصافي: 357/2، من قصيدة " المرأة المسلمة ".

أنه ذلك الطفل الذي فقد النظرة الحانية التي ترعاه، وتسدد خطاه، وتغمره بالرعاية اللازمة. أنه ذلك الطفل الذي شاءت له الأقدار أن يفقد الرعاية الأبوية بما تنطوي عليه من لطف، وتوجيه وتسديد، فإذا به وهو تائه حائر يدير الطرف يميناً وشمالاً فلا يرى إلا الأشباح المخيفة، التي تكاد تبتلعه وتقذفه في مهاويها السحيقة، ولا يبصر فيها حوله غير الفراغ العاطفي القاتل الذي يجعل الحياة وهي تبدو أمامة قاتمة سوداء مرعبة فيرتجف خوفاً وذعراً مما يحيط به من شجون لا أول لها ولا آخر.

وتلك – وأيم الحق – مشكلة اجتماعية خطيرة يجب أن ينظر إليها المعنيون بأمر تقدم المجتمع ورقيه بكل رعاية وعناية.

ولا بد لنا من الإشارة إلى أن اليتيم ومعاناته النفسية وحاجته البالغة إلى الرعاية، كانت موضع اهتمام ديننا الإسلامي الحنيف، ويكفينا أن نتعرف على عمق ومدى ذلك الاهتمام الإسلامي بالآيات القرآنية الكثيرة التي عالجت مشكلة اليتم ودعت إلى رعاية اليتامى ودراسة مشاكلهم من مختلف جوانبها، واضعة العلاج اللازم والحل الحاسم لكل مشكلة من هاتيك المشاكل، ويكفينا دليلاً على ذلك أن تتعرض اثنتان وعشرون آية كريمة وفي سور مختلفة من القرآن الكريم[1] إلى مشاكل اليتيم ومعالجة شؤون اليتامى وشجونهم.

وكذلك كل المصلحين والمهتمين بشؤون المجتمع أولوا الأيتام عناية فائقة تغمرهم بالعطف وتشملهم بالرعاية وتلفهم بالحنان الذي افتقدوه بفقد أبائهم والشعراء المحدثون الذين يعملون على تقدم المجتمع ورقيه لأنهم مرهفو الأحاسيس رقيقو العواطف والمشاعر كانت لهم وقفات مهمة عند هذه المشكلة الاجتماعية التي تثير أعمق المشاعر الإنسانية.

وحينما بحثت في المراجع المتوفرة لدي عن الأشعار التي تخص هذا الموضوع بالذات، وجدتها تشغل حيزاً كبيراً من مساحة الشعر المتعلق بالأبوة والأمومة والبنوة في العصر الحديث حيث وقف الشعراء عند مشكلة اليتم واليتامى الخطيرة والتي ربما تؤدي بمن يعانيها إلى متاهات مرعبة ونهايات مفزعة ربما يكون الوقوع في مهاوي الانحطاط والانقياد بيد الشر احد تلك النهايات المؤسفة.

ولنصحب الآن بعض أولئك الشعراء الذين هالهم منظر اليتيم فكان له الأثر البالغ في نفوسهم مما جعله يؤجج مشاعرهم ويلهب عواطفهم.

فهذا الشاعر (محمود الحبوبي) يصور لنا منظر يتيم بائس فقد حنان الأبوة وعاش في صحراء قاحلة لا يرى فيها غير البؤس والشقاء، مما جعله مغموراً بالخوف والقلق واليأس فقال من قصيدة عنوانها " اليتم":

سئم العيش لم يذق غير صابه ... ناشئ كاد أن يذوب لما به

لم يشيع اباه للقبر حتى ... شيع الأم يالهول مصابه

جدث ضم أمه واباه ... ود إنه أنطوى في ترابه

---

(1) اليتيم في القرآن والسنة: عز الدين بحر العلوم، ط3، بغداد، 1987، ص13.. ومن أراد استقصاء النظرة الإسلامية الجانية لليتيم فليقرأ هذا الكتاب الذي يسجد فيه الشيء الكثير عن ذلك.

غمـــر الخـــوف نفســـه فهـــو يلقـــى كـــل شـــيءٍ مكشـــراً عـــن نابـــه

تتغاضـــى عنـــه العيـــون أزوراراً وتكـــف الآلـــف عـــن آرابـــه

يبصـــر النشـــئ حولـــه كالفراشـــات ازدهـــاءاً فينثنـــي لاكتئابـــه

لـم يشـاهد فـي الكـوخ يـأوي إليـه غيـــر افتقـــاره وغيـــر خرابـــه

تتـــراءى الأشـــباح فيـــه فتمشـــي عاصـــفات الأهـــوال فـــي أعصـــابه

ذاهـل كالـذي يسـاق إلـى المـوت بريئـــاً فـــي عنفـــوان شبابـــه[1]

ويقف الشاعر الحبوبي عند منظر آخر من مناظر اليتم التي تفيض شجناً وألماً حيث يرى يتيماً بائساً افتقد حنان الأبوة والأمومة معاً، فقال في ذلك:

ممـــــا شـــــجاني فاقـــــد عطـــــف الأمومـــــة والأبـــــوه

أبصـــــــــرته مترنحـــــــــاً كالشـــــيخ قـــــد خذلتـــــه قـــــوه

يرجـــــو المفـــــوه يســـــتبين لـــــه القلـــــوب ولا مفـــــوه

ازرت بـــــــــه حـــــــــال تناســـتها السماحـــــة والمـــــروه[2]

وهذا الشاعر (عبد المنعم الفرطوسي) يرى يتيماً بائساً آخر فقد حنان أبويه معاً وهو يعاني من مرارة الفقر، فلا يجد مسعفاً فقال فيه:

طفـل يتـيم اقـض الجـوع مضـجعه ملـوع القلـب قـد أودى بـه الخـور

لقـد تعـامى الـردى فـابتز والـده وجلجلـت بعـده فـي أمـه الغيـر

والهفتـاه لـه مـن ضـارع سـغب قـد طأطـأ الـرأس منـه الفقـر والصـغر

يسـتعطف النـاس ممـا قـد ألـم بـه ولـيس مـنهم لصـوت الحـق منتصـر

ويســأل القــوم اســعافاً وحاجتــه قـرص يكـافح فيـه الجـوع أو كسـر[3]

وصورة أخرى من صور اليتم المؤثرة أهاجت قريحة الشاعر (محمد الهاشمي) حين وقعت عيناه على يتيم آخر فقد رعاية أبوية وعطفهما البالغ فهو يناديهما فلا يجيبانه

---

(1) ديوان محمود الحبوبي، طبع النجف، 1948: ص12.
(2) ديوان رباعيات الحبوبي، طبع 1951: ص149 رباعية بعنوان " يتيم ".
(3) ديوان الفرطوسي، طبع النجف، ط2، 1966: 1/167 من قصيدة " اليتيم " نظمت عام 1945.

لأنهما لا يسمعانه ويستغيث بمن يجيبه ولكن ليس هناك من يجيب، فيقول في قصيدته " اليتيم الباكي":

يتـــيم لـــيس يعرفنـــي قريـــب ولســـت علـــى الشـــقاء بمســـتطيع

أبـــي أمـــي عـــلام تركتمـــاني ضـــعيف مطـــامع وقصـــير بـــوع

اجيبـــا دعـــوتي – انـــا مســـتغيث ولـــيس ســـواكما لـــي مـــن ســـميع

فـــلا حـــب كحـــب أب وأم ولا قلـــب كقلبهمـــا الهلـــوع[1]

وهذا الشاعر المجدد (بدر شاكر السياب) يثيره منظر يتيم فقد أمه العزيزة وحنانها الغالي فيصبرونه ويعللونه بقدومها ورجوعها إليه فتتفجر قريحته على قصيدة رائعة من الشعر الحديث يقول فيها:

كأن طفلاً بات يهذي قبل أن ينام

بأن أمه – التي أفاق منذ عام

فلم يجدها، ثم حين لجَّ في السؤال

قالوا له: "بعد غدٍ تعود..." -

لا بد أن تعود

وإن تهامس الرفاق أنها هناك

في جانب التل تنام نومة اللحود

تسف من ترابها وتشرب المطر،

كأن صياداً حزيناً يجمع الشباك

* * *

وينثر العناء حين يأفل القمر

مطر.. مطر..

(1) الأدب العصري في العراق العربي: رفائيل بطي، ط1، 1923: 17/2.

أتعلمين أي حزنٍ يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟[1]

أما الشاعر (الزهاوي) فإنه يرى أماً يكاد يتلقفها ويبتلعها زحام المارة وهي تقود بيدها طفلها اليتيم، فقال يصف ذلك المنظر البائس الذي ارتسمت معالمه أملم عينيه:

لاحت لي امرأة في السوق ماشية ودمعها فوق صحن الخد هطال

تقود طفلاً صغيراً وهي صارخة رحماك رباه قد ضاقت بي الحال

وقد غدوت عن الدنيا مجردة لا والد لي ولا عم ولا خالُ

ولا شقيق ولا زوج ولا صلة ترجى ولا بها دار ولا مال[2]

وهذا الشاعر (الرصافي) يثيره ويفجر قريحته منظرٌ ليتيم آخر يوحي له قصيدة طويلة عنوانها " أم اليتيم " نقتطف منها:

رمت مسمعي ليلاً بأنه مؤلم فألقت فؤادي بين أنياب ضيغم

يهز نياط القلب بالحزن صوتها إذا اهتز في جوف الظلام المخيم

فأصبح قلبي وهو كالشعر لم تدع له شعراء القوم من متردم

وبيت بكت فيه الحياة نحوسة ولاحت بوجه العابس المتجهم

دخلت به عند الصباح على التي سقاني بكاها في الدجى كأس علقم

فألفيت وجهاً خدد الدمع خده ومحمر جفن بالبكا متورم

وجسماً نحيفاً انهكته همومه فكادت تراه العين بعض توهم

بكى حولها جوعاً فغذته بالبكا وليس البكا إلا تعلة معدم

---

(1) أنشودة المطر: بدر شاكر السياب، دار العودة – بيروت، 1971، ضمن المجموعة الكاملة: ص475؛ ص475؛ وينظر- شعراء عراقيون: منذر الجبوري، بغداد، ط1، 1977: ص181 ؛ وينظر- الشعر والشعراء في العراق: ص259.

(2) الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه: د. يوسف عز الدين، 1965، بغداد: بغداد: ص105 " اليتيم ".

وأكبر ما يدعو القلوب إلى الأسى بكاء يتيم جائع حول أيم[1]

ويلتفت شاعر آخر هو الشاعر (صفاء الحيدري) فيرى بجانبه يتيماً بائساً يعج بالشكوى إلى أبيه الذي فقد رعايته وحنانه فيعبر عن تلك الشكوى بقصيدة جاء فيها قوله:

أبتاه، لا تتعب أكفك أحكم النسيان بأبي

لم ترع يا ابتاه احلامي ولم ترحم عذابي

وأنا اليتيم، قنعت من ألف التمائم بالسلاب

نفسي يغلفها السكون، فلا تهجها باللقاء

عامان مرا، فاترك الأعوام، تمضي بالتنائي

أني أجبت على ندائك ما أجبت على ندائي

ايتمتني طفلاً، ولم تعبأ بيتمي وانطفائي

قد كنت اسمو للسماء فقصت الدنيا جناحي

فهويت للأرض الخؤون تعصب الذكرى صباحي

فطويت أحلامي، واسدلت الستار على جماحي[2]

ويلوح منظر آخر من مناظر اليتم المؤلمة القاسية أمام الشاعر السيد (محمود الحبوبي) حين يرى إنسانة حز في نفسها اليتم الموجع حيث فقدت أمها وهي في الأيام الأولى من حياتها حين كانت رضيعة في مهدها، ولم تقتنع الأقدار منها بذلك وحده بل وفي لحظة من اللحظات القاسية ابتزت منها حنان أبيها فبقيت محرومة من حنان الأبوة والأمومة معاً.. وبينما تمشي هي على حذر وخوف وترقب وإذا بأحد المريبين يسدد نحوها نظرة مريبة، فما كان منها إلا أن تنهدت ورمقت السماء مستغيثة بربها من أهل الريبة، فصور الشاعر لنا كل ذلك في المقطوعة التالية:

طاردتها الحياة منذ صباها وكستها ثوب الشقاء يداها

فمشت في مجاهل البوس حيرى لا ترى حانياً عليها سواها

(1) ديوان الرصافي: شرح وتعليق مصطفى علي: 34/2 من قصيدة " أم اليتيم ".
(2) المجموعة الشعرية الكاملة: صفاء الحيدري، بيروت، د.ت: ص361 من قصيدة " في الليل " نظمت نظمت عام 1945.

بزهـا المـوت أمهـا وهـي فـي المهـد ولـــــم يقتنـــــع فبـــــز أباهـــــا

ســـارقتها اللحـــاظ عينـــاً مريـــب فمضـــت تـــرمق الســـما عيناهـــا[1]

ومنظر آخر من مناظر افتقاد الأبوين حيث يرى الشاعر (أنور شاؤول) يتيماً مفجوعاً سرعان ما افتقد أباه ولم تكتف الأقدار منه بذلك بل أوجعت قلبه بأن تختطف منه أمه الحنون. فقال من قصيدة:

يتـــيم قضـــت امـــس العشـــية امـــه لتلحـــق بعـــلاً مـــات قبـــل ســـنين

وهـا هـو قـد أمسـى وحيداً كمـا تـرى خلـــي وفـاض مـن حنـان حنـون[2]

ويمر عيد من الأعياد السعيدة، ينغص فيه على الشاعر (محمود الحبوبي) سعادته، عيناً يتيم كستها لآلئ الدموع برداً شفافاً يشف عن مدى الحزن والألم اللذين يعاني منهما ذلك اليتيم البائس، فيقول في رباعية له عنوانها " اليتيم والعيد ":

مـــا لعـــين اليتـــيم باكيـــة وثغـــور الأطفـــال تبتســـم

يبصـــر الـــنشء فـــي مبـــاهجهم وهـــو خلـــف الجـــدران يكتـــتم

أهـــو عيـــد أم مـــأتم فهنـــا أمـــل ســـار جنبـــه ألـــم!

أيـــن أيـــدي الكـــرام ماســـحة مـــن دمـــوع الأيتـــام تنســـجم[3]

وهذه شاعرة.. نعم.. شاعرة عانت وعاشت مرارة اليتم.. تلك هي الشاعرة (عاتكة الخزرجي) التي عرفت برهافتها الشعرية إنها ولدت في مأتم أبيها، فقالت في ذلك مقطوعة تقطر آسى وشجى وألماً:

بلـــوت مـــن الأيـــام كـــل عظيمـــة وحســـبي أنـــي قـــد ولـــدت بمـــأتم

عرفـت بـه أمـي ويـا ليـت أننـي جهلـــت فلـــم أعلـــم ولـــم أتعلـــم

عرفت بـه أمي فضـاعف لـي الأسـى فأجهشـــت إجهـــاش الجـــريح المكلـــم

وكفكفت دمع اليتم عطفاً على التي رعتنـــي وضـــمتني بكـــف ومعصـــم

وتحســـب أنـــي بالرقـــاد قريـــرة ولـــم تـــدر أنـــي بـــين ســـهد مخـــيم[4]

---

(1) ديوان رباعيات الحبوبي: ص144 ضمن " من اثام المجتمع ".
(2) شعراء العراق المعاصرون: غازي عبد الحميد الكنين، ط1، 1958: 2/91-92.
(3) ديوان رباعيات الحبوبي: ص130.
(4) المجموعة الشعرية الكاملة: عاتكة الخزرجي، 1986: ص320 " اليتيم ".

وفي يوم آخر حدَّقت الشاعرة في وجه أمها الحزين الكئيب فإذا بتلك الأم المفجوعة تلقي عليها نظرة حزينة عميقة قرأت الشاعرة في حنايا سطور تلك النظرة، مرارة يتمها، فقالت الشاعرة أبياتاً تفيض حزناً وشجناً وهي تصور ذلك المنظر الحزين:

وألقت عليّ الام نظرة ايمّ ... قرأت بها يتمي وتاريخ حسرتي

وكم كنت آسى إذ أشاهد طفلة ... تصيح أبي، إذ يبتديها بطفلتي

فأسرع في ذِل ويأسٍ ولهفة ... أسائل أمي، إذ أغالب دمعتي

حنانيك يا أمي أمالي من أب ؟ ... أما لي من كف تكفكف عبرتي؟

هنا لا تجيب الأم إذ يغلب الأسى ... فأقرأ فيه ما يضاعف حسرتي[1]

وحين تبارى المحسنون في العصر الحديث في بناء الملاجئ للأيتام شاركهم الشعراء تلك المشاعر النبيلة وحثوهم على القيام بتلك الأعمال الجليلة... فمن ذلك ما نظمه الشاعر المجدد (عبد الحسين الازري) من قصيدة يحيي بها القائمين بأعمال الجمعية الخيرية للأيتام ويختم تلك القصيدة بقوله الذي نختتم فيه هذا البحث:

يا ملجأ الأيتام كم لك منة ... سيزفها التاريخ للتسجيل

أنقذت من أيدي الخطوب بقية ... سلكت بهم لولاك شر سبيل

إني لأنظر في اليتيم إذا بكى ... خوف الأسير وذلة المغلول

والله أوصى باليتيم عباده ... في محكم القرآن والإنجيل[2]

وقوع المرأة في الخطيئة والآثار المترتبة عليه:

مسكينة هي المرأة في مجتمعاتنا، فإن كل ما يفرزه المجتمع من أخطاء وخطايا اجتماعية تلقى على عاتقها.. نعم على عاتقها وحدها، والرجل – بحكم مركزه وتحكمه الاجتماعي – يكون بعيداً عن كل ذلك فلا تلقى عليه أي تبعة أو لو أو عتاب فضلاً عن العقاب..

يأتي الشاب إلى الفتاة البريئة الساذجة فيغريها بالوعود الكاذبة والأماني الخلابة، ويستمر في إغرائها حتى يقضي منها وطراً دنيئاً من دون أن يفكر بمستقبلها الذي سحقه

---

(1) أدب المرأة العراقية في القرن العشرين: بدري طبانة: ص142.

(2) ديوان الحاج عبد الحسين الأزري، حققه وضبط كلماته وترجم لاعلامه وعمل لفهارسه: مكي السيد السيد جاسم وشاكر هادي شكر، قدم له المرحوم علي الشرقي ترجم للشاعر جعفر الخليلي، مؤسسة النعمان، بيروت، د. ت: ص160 من قصيدة " اليتيم ".

تحت قدمه وبشرفها الذي لوثه بأوحال جريمته.. ويذهب لحالة ويكون بمنأى عن كل حساب وعقاب، فيأتي أهل تلك الفتاة يمشون بزهو وخيلاء وكبرياء يحملون في أيديهم سكاكين الموت ليطعنوا المسكينة البائسة عدة طعنات يسيل منها الدم متدفقاً متفجراً ليغسلوا بذلك الدم الخزي والعار الذي ألحقته بهم تلك البائسة.. ويرجعوا رافعي الرؤوس منتفخي الأوداج مترنحين مختالين لأن شرفهم عاد إلى مكانه من الشأن والرفعة..

أما الذي كان سبباً لوقوع تلك المأساة فلا يحاسبه المجتمع، وأعجب من ذلك أنه لا يسميه مرتكباً جرماً ولا مقترفاً لأي خطيئة فلماذا هذه المحاباة للرجل ؟ ولماذا لا يحاسب على جريمته الشنيعة؟

نحن لا نريد أن ندفع العقاب عن ذات الشرف المهان والعرض المغتصب ولا نريد الدفاع عنها إلا من جانب واحد وهو لماذا لا تحاسب الأعراف والقوانين ذلك الذي أوقعها في ذلك المنحدر مستغلاً بساطتها وطيبتها؛ وهناك أسباب أخرى تهيئ لتلك الفتيات الوقوع في تلك المنزلقات هي الفقر والحاجة الماسة التي لم يوفر أبسط متطلباتها لها أهل ولا مجتمع ولا قانون، مما يجعلها عرضة للوقوع في تلك المآثم الفظيعة التي تحطم حاضرها ومستقبلها وتؤدي بهم إلى أوخم العواقب في حياتها، وربما تنتهي بها إلى الموت غسلاً للعار...

لذلك فقد عالج الشعراء هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة التي تحتاج إلى مزيد من البحوث المستقلة لتعالجها من جذورها العميقة وأسبابها الحقيقية فهذه الشاعرة (نازك الملائكة) تصور أحد تلك المناظر البشعة فتنقل إلى أمها فظاعة جريمة هي من بقايا الجهل والتخلف، فتقول:

اماه وحشرجة ودموع وسواد

وانبجس الدم واختلج الجسم المطعون

والشعر المتموج عش فيه الطين

أماه ولم يسمعها إلا الجلاد

وغدا سيجيء الفجر وتصحو الأوراد

والعشرون تنادي والأمل المفتون

فتجيب المرجة والأزهار

رحلت عنا غسلاً للعار... [1]

وهذا الشاعر (محمود الحبوبي) يرى أنه كم من آثم ومجرم أغرى فتاة بوعود كاذبة فأوقعها في المنزلق الخطير حتى زرع في أحشائها بذرة جرمه وخطيئته الكبرى وحين ولدته أمه وفي حالة من حالات ارتباكها وخوفها وألمها الذي كان يمزق نفسها فأماتت ذلك الطفل ورمته على قارعة الطريق فكانت الجريمة جريمتين بشعتين، فيقول:

وبائسة رمتها في الخطايا ... سفالة آثم وأثام سافل

وقد وضعت على كرهٍ جنيناً ... أماتته لتعدوها العوائل

وكنت مع الألى شهدوه ملقى ... بقارعة الطريق مع الجنادل[2]

فقلت وكم ضحايا مثل هذا ... تمر كما تمر من المهازل[3]

ومما يزيد ارتكاب جريمة الغسل للعار[4] البشعة بشاعة وفضاعة أن الزوجة لم تقترف ذنباً وإنما كان اقتراف ذلك العمل الشنيع بدافع من تربيته المقيتة التي أدت إلى أن تفقد الزوجة حياتها نتيجة التهور والوساوس الشريرة التي تعشعش في حنايا نفسه وزوايا روحه الفاجرة، فقال في ذلك الشاعر (الزهاوي):

ربَّ حسناء ضرجوها قساة ... بدم كان للعروس خضابا

هي لم تقترف إلى الزوج ذنباً ... إنما كان قلبه مرتابا[5]

وهذا الشاعر (محمود الحبوبي) يعود مرة أخرى ليرسم لنا صورة فتاة معدمة يؤدي بها فقرها إلى الوقوع في مستنقع الرذيلة ولم يكترث أخوها الذي يتظاهر بتمسكه بالشرف والفضيلة بما هي عليه من جوع وفقر، بل يطعنها ليغسل العار عن شرفه الموهوم وكان الأولى والأجدر به أن يغسل العار عن وطنه الذي يعيش به الجهل والفقر والمرض، فقال في رباعية بعنوان " يقتلها غسلاً للعار":

---

(1) ديوان قرارة الموجة: نازك الملائكة، مج2: ص353. وينظر- الشعر والشعراء في العراق: احمد أبو أبو أسعد، ص216.. ويضيف د. جلال الخياط أن الشاعرة نازك تختلف اختلافاً جذرياً عما الفناه في طريقة عرضها للموضوع، فهي تعرض مسألة محددة ولا تكتفي بأفعال الأمر علاجاً لها، ولا نميل إلى النصائح غير المجدية، وتقدم لنا المأساة بأسلوب حزن بصور وحشية الفعل ويثير النقمة. ينظر- الشعر العراقي الحديث – مرحلة وتطور: د. جلال الخياط، ط2، بيروت، 1978: ص174.

(2) جنادل: الحجار.

(3) ديوان رباعيات الحبوبي، 1951، النجف: ص121 رباعية بعنوان " جريمتان ".

(4) من العائدات السائدة في المجتمع العراقي ولاسيما في الريف، أن الرجل إذا حصل ما يخدش عرضه عرضه أو يلوث سمعته فإنه لا يتوانى عن القتل غسلاً للعار، وبذلك يمحو العار عنه وعن عشيرته كلها.. ينظر – المرأة في القصة العراقية: شجاع مسلم العاني، بغداد، دار الشؤون الثقافية: ص127.

(5) ديوان اللباب: الزهاوي، مطبعة الفرات، بغداد، 1928: ص335 من قصيدة " الحجاب والسفور".

نشـــأت ببيـــت فيـــه لهـــا أمـــلٌ فيحمـــي عرضـــها الأمـــل

وإذا أخـــو مـــال يراودهـــا وإذا بهـــا تعنـــو وتمتثـــل

وإذا يـــد خرقـــاء تطعنهـــا فتمـــوت وهـــي تقـــول يـــا رجـــل

هـــلا غســـلت العـــار عـــن وطـــن الفقـــر فيـــه يعـــيش والعـــلل[1]

وهذا الشاعر (السياب) يرسم صورة أخرى من مآسي الوقوع في الخطيئة حيث كان فقر تلك البائسة حائلاً بينهما وبين الزواج الذي هو الوسيلة الوحيدة التي تجنبها المزالق، واستغلوا طفولتها وصغرها فانتهت بها الحال إلى تلك النهاية المؤلمة المؤسفة فيقول في قصيدة " المومس العمياء ":

وتلقفوها يعبثون بها وما رحموا صباها

لم يبتغوها للزواج لأنها امرأة فقيرة

واستدرجوها بالوعود لأنها كانت غريرة

وتهامس المتقولون فثار أبناء العشيرة

متعطشين -

على المفارق والدروب – إلى دماها.. [2]

ويعود لنا الشاعر (محمود الحبوبي) يتساءل من هو المسؤول عن اقتراف تلك الفعلة الشنعاء، أهو القاتل المجرم ؟ أم القانون الذي يخفف عنه العقوبة؟ أم الجهل الذي أدى به إلى ارتكابها؟ أم الفقر الذي هو رأس المآسي التي تؤدي بالمرأة إلى ذلك المنزلق فتؤدي بحياتها:

شـــجاني ان شـــاهدت جثـــة غـــادة مبضـــعة والنـــاس مـــن حولهـــا كثـــر

أرادت لهـــا قوتـــاً فعـــز فأذعنـــت ليفتـــرس الورقـــاء فـــي عشـــها الصـــقر

رماهـــا فأرداهـــا أخوهـــا، ولـــم تكـــن ليمشـــي لهـــا – لـــولا خصاصـــتها- العهـــر

أخوهـــا، أم القـــانون، أم هـــي، أيهـــم أســـاء أم الشـــعب الجهـــول، أم الفقـــر؟[3]

(1) ديوان رباعيات الحبوبي: ص123.
(2) ديوان السياب، دار العودة، بيروت، مج1: ص509-527.
(3) رباعيات الحبوبي: ص67 " من هرم المجرم ".

وتلك فتاة أخرى يصور مأساتها الشاعر (محمد الهاشمي) حين تلتجئ إلى أمها الحنون لتشتكي إليها ما هي عليه من البؤس والشقاء بعد تدنيس عرضها الذي دونه كل الجاه وكل المال، فهي تتمنى الموت الذي تجد به الشيء الوحيد الذي يغطي لها تلك المزالق التي أوقعها فيها محتال نصاب:

يا أم ! عرضي لا جاهي ولا مالي ... إن لم أصنهُ فلا رعياً لآمالي

يا أم موتي أولى إذا افتضحت ... بين النساء جناياتي وأفعالي

يا أم إني أخشى أن يخادعني ... بالحب يا أم هذا حب محتال

خذي المواثيق منه أو خذي قسماً ... بأن يبر علينا حلفة الآلي

فلم تستوعب الأم ما حدث ولم تتوقع ما سيحدث لابنتها ففات الأوان على النصح، بوفاتها:

دعي ابنتي هذه الأفكار! واتئدي ... فإن غشك لم يخطر على بالي

وهل سمعت بأم تخدع ابنتها ... كيما تبيت على حزن وبلبال

قال لها أمها: ما أنت مرشدتي ... ما كان أرشدني عن رأي اطفال

وبعد شهرين ماتت انها بليت ... بداء، بداء سل شديد الفتك قتال

لهف العفاف على عذراء قد قتلت ... بالإفك واهاً على بيضاء معطال

قل للحكومة: ويل للرعية من ... موظفين لئام الطبع جهال

هانت على الحر وقعاً كل نازلة ... إلا المصيبة في عرض وفي مال[1]

* * *

ولعل عادت غسل العار تعطينا صورة واضحة عن إهانة المرأة واحتقارها، ومما هو جدير بالذكر أن العراق هو البلد الذي استفحلت به تلك العادة إلى درجة يندر أن يكون لها نظير في بلد آخر[2].

(1) الأدب العصري في العراق العربي: 24/2 ضمن قصيدة " الفتاة المخدوعة والشرطي الأثيم ".
(2) ينظر – أساليب المقالة وتطورها في الأدب العراقي الحديث: منير بكر التكريتي، مطبعة الإرشاد، الإرشاد، بغداد، 1976: ص189 ؛ وينظر – التيار الاجتماعي في الشعر العراقي الحديث: ص70.

الفصل الثالث
العلاقات العاطفية في شعر الأمومة والبنوة

الفصل الثالث
العلاقات العاطفية في شعر الأمومة والبنوة

مناغات الآباء والأمهات لأبنائهم:

إن الحب والحنان اللذين يضفيهما الآباء والأمهات على أولادهم هو أبلغ تعبير وأنقى بيان عن مشاعر الأبوة والأمومة المقدسة... التي تولد مع الأولاد وتنمو بنموهم وتعايشهم في شتى مراحل حياتهم.

إن الأولاد وحتى قبل أن يولدوا يكونون الحلم الجميل والأمل المنشود الذي يتلألأ في أفاق أمانيهم فيتطلعون إليه بكل لهفة وشوق، وما أعمق البهجة التي تغمرهم والسعادة التي تظللهم حينما يصير ذلك الحلم حقيقة واقعة وحينما يبدأ التحول العظيم فتكون المرأة أما ويصير الرجل أبا... عند ذلك تحس المرأة وتتذوق طعم الأمومة الذي لم تعرف منه قبل ولادتها غير معناه اللفظي الجامد..

وهي الآن تعيشه بأبعاده الحقيقية المليئة بالعاطفة والحب والحنان، مما يجعلها تدرك بأن لحياتها معاني أعمق وأروع وأجمل وأن لوجودها أبعاداً أوسع مدى، أضفاها على دنياها هذا الوليد الجديد السعيد.

وكذلك الرجل الذي يصبح أباً يبدأ يتلذذ بطعم الأبوة الذي ليس في الحياة – على كثرة ملذاتها – ما هو ألذ وأحلى وأشهى منه.

ما أجمل بيت الزوجية وما أروعه حين تمتد إليه يد العناية الإلهية لترسم في أفقه صورة وليد جديد يزدان به ذلك البيت.

وما أبدع تلك السمفونية الرائعة التي تبدد سكون البيت بالصوت الملائكي الفاتن الذي ينبعث من ذلك الوليد الجديد الذي جعل البسمة تشرق على الشفاه والفرحة تغمر النفوس والقلوب فتلألأ في العيون الباسمة إشراقاً يجعل الحياة كلها زاهية بتلك البسمات الوضيئة؛ والأولاد – بحكم الغريزة الإلهية – أفلاذ من أكباد أبائهم وأمهاتهم، فإذا هم ضحكوا تضحكم لهم الدنيا بكل أرجائها، وإذا بكوا يشعرون بالعبوس والتقطيب يملأ ست جهاتها يحدقون في وجوههم فيقرأون على صفحاتها سطور البراءة والنقاء والصفاء، ويلمحون في عيونهم وهج الأمل ودفقات الحنان.

وحسبنا أن نتصور هنا مدى السعادة والمسرات التي تغمر بيتاً بالبراءة والنقاء والصفاء والأمل والحنان.

وحسبنا أن نتصور أيضاً مدى تعلق أولئك الآباء والأمهات بأولادهم – أفلاذ أكبادهم- لأنهم يرون كيانهم مرتسماً على جبهات أولئك الأطفال، ويلمسون في وجودهم امتداداً لهم يزهو به الوجود.

ومهما كان الإنسان ذا حس مرهف وشعور ريقيق فإنه هيهات أن يتحسس الأمومة أو البنوة كعواطف مشبوبة ومشاعر وهاجة إلا إذا عاشها على وجه الحقيقة، فكان أباً أو أماً.

إن لغة الأطفال التي تتجسد بأصوات غريبة وهمهمات غير مفهومة لا يحس بها تمام الإحساس ولا يتفهمها أعمق الفهم إلا الأب والأم وحدهما، ولا ينفعل بموسيقاها

المعبرة والمؤثرة سواهما؛ لذلك وبأسباب من تلك الدوافع الغريزية والمشاعر الفطرية التي ألمحنا إليها، صار الآباء والأمهات يلاعبون أطفالهم ويناغونهم من دون أن يهمهم خلع وقار أو يضنيهم تعب أو يرهقهم جهد شاق لأن كل ما يعنيهم ويهمهم أن يرسموا السعادة على ملامح أولئك الأطفال.

كما صار الآباء والأمهات يناغون أولادهم ويحدثونهم بكل الصدق والعفوية عما يختلج في نفوسهم ويدور في أذهانهم من أفكار وطموحات وآمان يتمنون تحقيقها وأمنيات يحلمون بتطبيقها تصرفاً وسلوكاً يطبع حياة أولئك الأولاد.

والآباء والأمهات من الشعراء والشاعرات الذين هم – بحكم شاعريتهم – أكثر رهافة ورقة من الناس العاديين ناغوا أولادهم بقصائد ومقاطيع شعرية تعبر عن أسمى معاني الحنان والحب وترسم صوراً خلابة لطموحاتهم التي يرجون تحقيقها على أيدي أولئك الأولاد مسرح تلك الطموحات الجميلة، فهذا الشاعر المجدد الشيخ (علي الشرقي) وبعد صبر طويل رزق بنتاً وولداً تفاوتت سنهما بما يقرب العاملين، وكأنا في يوم من الأيام قد رآهما يدبان أمامه، فأوحى إليه منظرهما الرائع المثير قصيدة نظمها عام 1945 عنوانها " أيها الوالدون " نسي فيها شيخوخته وأزاح فيها عنه ستار حشمته ووقاره ليصف روعة المنظر البديع الماثل، ويجسد لنا مشاعره وأحاسيسه أمام مفاتن ذلك المنظر الذي هز شاعريته وجعلها تتدفق بقوله:

إن قلبـــي أرجوحـــة نصـــبت ... بـــين مفطومـــة ومـــنفطم

هـــزةٌ إثـــر هـــزة، وأنـــا ... لهمـــا ضـــاحك بمـــلء فمـــي

لســـت أدري مـــن الحـــوار ســـوى ... بغمـــةٍ مـــن شـــفاه مبتســـم

حلمـــي فـــي دبيبـــه، وأرى ... عـــدوه مثـــل رقصـــة الحلـــم

يتبـــارى وأختـــه، وأنـــا ... ذبـــت خوفـــاً مـــن زلـــة القـــدم

لا احتفاظـــاً يـــدي علـــى كبـــدي ... بـــل أشـــارت لموضـــع الألـــم[1]

وهذا شاعر آخر هو الشيخ (محمد أمين زين الدين) ونرى من المناسب التذكير هنا بأنه من رجال الدين الذين كان الدين بالنسبة لهم سلوكاً عملياً يتجسد في التقى والعبادة وغيرها من الصفات التي تضفي على صاحبها الوقار والهيبة والجلال وتبتعد به عن كل ما يمت إلى اللعب والمزاح بصلة؛ أجل نرى هذا الشيخ التقي الورع الذي هو بعيد بهيئته وهيبته عن كل ما يؤدي به إلى الخروج عن عالم وقاره نراه وقد اعترته هزة من هزات الأبوة العنيفة حين حدقت عيناه في عيني ابنته البريئة التي كانت البراءة تتدفق من عينيها فاحتضنها بين يديه ليشمها ويناغيها بالشعر الرقيق الرائع الذي تدفقت به شاعريته، فيقول مخاطباً إياها:

---

(1) ديوان الشرقي: جمع وتحقيق إبراهيم الوائلي وموسى الكرباسي: ص262.

إيـــه ريحانـــه الفـــؤاد أعيـــدي نغمـــة الحـــب للفـــؤاد أعيـــدي

إبســـمي للحيـــاة فالـــدهر غـــض لـــك والكـــون فـــي احتفـــال وعيـــد

إبســـــمي فالصـــــباح يبســـــم والطيـــر يهـــز القلـــوب بالتغريـــد

حيـــث كـــل الحيـــاة شـــعر رقيـــق فـــي المعـــاني وانـــت بيـــت القصـــيد

هتـــف الطيـــر فـــي الصـــباح يحييـــك فـــــردي تحيـــــة المعمـــــود[1]

ونجـــوم الســـماء ترنـــو وودت لـــو يحليـــك بعضـــها بعقـــود

نظرة منك تنعش الأمل العذب وتحيي ماضي الغرام البعيد

ثم يلتفت إلى أمها وقد أخذها سحر ذلك الموقف العاطفي فيخاطبها بقوله:

أيهـــا الأم عـــوذي الطفلـــة الحســـ نـــاء باســـم المهـــيمن المعبـــود

وأحـــــذري البـــــدر أن يراهـــــا فقـد أصـبح يرنـو لهـا بعـين حسـود

واحفظيهـــا مـــن النســـيم فقـــد يـــؤلم منهـــا رقـــاق تلـــك الخـــدود

حلليهـــا مـــن قيـــدها فكفاهـــا مـــا تلاقـــي فـــي دهرهـــا مـــن قيـــود[2]

وهذا الشاعر (علي جليل الوردي) [3] تتدفق مشاعره الأبوية فيناغي ابنه بقصيدة مشحونة بالعاطفة، نقتطف منها قوله:

رشـــفت الســـعادة مـــن مقلتيـــك وذقـــت الهنـــاءة مـــن وجنتيـــك

وعلمـــت قلبـــي معنـــى الحنـــان ففـــيض حنـــاني مـــن مقلتيـــك

بلفظـــك (بابـــا) عرفـــت الخلـــود فســـر خلـــودي فـــي لفظيتـــك!

بنـــي اجبنـــي عـــن ذا الســـؤال تـــرى أنـــا أم أنـــت فـــي برديتـــك؟[4]

---

(1) العاشق.

(2) نقلاً عن: المختارات من الشعر العربي – لمحمد جواد الغبان: ج1، ضمن "روائع الشعر الحديث": الحديث": ص112، "مخطوطة".

(3) علي جليل الوردي – ولد في الكاظمية عام 1918 له ديوان (طلائع الفجر 1960). ينظر- معجم المؤلفين العراقيين، ص413. وشعراء من بلادي، ص218.

(4) نشرت في جريدة الهاتف، النجف الأشرف، 1942م من قصيدة بعنوان " الحنان الأبوي".

وهذا الشاعر (الزهاوي) يرى أما تناغي وتخاطب ابنتها الرضيعة أثناء تنويمها وهي ترى فيها خلال تلك اللحظات الحلم الذي كان يخالجها ويساورها في ليلة زفافها، وكم كانت فرحتها غامرة حين يتجسد حلمها بتلك الطفلة الوديعة فيقول على لسان تلك الأم:

قد كنت ليلة عرسي حلما لذيذا لنفسي

واليوم يا ابنة انسي انت الحقيقة نامي

حسبي من الدهر بنتي أما لجيل سيأتي

أنت السعادة أنت نامي بربك نامي[1]

وهذا الشاعر (محمد مهدي البصير) يصور أما لا تغفو عينها إلا إذا غفا وليدها وتسهر معه إذا كانت عيناه تبكيان من ألم يعانيه ولا يعرف التعبير عنه إلا بالبكاء، فتضفي عليه من عواطفها وحنانها ما تعجز عن تصويره صفحات الكتب وذلك بقوله[2]:

كم من وليدٍ، على مهدٍ تحركه أمُ أضر بها من حوله الوصب

إذا غفا الخشف النفور غفت فإن بكا فلذيذ النوم مستلب

إذ ليس يرويه الأصفو درتها وليس يؤويه إلا صدرها الرحب

كأنه زهرة ممتصة لندىً كأنما هي غصن ضمها رطب

يملي الحنان عليه من عواطفها ما ليس تقوى على تصويره الكتب[3]

وهذا شاعر آخر من شعراء النهضة الحديثة هو السيد (عبد الرحمن البنا) يصور عاطفة أم والهة تجاه ابنها العزيز، فتناغيه مسائلة إياه بقولها له:

منى القلب ماذا أنت في الليل تصنع فقلبي على ما أنت فيه موجع

منى القلب نام الناس وطرا وأنني اليك أجيل الطرف والطرف يدمع

عليك فؤادي ذاب من حرقة الجوى حناناً وكادت مهجتي تتقطع

وأني لأخشى أن تصيبك علة ويختل منك العقل واللب يهلع[4]

---

(1) ديوان الزهاوي: بقلم عبد الرزاق الهلالي، مج1، (ط1972): ص24-25.
(2) ديوان الزهاوي: بقلم عبد الرزاق الهلالي، مج1، (ط1972): ص24-25.
(3) ديوان زبد الأمواج: محمد مهدي البصير (ط1972): ص115 من قصيدة " دنيا الظلام".
(4) ديوان البنا: 2/152-153، قصيدة " من حقيقة حال ".

وهذا الشاعر (حافظ جميل) يناغي طفله (البكر) سمير، بشعر مشحون بالعاطفة الأبوية المتدفقة يعتبر فيه أن ابتسامته رمز لسعادته وتعبير عن زوال نحسه فيتمنى أن يبقى له أملاً باسماً يجدد أحلامه ليرفع رأسه عالياً، فيقول:

ولدي (سمير) فدتك نفسي

يا بذرتي وكريم غرسي

لولاك لم اجزع لمكروه

ولم أطرب لأنس

ان تبتسم فاليوم يوم

سعادتي وزوال نحسي

أنت الذي أرهفت لي

بالحب عاطفتي وحسي

واعنتني في النائبات

على التصبر والتأسي

علمتني معنى الحياة

سليقة من غير درس

فلتبق لي أملاً يجدد

عهد أحلامي وعرسي

أنا يا (سمير) أبوك فأرفع

عالياً في الناس رأسي[1]

والشاعرة (نازك الملائكة) ترى بعينيها أن ابنها (براق) يدعوها (ماما.. ماما) فتقرأ في عينيه سورة النعاس والرغبة في النوم وحاجته إلى حضنها الدافئ ليجد فيه

(1) ديوان أحلام الدوالي: حافظ جميل، بغداد، 1972: 283، " ولدي سمير".

الحنـان الـذي يحتـاج أن يغفـو عليـه فتحضـن الأم وليـدها وتناغيـه واصـفةٌ ذلـك الـدفق مـن الحنان، فتقول:

ماما ماما ماما ماما

براق الحلو اللثقة ينوي النوما

والنوم وراء الربوة هيأ حلما

والحلم له أجنحة ترقى النجما

والنجم له شفةٌ ويحب اللثما

واللثم سيوقظ طفلي: ماما ماما[1]

وهكذا الشاعر (بدر شاكر السياب) يسمع طفله (غيلان) بدعوه (بابا.. بابا) والنعاس يكحل عينيه وهو راقد في سريره تغمره عواطف الأبوة، فإذا بالأب الذي يهزه ذلك المنظر المؤثر فيقول واصفاً تلك الصورة في قصيدة تجعل قارئها يعيش في أجوائها:

((بابا... بابا...))

ينساب صوتك في الظلام، اليَّ، كالمطر الغضير،

ينساب من خلل الناس وانت ترقد في السرير.

... وأظل أسبح في رشاشٍ منه، اسبح في عبير.

فكأن أودية العراق

فتحت نوافذ من رؤاك على سهادي

هذا خلودي في الحياة تكن معناه الدماء.

تموز عاد بكل سنبلةٍ تعابث كل ريح.

---

(1) ديوان نازك الملائكة (شظايا ورماد) ط بيروت، مج1: 1556/2 وينظر – ونلاحظ في قصيدة (أغنية (أغنية الطفلي) هذه بدأ كل شطر بعين الكلمة التي جاءت في آخر الشطر السابق، فلفظة (النوم) التي بدأ بها الشطر الثاني كانت تكرار لعين اللفظة في نهاية الشطر الأول، وللفظة (الحلم) التي ابتدأ بها الشطر الثالث كانت تكرار لعين اللفظة في نهاية الشطر الثاني.. وهكذا وهو توظيف الأسلوب الحكاية الغنائية الشعبية المتسلسلة. ينظر- نازك الملائكة – دراسات ومختارات: د. عبد الرضا علي، بغداد، ط1، 1987: ص80.

((بابا... بابا...))

يا سلم الدم والزمان: من المياه إلى السماء

غيلان يصعد فيه نحوي، من تراب أبي وجدي

ويداه تلتمسان، ثمَّ، يدي وتحتضنان خدِّي

فأرى ابتدائي في انتهائي.

((بابا... بابا...))

من أيِّ شمسٍ جاء دفؤك ؟ أيِّ نجم في السماء؟

ينسل للقفص الحديد، فيورق الغدُ في دمائي؟[1]

وهذا الشاعر (عبد الوهاب البياتي) يرى أما تناغي ابنها الرضيع وتهدهده من أجل أن ينام فتنفعل شاعريته وتتدفق في وصف ذلك المنظر العابق بشذا مشاعر الأمومة العطرة فيقول:

نامت عيون النجم وامتقع الليل

نم يا حبيبي نم يغمرك الظل

والطيب والطل

صديقك البلبل على حنيني نام

فلم ترى تعول ودونك الأحلام

حياتنا أوهام

أبوك في الوادي يصارع التنين

خنجره الصادي ملطخ بالطين[2]

وتمر الأيام فيصبح الشاعر آباً وتغمره مشاعر الأبوة، حين تزدهر جنة حياته بأطفال يملؤنها سحراً وبهجة، ولكن قسوة الأيام جعلته بعيداً عن تلك الجنة، ولكن إذا

(1) أنشودة المطر: بدر شاكر السياب، بيروت، 1960: 18 ((مرحى غيلان)).
(2) ديوان عبد الوهاب البياتي، دار العودة، بيروت، مج1: ص130 " من أغاني المهد ".

كان عنها بعيداً فإنه يتنسم عطرها الفواح حين يخاطب ولده (علي) من مهجره البعيد قائلاً:

كناري الصغير

وجهك والسماء

تمطر في منفاي، في مدينتي

يبرق في عيون

أمك، في واحات

ليل عذابي الدامس الأخير

يبرق في دموع

أمك، في أبيات...

قصائدي الخضراء

يبرق في بغداد

فمد لي يديك

رغم سجون الأرض

لي يديك

فإنني حزين

تمطر في قلبي وفي مدينتي السماء[1]

وكم تهزه لوعة البعاد وتتفجر عواطف الأبوة وحنينها وأشواقها حين يدعو ولده فلا يجد من يرد عليه سوى صدى صوته، فيقول:

ولدي الحبيب..

(1) ديوان البياتي: مذكرات رجل مسلول، مج1: ص375.

ناديت باسمك، والجليد

كالليل يهبط فوق رأسي، كالضباب

كعيون أمك في وداعي، كالمغيب

ناديت باسمك

في مهب الريح

في المنفى

فجاوبني الصدى: ((ولدي الحبيب)) [1]

وتستمر الأيام في دورتها فتزدان جنته بوليد آخر يتمنى أن تغمر السعادة فيه عالمه، فيسميه (سعدا) وتزقزق عصافير السعادة في سمائه، فيقول:

عصفور أزرق

في قفصٍ من زنبق

غنى أغنية

غنى الحرية

يا قمري الاخضر

يا حبي الأول

يا جدول

ينعش صحرائي..

يا وطني النائي

يا قمري

يا ولدي الأصغر[2]

(1) ديوان البياتي: (من مذكرات رجل مسلول) مج1: ص328 " أغنية إلى ولدي علي".
(2) الديوان نفسه: ص375.

* * *

وهذا الشاعر (صفاء الحيدري) يشاهد أما تحدق في فلذة كبدها لتتأكد من استغراقه في نومه واستسلامه إلى أحلامه الطفولية البريئة، فقال وهو منبهر بذلك المنظر المؤثر شعراً على لسان تلك الأم:

أتراه ناما ؟

أيصيح ماما ؟

ولدي

هو فلذة الكبد

أطعمته جسدي

أمسي له وغدي

هولي

أطعمته قبلي

وسقيته أملي

فمه على نهدي...

يمتص من شهدي

لما أهدهده

في المهد انشده

ما قال لي غده

وأنا أمدده

جفناي مرقده.. [1]

وهذه شاعرة وهبها الله رقة الشاعرية ورقة مشاعر الأمومة هي الشاعرة (صبرية الحسو) تناغي ولدها وتهدهده وهو في سريره يحدق في النجوم، فتقول مخاطبة إياه:

(1) ديوان صفاء الحيدري، المجموعة الكاملة، بيروت، د.ت: ص218-219 من " أغنية أم ".

من أجل أن تنعم بالنجوم

والشمس والمغيب

يا طفلي الحبيب

من أجل أطفال الغد القريب

من أجل أن ينعموا بالرخاء

من أجل أن يشعروا بالرخاء

كم أكره الحروب...

كم أعشق السلام

يا طفلي الحبيب يا بريء

براءة الحمام

من أجل أن تنعم بالغد المضيء

يا طفلي البريء...

من أجلنا يناضل الكبار

من أجل أن تنعم بالحياة[1]

وهذا الشاعر (عبد الستار القره غولي) [2] يرى طفله (محمد) وبراءة الطفولة ترتسم على أسارير وجهه كلها، فقال يناجيه ويناغيه:

محمـــــــد يـــــــا ولـــــــدي يـــــا فلـــــذة مـــــن كبـــــدي

يـــــــــا وردة اريجهـــــــــا أعطـــــــر مـــــــن ورد نـــــــدي

يـــــــا بلـــــــبلاً أنغامـــــــه تســـــــبي طيـــــــور الغـــــــرد

(1) ديوان قيد ولحن – صبرية عبد الرزاق الحسو، بغداد، 1959، مطبعة الوفاء: ص26 من قصيدة "من من أجلك يا طفلي".

(2) عبد الستار قره غولي- ولد عام 1906 إلى 1961، له مؤلفات عديدة من ضمنها ديوان مسرحيات الأحداث طبع في بغداد 1953، ينظر – معجم المؤلفين العراقيين، ص278.

يـــا منيتـــي يـــا جنتـــي يـــا كـــوكبي يـــا فرقـــدي[1]

وتمر الأيام لتزج بالشاعر في السجون فتأتيه الأخبار وهو في معتقله بأنه رزق بطفلة أسمتها أمها (نهى) فتتأجج في أعماق الشاعر مشاعر الأبوة فيخاطب ابنته التي حرمتها الأيام من دفء حنان الأبوة فأصبحا بعيدين عن بعضهما، فقال:

ابنتـــــي ذات الفطـــــن مـــا انـــت وحـــدك فـــي حـــزن

كـــم طفلـــة فقـــدت أبـــا وتجرعـــت كـــأس المحـــن

لا تيأســـي يـــا طفلتـــي لا تهربـــي كيـــد الـــزمن [2]

وإذا كان الشاعر القره غولي رزق بابنته وهو في معتقله فلم يكن وحده الذي يعيش في مثل تلك الظروف القاسية، فهذا الشاعر (محمد صالح بحر العلوم) تصله الأنباء بأنه رزق بأحد الأبناء فيحز في نفسه أن لا يغمر ولده الجديد البريء ببراءة حنان الأبوة ولم يلق منه ما يستحقه من التدليل الذي هو به جدير، فقال في ذلك:

لا تبتـــئس يـــا ولـــدي إن لـــم تـــدللك يـــدي

وارقـــد ودعنـــي أنـــا فـــي معتقلـــي لـــم أرقـــد

إنـــي أبـــوك، هـــذه بطـــولتي لـــم تجحـــد[3]

ونعود إلى الشاعرات العراقيات اللواتي أثرين شعر المناغاة بشعرهن الزاخر بالعاطفة فهذه الشاعرة (فطينة النائب) تحس بجلاء وعمق بالحب الذي يغمر كيانها نحو ولدها الوحيد (سعيد) فتخاطبه قائلة:

إني أحب ألا ترى ما يفعل الحب الغضوب؟

ولدي الوحيد نذرته لبلادنا وهو الحبيب

يا قلب نحن الصامدون وكم يحفزنا الوثوب[4]

وتنعقد كل أمال الشاعرة (فطينة النائب) على ذلك الولد الحبيب فتراه يوماً وهو يرقص في سريره يتمتم في كلمات لا تفهم لها معنى إلا أنها تقتحم أعماق قلبها فتتبوأ كل

(1) شعراء العراق المعاصرون: 171/1، وينظر- ديوان القره غولي: ص25-27.
(2) المصدر نفسه.
(3) ديوان محمد صالح بحر العلوم، ط2، 1986: 205/1.
(4) ديوان رسيس الحب، فطينة النائب: ص90 " لست معك ".

جهاته وحينئذ تتدفق قريحتها بشعر تستحثه فيه أن تستعجل نموه ليحقق آمالها وأمانيها التي تتطلع إليها بكل الشوق والحنين ولم تعقدها إلا عليه، فتقول مخاطبة له:

بنـــي متـــى تقـــوم إلـــى المعـــالي فتشـــفي قـــادراً ذاك الغلـــيلا؟

أراك بجـــانبي كـــالزهر غضـــاً رهيـــف الحـــس بســـاماً جمـــيلاً

ســـأرعى مهـــدك الســـامي بروحـــي فـــإن بأضـــلعي قلبـــاً حمـــولاً

منحتـــك يـــا ســـعيد رقـــاد جفنـــي ولـــن أرضـــى لعينيـــك الـــذبولا

فكـــن رجـــلاً وكـــافح فـــي بـــلادٍ أرى عـــدد الرجـــال بهـــا قلـــيلا[1]

وهذه الشاعرة (لميعة عباس عمارة) تتيه زهواً واعتزازاً حين وهبها الله أربعة أطفال فتوزع نظراتها الحانية بينهم لترى أيهم أقرب إلى نفسها وأدنى من روحها وإذا بها لا تجد أي ذرة من الفروقات بين مشاعرها تجاههم، لأنهم فلذات كبدها وقطع متناثرة من قبلها، وهل يستطيع الإنسان أن يفضل قطعة من قلبه على أخرى ! فقالت:

بنـــيَّ صـــدى حلمـــي فـــي الشـــروق وصـــورة وهـــم جـــلاه الوجـــود

أعـــزَّ وانضـــر ممـــا حملـــت واغـــزر عطـــراً وأحلـــى خـــدود

بأســـمرهم شـــهد روحـــي مـــذاب وابيضـــهم مـــن صـــفاء الوعـــود

لضـــحكاتهم رنـــة فـــي الشـــعور وقفـــزاتهم مـــرح الطـــائر

وأيـــديهم كلفيـــف الحريـــر تمـــر علـــى حســـي الخـــادر

لكـــلٍ ســـناه لكـــلٍ شـــذاه كأوتـــار قيثـــارة الشـــاعر[2]

مشاعر الأبناء تجاه أمهاتهم:

إن مشاعر الأبناء تجاه أمهاتهم، مشاعر فياضة متدفقة، لا يحدها مكان، ولا يغيرها زمان، ولا يعتورها فتور مهما امتدت بها الأيام، لأنها مشاعر طبيعية وغريزية، غرسها الله في حنايا قلوبهم فأمتدت جذورها إلى أعماق نفوسهم ووجدانهم.

كيف يستطيع الإنسان مهما أوتي من براعة البيان أن يصف تلك الرابطة العميقة التي تربط الأبناء بأمهاتهم، وكيف تأتيه المقدرة على تصوير ذلك الحب الإنساني الذي هو أسمى وأنبل وأعمق حب في الدنيا، تتجسد فيه كل معاني الصدق والوفاء... أنه عاطفة مشبوبة متوقدة، وشعور متدفق كالسيل الجارف، يحاول التعبير عما يجيش في النفوس من

(1) ديوان لهيب الروح، فطينة النائب، بغداد، 1955: ص9-12 من " آمال أم ".
(2) أدب المرأة العراقية في القرن العشرين: (بدوي طبانة): ص212 من قصيدة " الزاوية الخالية".

مشاعر الاعتراف بفضل الأمهات الذي يغمرن به الأبناء. كل هذه المشاعر المتوهجة تتجسد في حب الأبناء للأمهات.. ونحن حين نقول الأمهات، نعني ما نقول، لأن الأبناء حين يضفون حباً خاصاً للأمهات فلأن هناك علائق خاصة وروابط وثيقة تشد الأبناء بأمهاتهم، مضافاً إلى الحب العميق والروابط الأكيدة التي تربطهم بالأبوين معاً..

فالأم هي الأرض الخصبة الطيبة التي تنبت فيها بذور البنوة الطيبة وتنغرس في حقلها الزاهر نبتة الحب والخير والسلام.

والأمهات هن اللاتي يمنحن الأبناء – بعدما يهبهم الله تعالى نعمة الحياة – المكان الآمن من بطونهن وهم أجنة يقضون الأشهر التسعة براحة ودفء واستقرار، ويغذينهم من دمائهن ويسقينهم من أرواحهن ثم أنهم بعد أن يولدوا ويفتحوا عيونهم على الدنيا يتغذون من درهن النقي الصافي الممزوج بكل الحب والشفقة والحنان، لا يعيقهن حر ولا برد من أجل أن ينعم أولادهم بالرعاية الكافية ويسهرن معهم الليالي الطويلة التي تؤمن لهم الهدوء والاستقرار والاطمئنان والراحة والسعادة...

أجل، لهذه الأسباب الوثيقة تشد الأبناء بأمهاتهم روابط أشد وأعمق من كل روابط الحب الأخرى.

وبسبب هذا السر الإلهي العظيم نجد أنفسنا في كل مراحل حياتنا نبقى بأسس الحاجة إلى عطف وحب أمهاتنا ومتلهفين إلى أن يضممننا بحنوٍ إلى أحضانهن وصدورهن الكريمة.

كل هذه المشاعر الصادقة من الأبناء تجاه أمهاتهم حاول الشعراء تجسيد وتجسيم معانيها النبيلة السامية وإعطاءها ما تستحقه من التكريم والتعظيم والانحناء إجلالاً أمام ذلك الدور العظيم الخالد الذي تؤديه الأمهات من أجل انتعاش الحياة الأسرية والاجتماعية ومن أجل تربية وتخريج أبناء طيبين صالحين في المجتمع، متغذين من فيض ذلك الينبوع الذي لا ينضب من الحب والحنان.

نعم حاول الشعراء المحدثون في العراق أن يرسموا صوراً رائعة من مشاعر وفاء الأبناء تجاه الأمهات.

وهذا البحث يضم باقة عطرة من أشعار تلك المشاعر النبيلة الصادقة كم يزين تلك الباقة الشعرية ويزيدها عطراً وشذاً أن يتصدرها شاعرتان من شاعراتنا المعاصرات يعبرن عما يختلج في حناياهن من عواطف متأججة تجاه أمهاتهن فهذه الشاعرة (عاتكة الخزرجي) تجد أن الحب والحياة والنور الإلهي كله يتجسد في ملامح أمها، فتخاطبها قائلة في قصيدة بعنوان " أنت يا أماه ":

انت معنى الحب بل معنى الحياة أنت نور فاض من نور الإله

انت يا أماه من قلبي مناه أيعيش المرء دون الأمل؟

أنت بعد الله رمز يعبد تفتديه مهج بل أكبد

أنـــت يـــا أمـــاه ســـر ســـرمد ضـــل فيـــه الفكـــر منـــذ الأزل[1]

ولم تكتف بذلك بل تخاطب أمها العزيزة الغالية مرة أخرى ومن خلال أبيات أخر، فتقول لها بأنها قد تنسى أو تتناسى كل هوى يخامر نفسها إلا هوى الأم فإنها لا يمكنها أن تنساه يوم ما:

أمـــا هـــواك فلســـت مـــن أنســـاه يومـــاً إذا نســـي المحـــب هـــواه

أفنـــــى وكـــــأنني أحيـــــا لـــــه فـــأمر حبـــك كـــان لـــي أحـــلاه

أواه ! لـــو تـــدرين مـــا فعـــل الجـــوى بحشاشـــــة عـــــزت عليهـــــا الآه[2]

وتلك شاعرة أخرى هي (لميعة عباس عمارة) تجد في أمها هدى الطفولة ونغمة الحنان وملاك الرحمة، فتخاطبها قائلة:

أماه: يا هدي الطفولة والصبا

ويا نغمة الحنان التي تسري في نفسي

ويا ملاك الرحمة الذي يواسيني في مصيبتي

دمت لقلبي حارساً... ودام قلبك لي محباً

إن زلت قدمي، صحت... أمي

وإن مسني سقم، دعوت.. يا أمي

وإن حفَّ بي خطر، ناديت.. وأماه! [3]

والشعراء المعاصرون يمتلكون نفس المشاعر والأحاسيس التي تتدفق بها مشاعر وأحاسيس أخواتهم من الشواعر المرهفات، فيعبرون عن أنقى العواطف وأعمقها تجاه أمهاتهم، فهذا الشاعر (محمد الهاشمي) يحاول رسم العواطف المتأججة التي يعمر بها قلب الأم الرؤوم، فيقول من قصيدة له:

أي قلـــــــب كقلـــــــب أم رؤوم؟ ظمـــــت فـــــي شـــــغافه العاطفـــــات

---

(1) المجموعة الشعرية الكاملة: عاتكة الخزرجي، ط1، الكويت، 1986: 302.

(2) شاعرات عراقيات معاصرات: سلمان هادي آل طعمة، ط2، 1995 (مزيدة ومنقحة): ص148 من قصيدة بعنوان " أمي ".

(3) أدب المرأة العراقية في القرن العشرين: 196.

أيــن أمــي؟ ولا حبيــب كــأمي أيــن تلــك الشــمائل الطــاهرات

فــإذا مــا بكيــت آلمهــا صــوتي وســالت دموعهــا الحاميــات

وإذا مــا ضــحكت أنســت منهــا نظــرات ورائهــا بســمات

حملتنــي علــى يــديها وناطــت بــي قماطــاً تنوطــه الأمهــات

اوثقتني مثل الأسير وضمتني ولم تشف نفسها القبلات

هــو حــب مــن الســماء أتاهــا لــيس فيــه تهــاون وافتئــات[1]

وذلك الشاعر (عبد الرحمن البنا) نفتح ديوانه لنجد في طياته قصيدة يخاطب فيها أمه واصفاً حنانها:

يــا أم أنــت إذا مــا الليــل يــؤيني حنــان لطفــك بالحســنى يغطينــي

يــا أم أنــت مــلاذي أنــت مدرســتي أنــت الطبيــب مــن الأمــراض يشــفيني

يــا أم أنــت إذا مــا رحــت مقترفــاً ذنبــاً أتيــت بألطــافٍ تســليني[2]

وهذا الشاعر (الجواهري) لم ينس وهو مزمع على السفر أن يمر على أمه ليجدد العهد بها وبحبها، مجدداً الأعراب عن مشاعره تجاهها، فيقول:

تعــالى المجــدُ يــا قفــص العظــام وبــورك فــي رحيلــك والمقــام

إلى أن يقول فيها:

تعــالى المجــد يــا أمَّ الرزايــا تمخــض عــن جبــابرةٍ عظــام

تملــى القبــر منهــا أيّ عطــرٍ ووجــه الأرض أيَّ فتــىً همــام

حججــت إليــك والــدنيا تلاقــي عليــك بكــل قاصــمةٍ عقــام

وطــارت بــي علــى الخمسين ذكرى اقتلتنــي إلــى عهــد الفطــام

وحطــت بــين تلــك وبــين هــذي حمــول مــن دمــوعٍ وابتســام

(1) ديوان السيد محمد الهاشمي البغدادي، تقديم: د. عبد الله الجبوري، الجمهورية العراقية، وزارة الإعلام، 1977، دار الحرية للطباعة، بغداد: 205، وينظر الأدب العصري في العراق العربي: 29.
(2) ديوان البنا: 176/2.

فمـا هـي غيـر أن لاحـت لعينـي مخايـلُ مـن ملامحـك الوسـام

وطفـت بخـاطري حتـى تمشـي حنانـك مثـل بـرءٍ فـي سـقام

وكنـت السـمع منـي لاورائـي سـواك صـدى يـرن ولا أمـامي[1]

وهذا شاعر آخر هو (كاظم الخلف) [2] يحيي أمه ويصف معاناتها من أجله، فيقول: فيقول:

رعيت – رعاك الله- بالحب صبية صغاراً فكنت الأمن والأب والجدا

تحملت أصناف العذاب لأجلهم وأجهدت منك العين والقلب والزندا

وكنت إذا أرخى الظلام سدوله فطرفك لا يكرى وقلبك لا يهدا

وإن ضاقت الدنيا بعينيك مرة صبرت فإن الشوك لا يحجب الوردا

تذكرت والذكرى علي عزيزة وقد يصدأ التبر النضار ولا تصدا

فإن أنس لا أنسى ترانيمك التي بأنغامها يوماً هززت لي المهدا

تعلمت منها الشعر والحب والندى فما كان في الدنيا أحب ولا أندى

ولكنني لما قصدتك شارحاً لك الحب ما أغنى القريض ولا أجدى

أحبك يا أماه حتى كأنني لغيرك ما صنت المحبة والودا[3]

وهذا الشاعر (زهير القيسي) يعرب عن مدى حاجته إلى أن تضفي أمه حنانها عليه، فيقول من قصيدة عنوانها " أماه ":

ظلل الهم جبيني

(1) ديوان الجواهري، طبعة بغداد، 1974: 81/4، من قصيدة عنوانها " قفص العظام " نظمها عندما قرر قرر الهجرة إلى مصر، فذهب إلى النجف ليودع والدته قبيل سفره فلما ودعها واستقل السيارة عائداً إلى بغداد هطلت دموعه لما دار في نفسه من أنه قد يكون يشاهد أمه المرة الأخيرة.

(2) كاظم الخلف – من مواليد النجف حصل على بكالوريوس في الاقتصاد ودبلوم معهد الدراسات الدولية في جامعة باريس، وعمل في السلك الدبلوماسي العراقي، وكان أول سفير للعراق في لندن بعد ثورة 17 تموز وكان سفير لدى الأمم المتحدة ووكيل الوزارة الخارجية. بدأ ينظم الشعر وهو في الثانوية.. مقابلة شخصية.

(3) ديوان ازاهير وأعاصير: كاظم الخلف، بغداد، 1984: 256 من قصيدة عنوانها " أماه ".

فخذيني

وأغمريني بالحنان

وامسحي دمعي وضميني فقد طال الهوان

وذوى زهري نديا في الهجير

فخذيني، إيه يا أم فقد يشفى السقام

في فؤادي البائس المضني الكسير[1]

وهذا الشاعر (عبد الرزاق عبد الواحد) يرى أمه الحبيبة وهي تنازع سكرات الموت فيتذكر ويستعيد لمحات وصوراً رائعة من حنانها، فيقول:

أدري بأنك رغم هول الداء لا تتكلمين

أدري بأنك تنزعين

وتغالطين الموت خشية أن أراك أنا المريض

تتألمين

أدري بأنك تنزعين

ويكاد يقتلني أنا الخاوي اليدين أنا المريض

مراك قربي تضحكين

كيلا تعذبني شكاتك ليت أنك تشتكين[2]

وهذا الشاعر (صالح جواد الطعمة) يرى أمه بنفس المنظر المؤلم الحزين فيعبر عن مشاعره تجاها بكل ألم وحرارة، ويصور منظرها المفزع أمامه، فيقول في قصيدة " أنات أم":

أي اثم جنيته أنت يا أم

فأمسيت مرتمى الآلآم؟

(1) ديوان أغاني الشبيبة الضائعة: زهير القيسي، بغداد، 1981: ص57-58 نظمها عام 1950.
(2) الشعر الحر في العراق – يوسف الصائغ: 225، " من حياتنا الطيبة ".

السعال الدامي، على هدأة الليل،

صراخ يهز صمت المنام

يستفز النيام، من ملعب الأحلام،

تتلوين، تذرفين دموعاً...

حانيات على الشباب المضام،

ثم تبكين- تومئين لطفليك

استفاقا- على غد الأيتام

فيطرد الأوهام والخيالات المريضة من أفكاره، فأمه ما زالت حية:
لا يزال الحنان، في قلب أمي

دفقة من سنى، يفل ظلامي

إنها حية، تتوج رأسي

قبلات، من ثغرها المستهام

أي اثم جنته أمي، لتحيا

في هواها، ضحية الآلام؟!(1)

ونختتم هذا البحث بقصيدة للشاعر (الرصافي) نقتطف منها بعض ما يعبر به عن مشاعره تجاه الأم فيعدد بعض معاناتها من أجل أولادها، مما يجعله يرى أن أوجب الواجبات إكرامها واحترامها وتبجيلها، فيقول من قصيدة عنوانها " حق الأم ":

أوجب الواجبات إكرام أمي إنَّ أمي أحقُ بالإكرام

حملتني ثقلاً ومن بعد حملي وضعتني مجهودة لتمام

ثم في الحول بعد ذاك وهذا أرضعتني إلى أوان فطامي

ورعتني في ظلمة الليل حتى تركت نومها لأجل منامي

(1) ديوان ظلال الغيوم: صالح جواد الطعمة، المجموعة الأولى، مطبعة الرابطة، 1950: 51.

فترعرعت ناشئاً ثم قد صرت غلاماً ولم أكن بغلام

كل هذا من فضل أمي ولولا فضلها كنت عرضة للحمام[1]

حنين الأبناء إلى الأمهات في رسائل شعرية:

درسنا في البحث السابق المشاعر العاطفية المتبادلة بين الأبناء وأمهاتهم، وما تمتلئ به حناياهم وتنطوي عليه قلوبهم من لهب تلك المشاعر، وتوهج تلك العواطف الإلهية المقدسة.

وهنا وفي هذا البحث سنقتصر الحديث على جانب معين من جوانب تلك العواطف الجياشة والمشاعر الملتهبة، وذلك حين يكابد الأبناء معاناة التغرب، ويعانون الآم الابتعاد عن الأمهات، فيشعرون وكأنهم افتقدوا اللمسات الدافئة والنظرات الحانية التي كانت تغمرهم بها أمهاتهم يوم كانوا يعيشون معها جنباً إلى جنب وهم مغمورون بذلك الدفء والحنان.

إن الغربة بحد ذاتها موجعة قاسية على أي إنسان يتغرب عن وطنه ويبتعد عن ذويه، ولكن وطأتها تكون أوجع وآلامها أقسى حين ينأى الإنسان عن أحب الناس إلى قلبه وأعزهم عليه.. أمه الحنون.. وهل هناك في الدنيا كلها أحب وأعز وأغلى من الأمهات اللاتي انغرس حبهن في حنايا نفوس أولادهن، فأزهر وأفرع وتفتحت زهوره وهي تفوح شذاً وعطراً.

لذلك نجد الإنسان دائماً وأبداً وفي كل الظروف والأحوال بأمس الحاجة إلى عطف أمه الفياض وحنانها المتدفق، ولكنه حين تتلبد سماؤه بغيوم الغرب المدلهمة وتكفهر أجواؤه بزوابع الوحدة والوحشة تكون حاجته أشد إلى نفحات ندية من ذلك الحنان المنعش للنفس الذي يبدد وحشتها ويعيد إليها هدوءها واطمئنانها..

وهكذا يكون الأبناء من مكان غربتهم.. النائي البعيد، وهكذا تحتدم مشاعرهم وتتدفق أحاسيسهم وتلتهب عواطفهم حين تتأجج نيران الشوق ويتوهج جمر الحنين في حناياهم إلى أمهاتهم العزيزات من ذلك المنتأى البعيد.

والشعراء من أولئك الأبناء يكونون أشد معاناة لأنهم أرهف إحساساً، فتتفجر قرائحهم عن قصائد يكتبونها وهم في غمرة تلك المعاناة يعانون آلامها ويكابدون أهوالها...

أجل، يتفجر إحساس الشاعر عن قصائد تلتهب بلوعة الحنين وتضطرم بنيران الشوق العاتية إلى أمه التي تعيش أيام ابتعاد ابنها وتغربه عنها على لهيب جمر الشوق، فلا يغمض لها جفن ولا يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار، فهي تحدق في الجدران التي حواليها لأنها تزدان وتزدهر بصورة أبنها الحبيب، فتقبلها حجراً حجراً تعبيراً عن شوق عنيف إلى ذلك الابن الحاضر.. الغائب..

---

(1) المنهل الصافي في شعر الرصافي: بقلم عبد الرزاق الهلالي، مطبعة المعارف، بغداد، 1964: ص49.

والحب العميق الأصيل الصادق الذي يربط بين الأم وولدها سرعان ما ينقل بأسلاكه الروحية إلى الابن المعذب دفقات ملتهبة من ذلك الشوق ومن ذلك الحنين فيقابل الابن شوق أمه بشوق يكاد يكون أشد عنفاً وبحنين يكاد يكون أكثر عمقاً.. فإذا كان ذلك الولد شاعراً، يكتب لأمه رسالة شعرية تحمل أصدق عواطفه وأرق أحاسيسه المعبرة عن بنوة وفية مخلصة صادقة.

فهذا الشاعر (عبد الرزاق محي الدين) [1] كان خلال فترة الأربعينات متغرباً في القاهرة من أجل طلب العلم وتحضير شهادة الدكتوراه، اشتدت به مشاعر الحب والحنين إلى أمه فكتب قصيدة رائعة ضمن رسالة بعث بها إليها في البريد، عنوانها " لك يا أمي " قال فيها:

لـك يـا أمـي كتـاب فـي البريـد فخذيـــــــــــــــــــــــــــه

والثميـــــه بحنـــــوٍ قبـــل أن تقرأيـــــــــــــــــــــــــــه

إن فـــي طـــي كتـــابي قطـــرةً مـــــــــــــن دمـــــــــــــوعي

هـــي عنـــوان كتـــاب معـــرب عـــــــــــن ولـــــــــــوعي

فضـــعيها لـــي فـــي قـــارورةٍ لرجـــــــــــــــــــــــوعي

إنهـــــا حبـــــة قلبـــــي صـــــعدتها نـــــار حبـــــي

علقـــت فـــي جبهـــة القرطـــاس كيمـــــــــــــا تعرفيـــــــــــــه

أنظـــري البـــدر فـــإني نـــاظر لـــــــــــــك فيـــــــــــــه

وإذا مـــا شـــئت عنـــي خبـــراً فســـــــــــــــــــــــــليه

فهـــــــــو أدرى بمقـــــــــامي وانتبـــــــــاهي ونيـــــــــامي

وهـــــو لـــــي خيـــــر ســـــميرٍ فـــــي الـــــدجى اصـــــطفيه

* * *

أنـــت يـــا مدرســـتي الأولـــى وقـــد كنـــــــــــــت طفـــــــــــــلاً

حيـــث درس الحـــب درس مـــبهم لـــــــــــــيس يملـــــــــــــي

(1) هو رئيس المجمع العلمي العراقي الأسبق.

حيــث لا أعــرف قــولاً واعيــه لـــــــــــــك قـــــــــــولا

صـــــفحة المهـــــد كتـــــابي نـــاظرٌ فـــي كـــل مـــا بـــي

تاليـــاً أنشـــودة الفجـــر متـــى قمـــــــــــت فيـــــــــــه[1]

وهذا أبن آخر من الشباب الفلسطيني الذي ذهب إلى أعماق الأرض المحتلة مع إخوانه المجاهدين الفدائيين فتذكر حنين أمه إليه وهو في عنفوان عمله الفدائي حين أثخنته الجراح فكتب إلى أمه رسالة صاغ معانيها شعراً رائعاً الشاعر (محمد جواد الغبان) معبراً فيها عن مشاعر ذلك الشاب وهو في ساحات الجهاد والفداء تجاه أمه الحنون، فقال من قصيدة عنوانها " رسالة من فدائي إلى أمه ":

أمـــاه ذكـــرك فـــي شـــفاهي يعـــذب والشـــوق نـــار فـــي الجـــوانح تلهـــب

أمـــاه تغمرنـــي الســـعادة والهنـــا وأنـــا أخـــط دمـــي إليـــك وأكتـــبُ

أمـــاه لا تبكـــي علـــيَّ وزغـــردي طربـــاً فمثلـــك مـــن يتيـــه ويطـــرب

تيهـــي اعتـــزازاً إن علمـــت بـــأنني بـــدم الشـــهادة والفـــداء مخضـــب

وتطلعـــي للصـــبح نصـــنع فجـــرهُ يزهـــو وبالنصـــر المبـــين مـــذهب

فلقـــد وهبنـــا للـــبلاد نفوســـنا والـــنفس أغلـــى كـــل شـــيءٍ يوهـــب[2]

وهذا الشاعر (عبد الوهاب البياتي) يصور لنا أمه – في رسالة يكتب بها إليها – خيالاً مرتعشاً يومي له بالعودة فيقول:

وخيال أمي الراعش الباكي الكئيب

يومي إلي بأن أعود

وإلى خطى ساعي البريد

تصغي وتصغي: " ليس في الدنيا جديد "

حتى الرسائل لا تعيد..

" صلي لأجلي، أنت يا أماه من وطني البعيد"

---

(1) ينظر مختارات الغبان من ديوان الشعر العربي – الشعر الحديث " مخطوط ": 167/2.
(2) ديوان مرفأ الجراح: محمد جواد الغبان " مخطوط ": ص13.

وتظل تلثمها كأن غلافها وجهي الكئيب[1]

وتلك قصيدة حنين وشوق أخرى من الشاعر (عبد الصاحب الموسوي) [2] يكتب بها بها إلى أمه العزيزة معبراً عن مكامن حبه ولاعج شوقه فيقول فيها:

خجلان أسال عنك يا أمي، لكي أهديك زهره

إن الزهور هنا تموت

لكن في قلبي من الأشواق زهره،

مبتلة بالدمع، قانية صموت.

أرسلت يا أمي رسالة

لك من دمشق، وكنت فيها

تتألقين على الحروف

إني لأعرف عنك يا أماه إنك تجهلين

ماذا كتبت، وتسألين!

لكنني لو طفت بصرتنا لما عرف الجميع

إلاك يا أماه حرفي [3]

وفي يوم من أيام الغربة القاسية الموجعة يشتد الشوق ويعصف بمشاعر الطفل البريء (مازن) أحد أبناء الشاعرة (لميعة عباس عمارة)، وتصل تلك الرسالة البريئة الصادقة المشاعر من ابنها البريء فتتأثر بها الأم ويلذع كبدها جمر الشوق المتأجج إليه ويبلغ بها التأثر درجة يلهب بها أحاسيسها الشعرية فتنظم محتويات تلك الرسالة شعراً على لسان ابنها الحبيب عنوانها (رسالة من مازن) نقتطف منها هذا المقطع:

---

(1) ديوان أباريق مهشمة: عبد الوهاب البياتي، ضمن المجموعة الكاملة، مج1، بيروت، دار العودة: ص229 من قصيدة بعنوان " الرحيل الأول".

(2) شاعر عراقي له ديوان (أحلام الفجر) نشر في بغداد 1951. تنظر ترجمته في معجم المؤلفين العراقيين، ص282.

(3) نقلاً عن ديوان (أحلام الفجر) لعبد الصاحب الموسوي، مطبعة المعارف، بغداد، 1959: ص90 من قصيدة بعنوان "شوق". علماً أن يوسف الصائغ في رسالته (الشعر الحر في العراق) قد نسب هذه القصيدة إلى الشاعر (سعدي يوسف) ص225، مع العلم بأننا رأيناها مثبتة في ديوان عبد الصاحب الموسوي مما اقتضى التنويه والتنبيه.

ما أطول ليل حزيران

وانت بعيدة

في الصيف.. ببغداد

تقترب الانجم

توشك تلتف بأغطية الغافين على السطح

وأرى صورتك ارتسمت

بسماءٍ صافيةٍ

مدي يدك

أصل الصدر الحاني

يا خالدة... وأنا الفاني[1]

وهذا الشاعر (محمد صالح بحر العلوم) حينما تلفه غياهب السجون، فتطل عليه صور رائعة من حنان أمه الحبيبة فتلفه في حناياها وعند ذلك يهزه شوق عارم فينظم قصيدة يرسل بها إلى أمه يقول فيها:

أمـاهُ لا تحسـبيني عنـك فـي جلـد ... روحـي لـديك فمـا يعنيـك مـن جسـدي

ذريـة فـي معقـل الأحـرار محـتملاً ... خشــونة العــيش محكومــاً بــلا أمــد

وجنبي الهم عن جنبيك واضطجعي ... علــى فـراشٍ مـن الإيمـان فـي رغـدٍ

بعثـت نفسـي لتـروى منـك غلتهـا ... فأثرتــك علــى جســمي ولــم تعــد

وســاورتني شــكوك مــن تخلفهــا ... عنــي فأرســلت فــي تعقيبهــا كبــدي

فظـل جسـمي بـلا نفـس ولا كبـد ... فـأين اكـتم عـن خصـمي لظـى كمـدي؟

أمـا لا تجزعـي حوشيت من جزع ... فأنــت أقــوى نســاء الحــي بالجلــد[1]

ج

(1) ديوان يسمونه الحب: لميعة عباس عمارة، دار العودة، بيروت، ط1، 1972: ص55.

وهذا شاعر آخر هو (بلند الحيدري) يكتب إلى أمه من سجنه أيضاً قصيدة تجيش فيها عواطفه تجاه أمه يجسد في أبياتها خوف الأم وقلقها فيقول فيها:

إني.. هنا..

في السجن يا أمي أجر براءتي

في ألف غل

أمي كباقي الأمهات

عينان.. تنتظران من آت لآت... [2]

ولكن فيما يبدو لي أن هذه القصيدة لم تصل إلى وهج القصائد التي ذكرناها آنفاً، والتي كانت تتألق فيها العاطفة ويشع منها الأسلوب روعةً وجمالاً.

ومن الطريف الممتع أن اختم هذا البحث برسالة شعرية طريفة من عالم دين كبير وهو في الوقت نفسه شاعر كبير هو السيد (رضا الموسوي الهندي) [3] كتب بها إلى أبنته وفلذة كبده العزيزة التي كانت تسكن بصحبة زوجها في بلد آخر غير البلد الذي كان فيه أبوها، فدفع به الشوق الأبوي العنيف إلى أن يكتب إليها هذين البيتين وذلك عام 1347هـ يقول فيهما:

كيف يطيب العيش أو ينفى الكمد ولاعج الاشواق في القلب اتقد

وها أنا أيدي الفراق أودعت في بلد جسمي وقلبي في (بلد) [4]

ولا يخفى ما في البيتين من صياغة رائعة ومعنى بديع، واحتوائهما على لونين من ألوان البديع هما (التورية) و(الجناس التام).

تحايا شعرية من الأبناء إلى الأمهات في عيد الأمومة:

الأم... هذه اللفظة التي تنبض رقة، وتتدفق عذوبة، وتتوهج سحراً.. كيف لكاتب..أي كاتب كان.. أن يستطيع تصوير معالم تلك الرقة، وروعة تلك العذوبة، وتوهج ذلك السحر.

---

(1) ديوان محمد صالح بحر العلوم، بغداد، دار التضامن، ط1، 1968: 211/1 من قصيدة نظمت عام 1942 عنوانها: " أماه ".

(2) ديوان خطوات في الغربة: بلند الحيدري – ضمن المجموعة الكاملة- بيروت، 1974: ص425، "أنها تنتظرني".

(3) ولد الشاعر في النجف 1873-1943، نشر نماذج من شعره علي الخاقاني في شعراء الغري: 4/85-11.

(4) ديوان السيد رضا الموسوي الهندي (ت1362هـ)، ط1، بيروت، 1988، جمعه السيد موسى الموسوي، وراجعه وعلق عليه، د. عبد الصاحب الموسوي: ص97.

الأم.. هذه الحروف الصغيرة.. هل بمقدور أي كاتب كان، مهما أوتي من سحر البيان، أن يرسم بريشة كل الأقلام المبدعة عظمة المعاني الجليلة والكبيرة والعظيمة التي تنطوي تحت هذه الحروف التي تتألق حباً وحناناً، وعطاءً، ليس له من حدود. فالأم – بدون أية مبالغة هي بحر زاهر، متلاطم بأمواج الدفء والحنان والوفاء.. وشاءت العناية الإلهية لهذا البحر العظيم أن يبقى زاخراً متدفقاً إلى أبد الآبدين لا ينضب عطاؤه ولا ينفد ماؤه الذي ينبت الزهور الفواحة المختلفة العطور والألوان.

الأم ذلك الصوت الرائع الذي فيه من الأنغام الشجية، ما يجعلنا نحس معه بكل الأمان، وبكل الحنان، الذي يبعث فينا وفي أعماقنا موجات من السعادة تتسرب إلى أعماقنا إلى أعماقنا وتتدفق في حنايانا.

تلك السعادة الدافئة الهانئة التي تعجز كل قواميس الدنيا عن وصفها والإحاطة بمعناها العميق الدقيق.

كيف يستطيع معجم من المعاجم أن يجسد معنى واحداً من معاني الأمومة العظيمة التي كفاها إكراماً وإعظاماً قول الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم): " ألجنة تحت أقدام الأمهات "[1]، فإذا كانت الجنان الوارفة الظلال تحت أقدام الأمهات كما يقول عليه أفضل الصلاة والسلام، فماذا في نظراتها الحانية وبسماتها المتلألئة وحنانها الدافئ.

وتنافس المسلمون في إعطاء الأم المكانة التي تليق بمقامها العظيم وعبروا عن ذلك بشتى وسائل التعبير المتاحة لعقولهم وعواطفهم.

وبقوا يتوارثون ذلك التقدير جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر... حتى دارت الدنيا دورتها التي انتهت بالأمة إلى ما لبد سماءها بالغيوم الداكنة، وجعل أجواءها مدلهمة، فتمطرها بوابل من التخلف والتأخر والانحطاط الذي طبع حياتها كلها في شتى مجالاتها الفكرية والاجتماعية بطابع الجمود والتقهقر... ومن الطبيعي أن ينعكس ذلك كله على مكانة الأم فيقلل من شأنها ويحاول أن ينزلها من الموضع الرفيع العظيم الذي وضعها الإسلام فيه...

أجل حتى تلك الإنسانة العظيمة التي لا يضاهي عظمتها شيء بما تضفيه الأم على أولادها وعلى الأسرة، ومن ثم على المجتمع كله والإنسانية بأسرها من حب وعاطفة وحنان.. حتى الأم حاولت تلك الفترة المظلمة في عصور التأخر والانحطاط، حاولت أن تنزلها من مكانتها التي لا تسمو إلى عظمتها شيء.. وقامت النهضة الحديثة في شتى ميادين الحياة وأعطيت المرأة جل حقوقها المهضومة، واستردت كثيراً مما اغتصبه منها المجتمع؛ وكانت الأم هي المرأة الأولى من بين نساء المجتمع كله تستعيد حقوقها وتنطلق الدعوات من هنا ومن هناك إلى الاحتفاء والاحتفال بها تكريماً لعطائها الكريم واعترافاً بمكانها المقدس.

ومن مظاهر ذلك الاحتفاء والاحتفال أن تداعت دول العالم وشعوبه إلى الاحتفال بالمرأة في يوم عالمي تشارك في الاحتفال به كل شعوب العالم، أطلقوا عليه اسم (عيد المرأة العالمي).

وشاركت الأمة العربية بأسرها دول العالم بهذا الاحتفال، والعراق بصورة خاصة كان من السباقين إلى ذلك الاحتفال اعترافاً بمنزلة المرأة ومقامها السامي الرفيع.

---

(1) مسند احمد بن حنبل: 429/3.

ولم تكتف الأمة العربية بذلك فرأت – من باب تكريم الأم والإشادة بفضلها والاعتراف بآلائها وألطافها – أن تجعل عيداً خاصاً يحتفل به العرب، أطلقوا عليه (عيد الأم العربية – أو عيد الأم) تكريماً للأم وتذكيراً بما أولوه العرب للأم من تعظيم وتكريم في صدر الإسلام للأمهات.. وانتهز البررة من الأبناء تلك المناسبة السعيدة والكبيرة والعظيمة، فأقاموا بعيد المرأة العربية الاحتفالات اللائقة به تكريماً للأم وتعبيراً عن عواطفهم الصادقة ومشاعرهم العميقة تجاهها؛ ونثروا زهور التبريكات على جباه أمهاتهم وكتبوا لهن بطاقات التهاني معربين بها عن ولائهم وحبهم العمقيق لهن...

والشعراء والشواعر من أولئك الأبناء الأوفياء، أذكت تلك المناسبة العظيمة مشاعرهم وألهبت وجدانهم فكتبوا أحلى القصائد وأغلاها بكلا العيدين: عيد المرأة، وعيد الأم. فهذه الشاعرة (وديعة الشبيبي) تبعث ببطاقة حب وتكريم إلى أمها (السيدة زينب) في عيدها المبارك فتقول:

زينب الحلوة والروعة ... يا أمي الحنون

أيُّ عيدٍ لاح دنيا ... من جمالٍ وفتون

عيدك الوضاء ما ... أسماهُ يا نور العيون

يا نشيد الحب والأشواق ... يا أحلى رنين

يملأ القلب سلاماً ... وأماناً ويقين

يا صفاء ونقاء، ... كنقاء الياسمين

يا جلالاً عبقرياً ... في قلوب الملهمين

وشعاعاً سرمدياً ... في عيون الحالمين

ليدم عيدك فينا ... مشرقاً عبر السنين[1]

وفي عام آخر تنتهز الشاعرة (وديعة) فرحة عيد الأم الذهبية الغالية لتعبر عن بالغ تعلقها بأمها الحنون، فتقول قصيدة بعنوان " أمنيات طيبة ":

إليك أحلى التهاني ... قد مازجتها الأماني

أماهُ عامٌ سعيدٌ ... تخضر فيه المغاني

(1) ديوان خواطر ملونة: وديعة الشبيبي، ط1، 1990، بغداد: ص155 قصيدة بعنوان " بطاقة حب في عيد الأم ".

حييـــــت قلبـــــاً رؤومـــــاً يـــــا نفحـــــة مـــــن حنـــــان

ســـــعدت عامـــــاً فعامـــــاً ترنـــــو لـــــك العينـــــان

هـــــذا دعـــــاءُ جنـــــاني قـــــد نـــــم عنـــــه لســـــاني

ففـــــاض شـــــعراً بقلبـــــي وهـــــزَّ شـــــوقاً كيـــــاني

أمـــــاه أغلـــــى المعـــــاني اهـــــديتها فـــــي بيـــــاني

لعـــــل فيهـــــا رجـــــاء يحيـــــي عزيـــــز الأمـــــاني[1]

وهذه الشاعرة السيدة (حياة الزبيدي) [2] تحيي النساء العربيات في يوم عيدهن الأغر المبارك، بقصيدة عنوانها " تحية إلى النساء العربيات ":

من القلب أصدق العاطفات

من القلب من ملجأ الذكريات

أحييك، أمي وأم الجميع

أحييك أمي فهل تعلمين

بأني قريباً أرد الجميل

إليك، وأن الحياة تسير

ونحن نسير، إلى كل خير

إلى الأمل المشرق المستنير

إلى الحق والمجد والانتصار[3]

ثم تقدم تحية إلى الأمهات العراقيات في عيد الأم، هذه الأم العظيمة التي تربي البنين على حب الوطن تقول:

---

(1) ديوان وديعة الشبيبي نفسه: ص131.

(2) حياة الزبيدي – شاعرة عراقية ولدت في الصويرة، لها ديوان (أغنية للثورة 1958). ينظر- معجم معجم المؤلفين العراقيين، ص390.

(3) ديوان الغد المشرق: حياة الزبيدي، مطابع دار الأخبار، 1952: ص21.

أحييك أمي بأرض العراق

بلاد النخيل بلاد الجبال

فيالك أما تربي البنين

على حب أوطانهم والحنين

وفي كل جارحة تغرسين

محبة شعب عريق مجيد

تغنيننا فيه حب العراق[1]

وهذه الشاعرة (فطينة النائب) يمر عليها " عيد الأم " فتغتنم الفرصة لتحيي الأمهات في عيدهن الأغر وتحيي نفسها كأم من خلال تلك التحية، فتقول في قصيدة عنوانها " تحية اكبار " ":

حي العراق وحيهنه أنى تردد ذكرهنه

الأمهات الحانيات بكل عادية ومحنه

المسبغات من الأمومة بردة في كل جنة

الساعيات إلى العلى الباذلات نفوسهنه

يا أيها التاريخ سجل إن علمت بفضلهنه

* * *

بوركت يا ذات الرسالة إذ حظيت بخير مهنه

سيري إلى العمل المقدس دون إبطاء ومنه

وتثقفي دوماً فإن العلم نور في الدجنه

وارعي زهوراً ناضرات في يديك بكل فطنه

(1) الديوان نفسه: ص23، نظمت في عام (1957).

فإذا تعبت فأنت أشرف قدوة بعيو نهنه

وإذا منحت فأنت أسمى الأمهات وكم منحن

وطني الحبيب بحاجةٍ لجهودهم وجهودكنه

وطني يهيب بنا اعملوا وتثقفوا من أجلهنه[1]

ولا نكتفي بهذا القدر من اختياراتنا في عيد الأم من شواعر العراق، وانتقل إلى شاعر آخر من الشعراء حيا الأمهات في عيدهن المبارك هو الشاعر (محمد جواد الغبان) بقصيدة عنوانها " حييتهن بعيدهن" نختتم بها بحثنا هذا ونورد منها قوله[2]:

حييتهن بعيدهنه وهتفت إكباراً لهنه

أنا إن أتيت لانثر الأزهار فوق جباههنه

فلأنهن منابع الوحي العظيم... وأنهنه...

وأنهن أرجُ الحياة، فكل نفحة زهرةٍ من عطرهنه

مالي أعددُ؟ إنما في الفكر ألفُ لأنهنه

لو قيل.. من رمز المحبة والحنان، لقلت هنه

أو قيل: أين ترى الأمان، لقلت في نظراتهنه

أو قيل: من أولى المدارس، لقلت في احضانهنه

لم أدر كيف تكون أيام الحبيبة بينهنه

فلذاك قد حييتهنه مباركاً أعيادهنه[3]

رثاء الوالدين لأولادهم[4]:

(1) الديوان نفسه: ص23، نظمت في عام (1957).
(2) ديوان رمسيس الحب: فطينة النائب، بغداد، 1971، ص14-15.
(3) ديوان على مرفأ الجراح: محمد جواد الغبان " مخطوط "، ص100-101.
(4) عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلي، إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى، كما كانوا كانوا يقفون على قبورهم مؤبنين لهم مثنين على خصالهم، قد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، الذي هو مصير مختوم لكل بني البشر. أنظر في ذلك: الرثاء – د.شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1959: ص7.

إن الأولاد[1] هم أفلاذ أكباد أبائهم وأمهاتهم لأنهم يمثلون حاضرهم المشرق ومستقبلهم الزاهر. وتتجلى لنا قيمة الأولاد وأهميتهم بالنسبة للوالدين حين نتذكر أن والديهم يرون فيهم الامتداد الطبيعي لوجودهم والإشعاع الوهاج الذي ينبعث من حياتهم ليرسم سطوره المشرقة على صفحات الخلود، باعتباره نتيجة من نتائج غريزة حب البقاء والحياة.

إن الأولاد – من بنين وبنات – تتلألأ بوجودهم البسمة على شفاه أمهاتهم وابائهم وتمتلئ برؤيتهم قلوبهم بالفرحة الغامرة التي تجعل حياتهم باسمة زاهية. ولا يمكن أن يصل فكر الإنسان وخياله مهما كانا واسعين إلى عمق العاطفة الجياشة والشعور الفياض الذي يكنه الآباء والأمهات لأبنائهم إلا إذا تهيأ لذلك الإنسان أن يعيش في ظلال تلك الأجواء العاطفية الزاخرة بالحب والحنان، ولا يمكن أيضاً أن يصل التصور الذهني إلى مدى الجراح العميقة التي لا تندمل عند فقدان الوالدين لأحد أولادهم، والأحزان الموجعة التي تتلبد بها سماؤهم، والدموع الحارة الملتهبة التي تتدفق من حنايا قلوبهم فتجري من عيونهم لهباً محرقاً وأسى ممضاً فيالفراغ الهائل الذي يتركه فقدان الأولاد وموتهم في نفوس آبائهم وأمهاتهم. إنه فراغ صاخب يضج ويعج بالذكريات الحلوة المرة، التي تملأ أجواءهم رعباً وقلقاً وتوتراً. مما لا شك فيه أن الموت هو قضاء الله وقدره – ولا راد لقضاء الله – وأنه النهاية الحتمية لكل حي. ولكنه في الوقت نفسه لا يوجد في الدنيا أي حزن ممض يغمر النفوس وجعاً وألماً وتمزقاً مثله، فإنه حين يدخل البيوت يجللها بالحداد ويلبسها أبراد السواد بعد أن كانت جدرانها تردد وتعزف أصداء ضحكات الأبناء وتشدو بالسعادة التي كانت ترتسم على كل معلم من معالمها، وإذا بكل شي من تلك الأجواء الجميلة يستحيل إلى ندب[2] وبكاء وعويل، حين يرى الوالدان الوهج في حياتهما منطفئاً وسماءها ملبدة بغيوم الحزن الداكنة التي تمطر وابلا من الأسى والألم العميق الذي يمزق القلوب ويشقق الأكباد. والموجع لهم أنهم حين يجوسون زوايا بيوتهم لا يسمعون فيها أي صوت إلا صدى أصوات بكائهم على الأولاد وأفلاذ الأكباد.. وأنى للدموع أن تقوم بالتنفيس عن النفوس الثكلى وتفصح عن الحزن الدفين والآهات الكئيبة. وإذا كان أولئك الآباء المفجوعون بفقد أبنائهم وأفلاذ أكبادهم من الشعراء الذين يبدعون عندما تلتهب أحاسيسهم وتتوهج مشاعرهم فإنهم يكونون أكثر تنفيساً عن حزنهم وأعمق تعبيراً عن الآهات والأحزان التي تتكدس في أعماقهم، لأن الشعر إذا كان نابعاً من أعماق وجدان الشاعر فإنه يكون المتنفس العميق الذي يجد الشاعر في ثناياه أصدق التعبير عن المشاعر

---

(1) الولد: هو المولود وهو (فعل) بمعنى (مفعول) ويطلق على الذكر والأنثى والواحد وغيره، ويجمع على أولاد، أنظر- مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني، أعده للنشر وأشرف على طبعه د. محمد احمد خلف الله، مكتبة أنجلو المصرية، 1970.
وأنظر – معجم ألفاظ القرآن الكريم – إصدار مجمع اللغة العربية في القاهرة، طبع الهيئة المصرية العامة لتأليف والنشر – ط2 – 1970: مادة (و ل د).

(2) يقول د. شوقي ضيف في كتابه (الرثاء) ص12. أن الندب هو – النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع.

والعواطف التي تختلج في حنايا القلب وخبايا النفس فإذا به يجد في ثنايا أبياته وقوافيه دموعاً أكثر حرارة من دموع عينيه تخفف من لواعج قلبه وتجفف من مدامع عينيه، ولا بد لنا هنا من الإشارة إلى البون الشاسع والفرق الكبير بين دموع العيون ودموع القوافي، فإن العيون إذا جفت منها الدموع – ولا بد لها أن تجف يوما ما – فإنها بعد جفافها يطويها الزمان ويلفها النسيان، ولا يبقى لها ذكر في أعماق الوجدان؛ ولكن دموع القوافي تظل باكية على مر العصور والدهور، كلما فتح إنسان صحائفها وحدق في سطورها وجدها تتدفق ألماً، حيث ترتسم على كلماتها وعلى حروفها جميعاً كل معالم اللوعة والحزن، وسبب ذلك فيما يبدو لي أن قصائد الرثاء المشحونة بالعاطفة والمتوهجة بمرارة الألم تظل جديدة، وتبقى كلماتها حية تنبض بصدق العاطفة وعمق الشعور بحيث تترك في نفس قارئها أبلغ الأثر، ولا يمكن للسنين أن تمحو ذلك الأثر البالغ. والذي لفت انتباهي هنا وشدني إليه بحيث استوقفني فوقفت عنده ملياً، هو أن تلك الدموع الشعرية التي نظمت لآلئها في رثاء الأولاد من بنين وبنات والتي هي مادة هذا البحث، كانت كلها مراثي شجية من الآباء لأبنائهم.. أجل من الآباء فقط دون الأمهات – على الجهد الكبير والواسع الذي بذلته وأنا أبحث في ثنايا مراجع البحث ودواوين الشعر الحديث وحتى الصحف والمجلات استقصيها، وبتعبير أدق حاولت استقصاءها على كثرتها وصعوبة الحصول على بعض أعدادها – فلم أجد فيها جميعاً شاعرة واحدة من شاعرات العراق في العصر الحديث جاشت قريحتها برثاء أحد أولادها المفجوعة بفقدهم. تلك القضية التي استوقفتني، وكان علي بمقتضى أمانة البحث والجهد الذي يترتب على كدراسة أن أبذله عند كل ما يعترضني من تساؤلات يجب أن أجد الإجابة عليها، أو محاولة تبرير عدم وجود الجواب الشافي والكافي... آباء شعراء يرثون أولادهم فأين الأمهات الشاعرات فغيابهن عن هذا الميدان استوقفني – كما قلت – ويستوقف غيري ممن يبحث عن الحقيقة ويريد الوصول إليها. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا.. ألم تكن في العراق في العصر الحديث أمهات شاعرات**!؟** والجواب عن ذلك: بلى، ولكن – وهذا ما أوصلني إليه البحث والتفكير العميق في الأمر – أجل: ولكن الشاعرات في العصر الحديث قليلات جداً في الفترة التي كانت موضوعاً لرسالتي هذه، وهي فترة ليست بالقليلة زمنياً، حيث تمتد ثمانية وخمسين عاماً بالتمام والكمال.. لم أجد خلالها من الشاعرات العراقيات من لها صلة بموضوعي سوى عدد محدود لا يتجاوز أصابع اليدين، ومن أجل الدقة فقد كان عددهن سبع شاعرات فقط وهذا عدد قليل وضئيل جداً بما يقابله من الشعراء الذين شملهم البحث والبالغ عددهم خمسين شاعراً.. وهو عدد كبير بلا شك.. وبالإضافة إلى قلة عدد تلكم الشاعرات فقد شاءت لهن الأقدار أن لا تفجع واحدة من تلك السبعة بموت أحد أبنائهن.. وبطبيعة الحال ونتيجة لذلك لم نجد في ثنايا شعر تلكم الشاعرات قصيدة واحدة في رثاء الأبناء.. ولما كنا في صدد التبرير والتعليل فإننا يجب أن لا نغفل الإشارة إلى غزارة عاطفة الأم وعمقها وسعتها، بالإضافة إلى رقة تلك العاطفة وتوهجها وتوقدها مما يجعلها – كامرأة وكأم- أن تنحصر وسيلة تعبيرها عن آلامها وأحزانها بالدموع بل والصراخ والعويل وإذا لم تجد ذلك شافياً للتعبير عن حزنها وألمها تلجأ إلى خمش الوجه ولطم الخدود مما يندر جداً أن يفعله الرجال في مجال التعبير عن أحزانهم وآلامهم لأنهم أربط جأشاً وأشد تماسكاً وأكثر

تصبراً وتأسياً بحكم تركيبهم النفسي والاجتماعي. وبعد توضيح ذلك يجدر بنا أن لا نستغرب إذا وجدنا بأن مراثي الأبناء في مجال دراستي منحصر بالآباء.. وبالآباء وحدهم.. وكما قلنا في بداية هذا البحث أن الأبناء أفلاذ أكباد آبائهم وأمهاتهم، وأن فقدانهم يترك جراحاً عميقة لا تندمل في قلوب والديهم الذين إذا تفجرت قرائحهم في رثائهم فأنها تتفجر عن حزن دفين وألم عميق. ولعل الأشعار التي هي محل الاستشهاد في فصول هذه الرسالة وأبحاثها كان من أهم مميزاتها وخصائصها أنها تعبق بشذا الرقة وتفوح بأرج العذوبة وذلك لأن موضوع الرسالة الذي هو (الأمومة والبنوة في الشعر العراقي الحديث) من أغزر المواضيع وأشدها رقة وعذوبة، ولكن تلك الرقة والعذوبة تبلغ ذروتها في شواهد هذا البحث – والبحث الذي يليه – لأنهما يتعلقان بالرثاء، والرثاء من أصدق الشعر الإنساني تعبيراً عن عمق المشاعر وصدقها (فتسيل كلمات الشعراء وأشعارهم الحزينة وكأنها تسيل من جروح لا ترقأ في القلوب) [1]. وها هي الشواهد الشعرية التي تتعلق بمضمون بحثنا هذا وهي من أكثر الشواهد في فصول هذا البحث وأعمقها تعبيراً عن العواطف الجياشة والمشاعر الحزينة، فهذا الشاعر (عباس شبر) يفقد بنتاً له في السادسة من عمرها فقال في رثائها قصيدة بعنوان " طفلتي" والتي مطلعها:

أيُّ عينٍ رأتك لم تبق عبرى ... تتهامى دماً وتذرف جمرا

أيها الزهرة التي اقتطفتها ... أنمل الموت وهي تعبق نشرا

فجعتني بك الصروف (لست) ... ليتها أكملت سنيك (عشرا)

عاجلت بالردى لساناً فصيحاً ... وفؤاداً طهراً ووجهاً أغرا

حبس الخطب منطقي فأستهلت ... مقلتي، تعصر المدامع عصرا

ما نظمت القريض فيك رثاء ... بل فؤاد قطعته فيك شعرا

إيه يا طفلتي ولم أغن شيئاً ... عنك هل أستطيع بعدك صبرا

فوداعاً يا طفلتي من ثكولٍ ... شق في باطن الحشى لك قبرا[2]

وهذا الشاعر (اليعقوبي) يخترم الموت منه أبناً صغيراً لم يتجاوز عمره بضعة أشهر وكان قد مات له قبله ولدان خلال عام واحد، فتحدرت دموعه الشعرية بقصيدة رثاء لهم، غريزة العاطفة، عنوانها " ثلاثة أقمار " جاء فيها قوله:

---

(1) الرثاء: ص5.

(2) ديوان الموشور- عباس شبر، تحقيق- جواد شبر (ط، 1978): ص165.

بنـي الـذين استوطنوا الأرض منـزلاً بعيـداً علـى قـربٍ مـن العهـد بالـدار
ذوى مــنكم روض الصــبا فكــأنني باجــداثكم واريــت طاقــة أزهــار
ذهبـتم صـغاراً غيـر أن مصـابكم يزيـد بإعظـامٍ علـيَّ وأكبـار
فحـال بعينـي النهـار دجنـة[1] غـداة خبـت مـنكم سـواطع أنـوار
أفـي كـل يـوم مـن فـؤادي قطعـة أوسـدها مـا بـين رمـل وأحجـار
ومـا كنـت أدري قبلهـا أن بقعـةً مـن الأرض قـد ضـمت ثلاثـة أقمـار
بكيت على فقد (الحسين) ومارقا[2] علـى(جعفـر)مـن قبلـه دمعـي الجـاري
وهيج لـي أحـزان يعقـوب (يوسـف) وجـدد مـن يومهـا أي تـذكار
أبيـتم علـى عينـي وقلبـي راحـة فـدمعٌ علـى دمـعٍ ونـارٌ علـى نـار
وكنـت أصـوغ الشـعر فـيكم تشـبباً فعـادت رثـاءً فـيكم جـلُّ أشـعاري
حللـتم عـرى صـبري وكانـت وثيقـةً وابـدلتم صـفو الحيـاة بأكـدار[3]

وهذا الشاعر (عبد المنعم الفرطوسي) يفجع بوفاة طفله الصغير(علي) فتتفجر قريحته بقصيدة رثاء بلغت مئة بيت، تعرب عن صدمة للقلب قد هدمت وصدعت أركانه فجعلته قطعاً متناثرة، فارتمى بعده جسداً مهدماً بلا روح. نقتطف منها قوله:

أبنـيَّ يـا أنشـودةَ الأمـل يـا لـذة النجـوى لمبتهـل
يـا عـود أنغـامي وقـد سـكنت حتـى نوابضـه عـن الغـزل
يـا وحـي أفكـاري وقـد هـدأت حتـى خواطرهـا عـن العمـل
يـا بسـمةً بفمـي قـد أئتلقـت ثـم اختفـت بالـدمع مـن مقـل
أيتمـت قلبـاً كنـت مفزعـه فـي هجمـة الأحـداث والغيـل

(1) دجنة: السواد والظلمة.. ينظر – المعجم الوسيط.
(2) رقا: هدأ، وحذفت الهمزة للضرورة الشعرية.
(3) ديوان اليعقوبي: ص156 ونشرت القصيدة في مج5 مجلة الاعتدال عام (1357هـ-1938م).

جفنـــاً قريحـــاً كنـــت تكحلـــه بـــالنور فـــي عينيـــك والكحـــل

أمـــاً رؤومـــاً فيـــك قـــد فجعـــت فـــذوت حشاشـــتها مـــن الثكـــل

قـــد كنـــت ثغـــراً فـــي مباســـمها يفتـــر بـــين الـــدمع والقبـــل

تحيـــا بـــلا قلـــبٍ تحـــس بـــه وتعـــيش فـــي دنيـــا بـــلا أمـــل

يـــا صـــدمةً للقلـــب قـــد هـــدمت أركانـــه فـــي حـــادثٍ جلـــل

فـــإذا بـــه كســـرٌ مبعثـــرةٌ بعـــضٌ بـــبعضٍ غيـــر متصـــل[1]

وهذا الشاعر (خيري الهنداوي) يرثى ولده البكر (عارف) وقد أودى به الردى وهو في السابعة من عمره بقصيدة طويلة يقول فيها:

أيـا حـاملي الـنعش الصـغير تريثـوا خـذوا معكـم هـذا الكبيـر إلـى القبـر

قفـوا لأرى وجـه الـذي كـان ينجلـي برؤيتـه عنـي الشـديد مـن الضـر

قفـوا وخـذوني حـاملاً ومشـيعاً فما لي على بعد ابني اليوم من صبر[2]

صـــبر[2]

ثم يصور لنا كيف ذهب إلى قبر ابنه الحبيب مصطحباً الأم المفجوعة بابنها الفقيد الغالي، وكيف كانا يبحثان عن قبره بين القبور الدوارس، فقال:

مضـيت إلـى قبـر الحبيـب عشـيةً وذات الجوى الثكلى تسير على أثري

تشـاطرني الثكـل الممـض بزفـرةٍ تـردد مـا بـين الترائـب والنحـر

وقفنـا علـى الاجـداث[3] وهـي نحيي الصوى[5] منهن بالادمع الغزر

دوارس[4]

نفـتش عـن قبـر بـه اودع الـردع مـن الـدل غصـناً غالـه الـدهر بالكسـر

فجعنـا بـلا رشـدٍ عليـه يقودنـا إليـه الأسـى مـن حيـث نـدري ولانـدري

نشـم الثـرى طـوراً وطـوراً نضـمه إلى الصدر نستشفي به غله الصدر[1]

---

(1) ديوان عبد المنعم الفرطوسي: 237/2.
(2) خيري الهنداوي – حياته وشعره: د. يوسف عز الدين (1974): ص242، بعنوان " في النعش".
(3) الاجداث – جمع – (جدث) وهو (القبر).
(4) دوارس – مفردها (درس) وهو (الرسم).
(5) الصوى: الحجارة والواحدة منهن (صوة).

ثم يقول بعد ذلك مخاطباً ابنه العزيز بلسان أمه المفجوعة الثكلى بشعر يعبر عن مدى لوعة الأم وحزنها وذلك بقوله:

بنـيَّ أفـق هـذا أبـوك بجـانبي ... يـزورك فاسـتقبله بـاللطف والبـر

فقم وأجل عنه الحزن في بشرك ... عهدناه قبل اليوم في وجهك الحر

بني أجب صوتي بحق أمومتي ... بني عداكَ الوقر ما فيك من وقر

سكوتك قد أدمى فؤادي وزادني ... جوى فوق مابي من لهيب ومن سعر

بني لقد افقدتني الصبر والحجى ... وجرعتني كأساً أمر من الصبر[2]

وهذا الشاعر (عبد الحسين الأزري) يفجع قلبه بوفاة ولده الذي بدأ يضع قدميه على أعتاب الصبا ففاجأته المنية. ويهزه فقد ابنه الحبيب (صبيح) بقصيدة عنوانها " ولدي صبيح " يناجيه فيها معبراً عن بالغ لوعته وأساه بقوله:

بين نشر الدجى وطيِّ النهار ... سبق الشمس للمغيب هناري

أيها الطائر المغرد في الدا ... ر صباحاً كعادة الأطيار

فاجأتك المنون والعين منا ... ترقب الأفق ساعة الأقطار

كسراج لما تلألأ نوراً ... أطفأته عواصف الأقدار

ما ظننّاك أن تمر علينا ... كمرور النسيم في الأسحار

أو كفصل الربيع قد أبهج العيـ ... ـن بأيامه اللطاف القصار

أيها الحاملون للقبر درجاً ... من عطورٍ أو باقةً من بهار

كفنوه بالورد فهو أخوهُ ... واجعلوا القبر سلةً من نضار

لا تهيلوا على الأقاحي[3] تراباً ... فحرام تعفر الأزهار[4]

---

(1) خيري الهنداوي – حياته وشعره: ص244 " وقفة على القبر ".
(2) خيري الهنداوي حياته وشعره: ص244 " خاطبة الأم ".
(3) الأقاحي: جمع " ق ح 1 " (الأقحوان) البابونج على افعلان وهو نبت الريح حواليه ورق أبيض ووسطه اصفر.
(4) ديوان عب الحسين الأزري: ص275، توفي ابنه (صبيح) وهو صبي سنة 1931م.

وهذا الشاعر (إبراهيم الوائلي) يفتقد طفلته الغالية التي سماها (حياة) ولم يسمها بهذا الاسم اعتباطاً، بل تفاؤلاً لها بأن تنعم بالحياة في كنف أبويها ولكن كانت له الأقدار بالمرصاد، فاختطفت منه تلك الطفلة التي كانت تغمر بيته وحياته بهجة وسعادة، فقال في رثائها قصيدة عنوانها " لن تنسى":

وطفلـــةٍ كلمـــا ناغيتهـــا عبثـــت ... منـــي بقلـــب بهـــا قـــد ذاب وافتتنـــا

تثـاءب المـوت فـي أجفانهـا شـرهاً ... وانقـض يخطـف منهـا الـروح والبـدنا

وقيـل: ماتـت "حيـاة" فارتمـت دفعـاً ... علـى الخـدود دمـوع مـن هنـا وهنـا

ماتـت ولـم تطـو عامـاً مـن طفولتهـا ... فيالـــدرٍّ عليهـــا جـــف واحتقنـــا[1]

ونرى من الغريب أن تبقى صورة هذه الطفلة البريئة عالقة في ذهن أبيها، فينظم فيها قصيدة تنبض بالعاطفة والمشاعر بعد أكثر من أربعين عاماً على وفاتها...

* * *

والأم التي أشرنا في ثنايا هذا البحث إلى شدة عاطفتها التي تحول بينها وبين التعبير بالكلمات، فتلجأ للدموع الغزيرة والآهات المثيرة وهي منفذها الوحيد في التعبير عن مواجع الألم، ألفت انتباه الشعراء فشجاهم منها ذلك، فحاولوا أن يصفوا الأم وهي بتلك الحال العاجزة عن التعبير؛ فهذا الشاعر (محمود الحبوبي) يرى أماً ثكلى فقدت ابنتها الوحيدة وهي لا تمتلك إلا العويل بل الصراخ، في رباعية عنوانها " أم تبكي وحيدتها " قال فيها:

أيُّ صـــوتٍ اســـهر الأعـــين مـــن ... راقـــدي الليـــل وراع الآنفســـا

صـــرخةٌ قـــد مزقـــت ســـتر الـــدجى ... بعـــدما مـــزق القلـــب الأســـى

أرســـلتها نفـــس ثكلـــى لـــم تجـــد ... بعـــد بنـــتٍ فقـــدتها مؤنســـا

أرســـــلتها للســـــما شـــــاكيةً ... مـــا تقاســـيه نفـــوس التعســـا[2]

وهذا الشاعر (جميل صدقي الزهاوي) يحدق في وجه أم لا تمتلك غير ألفاظ الدموع وكلمات الآهات، فقال يصف موقفها وهي تقف بكل الحزن واللوعة على قبر ابنتها الحبيب:

يـــا ابنتـــي أنـــت ســـلوتي ورجـــائي ... وســـراجي فـــي ليلـــة الأحـــزان

حلمـــي أنـــت فـــي منـــامي وذكـــرى ... حـين ادنـو مـن يقظتـي فـي لسـاني

---

(1) ديوان إبراهيم الوائلي، بغداد، 1981: 325/2 توفيت الطفلة عام 1937م.
(2) ديوان رباعيات الحبوبي، طبع النجف، 1951: ص77.

إن نفسي عليك يا أنس نفسي ذهبت أي وربها حسرات

أيها القبر هل علمت بأني قبل موتي دفنت فيك حياتي[1]

ويقف الشاعر (الزهاوي) مرة أخرى عند أم أخرى مفجوعة بوحيدها الذي اخترمته المنون، فيقول على لسان تلك الأم قصيدة عنوانها " هواجس ثكلى " يصور فيها لوعتها ومرارتها وهي تعتب على دهرها الذي أصابها في وحيدها:

أصابني في وحيدي غير مكترث لما بقلبي من حبٍ ومن ضرم

واحر قلباه من نار قد اضطرمت من سورة الثكل فيه أي مضطرم

يا دهر إنك لم تعطف على كبري ومارحمت بياض الشعر في لممي

قد اخترمت أعزَّ الناس قاطبةً علي تقسو فهلا كنت مخترمي

وقد بنيت به الآمال شاهقة فيا شواهق آمالي به انهدمي

وكنت آمل عوناً منه في كبري على صروف زماني ثم في هرمي

وللسعادة أيام قد انصرمتْ إما شقائي فهذا غير منصرم[2]

رثاء الأبناء لأمهاتهم:

إن الأم – ومنذ الأزل- تحمل أسمى المعاني الإنسانية النبيلة العظيمة، ومن أبسط الدلائل والقرائن على تلك المعاني أنها تملك من القابليات والمواهب ما تجعل به أولادها الصغار الأبرياء يتحسسون من أعماق وجدانهم بأن هناك قلباً حانياً يظللهم بحنانه ورعايته، ويقلق عليهم ويتعذب من أجلهم، خوفاً من أن يصيبهم أي مكروه.

والقلق والخوف من الصفات الطبيعية الغريزية في كل إنسان منذ أن يبدأ بمعانقة الحياة على وجه هذه البسيطة، والأبناء حين تساورهم لحظات رهيبة من حالات ذلك الخوف وذلك القلق الغريزي فإنهم يتكئون على صدر الأم الذي سرعان ما يبدد كل سحب ذلك الخوف والقلق ويجعل سماءهم صاحية ضاحية ينعمون بصفائها ونقائها.

ويبدأ أولئك الأولاد يكبرون ويكبر معهم حبهم لأمهم وتعلقهم بها، فهي معهم دائماً وأبداً يستمدون منها القوة ويستلهمون العزيمة فيشقون طريقهم في هذه الحياة وهي معهم أيضاً دائماً وأبداً تشد من تلك العزائم وتضاعف من تلك القوة حين تكون لهم روضة غناء في صحرائهم القاحلة ونسمة ندية في هجيرهم اللافح.

---

(1) ديوان الزهاوي – بقلم عبد الرزاق الهلالي (ط1972): ص87، ضمن مجموعة " الحديث شجون" شجون" قصيدة عنوانها " على قبر ابنتها".

(2) ديوان الزهاوي (ط1972)، مج1: ص509-511 من قصيدة نظمت عام 1930م.

ويكبرون... ويكبرون.. ويأخذ ذلك الحب وذلك التعلق بأمهاتهم في ازدياد، حتى يصل إلى درجة ليس لها حدود تحدها ولا آفاق تقف عندها.

وإذا كانت الحكمة الإلهية والإرادة الربانية اقتضت أن تخطف الأقدار كل زهرة، وتطفئ كل نجمة وتجفف كل نهر معطاء.. فلا بد اذن من أن يأتي يوم – مهم طال الأمد – يجد فيه الولد زهور روضته ذابلة ونجوم سمائه منطفئة ونهرة المتدفق المعطاء جافاً يابساً، وذلك كله بفقدان أمه الحبيبة التي كانت له كل ذلك بل وأبعد وأكبر من ذلك كله.

أجل وحين تقع الواقعة ويجد الابن سماءه متلبدة بالأحزان وأرضه مزروعة بالأشواك والأشجان فإنه يعيش آلاما مبرحة، وهموماً عنيفة، وأحزاناً رهيبة تكاد تمزق كيانه وتعصف بوجدانه من الفراغ العاطفي المرعب والجدب الوجداني القاتل.

إن الجراح التي يكابدها الإنسان في الحياة كثيرة ولكن جرح الموت أعمق كل تلك الجراح وأكبرها أثراً وأعمقها تأثيراً في النفس.

وجرح فقدان الأم أشد كل تلك الجراح عمقاً وألماً ووجعاً لأن حياة الإنسان بدون تلك العواطف الفياضة والحب المتدفق والحنان الدافئ لا تعني شيئاً.

ما أقسى وأشد أن يجد الأبناء كل تلك المعاني النبيلة التي عمقها قلب الأم الكبير تؤول إلى ظلمة القبر ووحشته، بين أكوام من التراب والأحجار.

ليس من الهين على أي إنسان أن يختطف الموت أعز من لديه في هذه الدنيا وأحن إنسان عليه لأنه لا حنان في الدنيا كلها يعدل حنان الأم.

صحيح أننا نعلم علم اليقين أن الدنيا دار فناء لا دار خلود وبقاء وكل نفس فيها ذائقة الموت (وعلى الناس أن يقبلوا الحياة كما هي.. ليقبلوها على أنها دار زوال وانتقال وليست دار بقاء واستمرار.. يقبل النهار المشرق ثم يدبر، ويخرج الليل المظلم وينعقد السحاب وتبكي السماء ثم تصحو وتصفو. والإنسان ضعيف أمام هذا التغير والتقلب لا يملك من أمره شيئاً) [1]... إنه يذرف الدموع لفراق الأحبة، ولكن ماذا تفيد الدموع وماذا يفيد الأسى والحزن**!؟**

وكل هذه الحقائق التي عرضناها عن الدنيا وفنائها والموت الذي لا بد منه، لا تتعدى ولا تتجاوز منطق العقل والحقائق الثابتة، ولكن الذي يجب أن لا ننساه أن الإنسان يتحكم فيه منطقاً العقل والعاطفة معاً فإنهما لا ينفكان عن بعضهما وتبقى العاطفة عميقة الجذور في الإنسان لها أثر بالغ في أعماله وكل ما يحيط به من الأمور والشؤون الشخصية والعامة.

وعليه ومن هذا الجانب العاطفي المهم جداً والذي يترك أثره البالغ على معالم النفس الإنسانية، ويكون لفقدان الأحبة وفي مقدمتهم الأم الحبيبة وقع شديد وأثر بالغ في الإنسان، فتفيض نفسه آلماً وتتدفق روحه لوعة وحزناً فلا يستطيع عند ذاك أن يحبس الدموع الحارة والآهات المحرقة والحسرات الموجعة التي تتزاحم في حناياه، وهي من أغزر الدموع الحارة وأوجع الآهات المحرقة التي تتفجر من أعماق نفوس الأبناء حين يفقدون أمهاتهم العزيزات الغاليات وبقدر غزارة الذكريات الحلوة التي يختزنها الأبناء في

---

(1) الرثاء: ص86-87.

ذاكرتهم العميقة عن أمهاتهم تكون غزارة الدموع، وكلما تتجدد ملامح تلك الذكريات يتجدد سكب الدموع وتدفقها.

والأبناء المفجوعون بأمهاتهم إذا كانوا يمتلكون موهبة الشعر فإننا نراهم حين يسكبون دموع الحزن واللوعة ويتجاذبون الآهات والحسرات ينظمون تلك الدموع قصائد حزينة وأبياتاً لتلك الأبيات؛ وهم حين يبكون فأنهم يلحنون نشيجهم وبكاءهم ألحاناً شجية على قيثارتهم الشعرية[1].- كما أشرنا إلى ذلك الجانب العاطفي في البحث السابق حين كنت أتحدث عن مشاعر الآباء اتجاه اللوعة العميقة التي يتركها فقدان أولادهم وبصورة خاصة مشاعر الشعراء منهم -.

وأنني ومن أجل إثراء هذا البحث بمراثي الشعراء لأمهاتهم في الشعر العراقي الحديث، بحثت عن الشعر الذي سأجد فيه بغيتي – حسب طاقتي وجهدي – بين طيات الدواوين المطبوعة والمخطوطة والمجاميع الشعرية الخاصة التي يحتفظ بها أصحابها من الأدباء بالإضافة إلى ما هو منشور من ذلك على صفحات الصحف والمجلات فلفت انتباهي أني وجدت مراثي الأمهات الشعرية تشغل حيزاً كبيراً من مساحة الشعر المتعلق بالأمومة والبنوة، بالإضافة إلى ما يمتاز به ذلك الشعر من غزارة العاطفة وصدقها وعمقها وحرارتها، لأنه يقتبس تلك الغزارة والصدق والعمق والحرارة من عواطف الأم نفسها التي أدمت قلب الشاعر بفقدانها وضياعها منه.

ولنقم الآن بجولة بين أولئك الشعراء الذين صهرت الأحزان قلوبهم فسكبوا الدموع الغزار قصائد رثاء طافحة بالألم والحزن.. ولعل أول من يستوقفنا ويشدنا إليه هو الشاعر (محمد باقر الشبيبي) لما في مرثيته لأمه من اللوعة وصدق العاطفة، ولعلها تأتي من أروع ما قيل من رثاء الأبناء للأمهات، ويقول فيها:

هذا سريرك لكن أين مثواك ... وأين أنت.. وماذا في مصلاك؟

مناحة شقت الأجواء وانطلقت ... تبكيك للملأ الأعلى وتنعاك

ونكبةٌ تركتنا في محافلنا ... ما بين باكية العينين أو باك

فلا الصباح صباحٌ عند روعته ... ولا النسيم نسيم دون رياك

أم الفضائل أخلاقاً وتربيةً ... بوركت خالدةً فينا سجاياك

قبلت كفيك إجلالاً فروعني ... أن لا تقبل للتوديع كفاك

يتيمة الدهر أشجى ما يروعنا ... مناحةٌ حسرت فيها يتاماك

لست الحزين الذي تنسى فجيعته ... أنا الحزين الذي هيهات ينساك

---

(1) ينظر – الرثاء: ص5.

إنـــا فقـــدنا بـــك الـــدنيا مباركـــةً لله أيـــــــةُ أم قـــــــد فقـــــــدناك

يـــا شـــعلة النـــور والآفـــاق مظلمـــةٌ مـــن ألهـــب الحـــزن فـــي الـــدنيا واطفـــاك[1]

وهذه مرثية أخرى للشاعر (رضا الموسوي الهندي) الذي عاش في مطلع القرن العشرين وطفحت على قصيدته مسحة من الأسلوب القديم إلا أننا لا ننكر أنها تفيض باللوعة والحزن، كما سنرى فيها قوله:

وعليـــك يـــا أمـــاه ألـــف تحيـــةٍ مشـــــفوعةٍ بـــــالعفو والرضـــــوان

وقف على الزفرات فيك جوانحي ونـــواظري وقـــف علـــى الهمـــلان

ماكنت منفرداً برزئك في الورى لـــو كـــان تعرفـــك الـــورى عرفـــاني

هيهـات لا أقضـي حقوقك أن يـذب قلبـــي الجـــوى ويذلـــه مـــن أجفـــاني

أنـــي وقـــد ربيتنـــي وكفلتنـــي وغـــــذوتني بـــــالبر والإحســـــان

فعلـــي يـــا أمـــاه شـــكرك واجـــبٌ مـــن بعـــد شـــكر الواحـــد الـــديان[2]

وهذه قصيدة أخرى للشيخ (محمد علي اليعقوبي) يمر على قبر والدته فتهيج به أحزانه وأشجانه وتتفجر قريحته عن القصيدة الآتية التي ربما كانت بأسلوبها تنحو منحى قصيدة السيد رضا الهندي ولكنها مشبوبة العاطفة والمشاعر كما نرى في قوله منها:

لـــــك الله مقبـــــورةً لا عـــــدا ثـــراك ملـــث[3] الحيـــا المـــاطر

فمـــا ضـــم قبـــرك غيـــر العفـــاف وغيـــر التقـــى والحجـــى البـــاهر

وكـم خطـرت فـي الحشـا للهمـوم إذا عـــن ذكـــرك فـــي خـــاطري

فـــديتك لـــو كـــان يجـــدي الفـــدا بمـــا عـــز مـــن نشـــب[4] وافـــر

اســـرح طرفـــي حـــولي فـــلا أرى غيـــر إحســـانك الغـــامر

نشـــأت لـــديك بحجـــر العـــلا وغـــــذيت بـــــاللبن الطـــــاهر

---

(1) مختارات الغبان من ديوان الشعر العربي " مخطوط ": 83/2 من قصيدة بعنوان " في ذمة الخلود " " نظمت هذه القصيدة في أواخر الثلاثينات.

(2) ديوان السيد رضا الهندي: ص116.

(3) ملث: منهمر.

(4) النشيب: المال.

فـلا العـيش بعـدك بالمسـتطاب ولا مربـــع الأنـــس بالعـــامر

ولـــولا التجلـــد للنـــاظرين نضـــحت فـــؤاد مـــن نـــاظري[1]

وهذا الشاعر (السيد محمد آل السيد سليمان) ينحو نفس المنحى لغةً وأسلوباً وعاطفة فيقول:

حشـاي علـى نـار الجـوى تتقلـب وقلبـي ببحـر الهـم يطفـو ويرسـب

ودمعي متى أرسلته من محاجري حســبت غمامــاً قطــره يتصــبب

لمفقودة لم تنظر العين شخصها ولـم يـدر مـن وارى الخبـاء المطنـب

لقد غالت الدنيا الذميمة شخصها فأضـحى بـبطن اللحـد وهـو مغيـب

وسالت دموعي يوم ساروا بنعشها دمـاً قانيـاً عـن ذائـب القلـب يعـرب

وهل يبرد الأحشاء دمعي وذكرها يجـــد بأحنـــاء الضـــلوع ويلعـــب

فياليـت جسـمي قبـل جسـمك فـي الثـــــــــــــــــرى فيغـدو بعفـر التـرب وهـو متـرب[2]

وهذا الشاعر (صالح الجعفري) تتفجر عاطفة الأمومة عنده عن رباعية يقول فيها:

تلقـــاك الإلـــه بكـــل بـــر بمثليـــه فقـــد لاقيـــت بـــرا

شـممت العطـف بـين يـديك عطـراً وشـمت[3]اللطـف فـي عينيـك فجـرا

وذقـت الحـب والإيمـان صـرفاً ومـــا أحلاهمـــا لبـــاً ودرا

ولـم أملـك جـزاءك غيـر أنـي ســألت الله أن يوفيــك أجــرا[4]

وأحسب أن قصيدة (محمد صالح بحر العلوم) في رثائه لأمه سائرة على نفس الأسلوب ولكنه في الوقت نفسه لا يخلو من عاطفة صادقة عميقة في قوله:

عيني على الدرب ترجو أن توافيني رســالةٌ منــك فيهــا مــا يعــافيني

---

(1) ديوان محمد علي اليعقوبي (ط1، 1975): 152/1 عنوانها " من وراء القبر " ارتجلها حين اجتاز على قبر والدته في وادي السلام بعد دفنها بقليل وكانت وفاتها يوم الثلاثاء 26 ربيع الأول سنة 1342هـ.

(2) البابليات: محمد علي اليعقوبي (ط 1955): 168/1.

(3) شمت: لمحت.

(4) ديوان صالح الجعفري: ص444، " مع أمي ".

وانـــت ادرى بقلبـــي فـــي تعلقـــه فـــيمن يعـــود إليهـــا علـــق تكـــويني

مـرت مـن البعـد أيـام جرعـت بهـا مـــرارةً فـــوق مقـــدوري وتمكينـــي

وكـان لـي أمـلٌ أن لا تزيـد علـى خمســين يومــاً، وهــذا كــل تخمينــي

ومـا تصـورت أن المـوت يسـبقني إليــك، ســبق شــغوفٍ فيــك مفتــون

وان نعيــك-والأســلاك توصــله إلـــي- يقطـــع أوصـــالي بســـكين

جربت أقسى الرزايا في الحياة، فما وجـــدت رزءاً كـــرزء الأم يـــدميني

لـو أنَّ لـي ألـف روحٍ لافتـديت بهـا أمـــاً بايمانهـــا كانـــت تغـــذيني[1]

وتصل بنا المسيرة في درب تلك المرثيات إلى قصيدة الشاعر (إبراهيم الوائلي) التي يختلف أسلوبها وأفكارها عن القصائد التي قبلها، فهي إلى شدة العاطفة وتوهجها أقرب، حيث يقول من قصيدة عنوانها " أماه "[2] حاول فيها أن يجمع شتات ما بعثره الحزن والهم:

أطبقت للمـوت – لا أطبقت – أجفانـاً فرحـت بعـدك أطـوي الليـل سـهرانا

واســـتدرجتك يـــد جبـــارة فثـــوى مـــن الأمومـــة ظـــل كـــان فيناتـــا

إنـــي فجعـت بقلـب منـك لسـت أرى ســـواه بالعاطفـــات الغـــر ملآنـــا

أودى به الموت عجلان الخطا فمضـى وكـــان يغمرنـــا حُبـــاً حُبـــاً وتحنانـــا

أمـاه.. أيـن الليـالي البـيض مـا برحـت فـــي الـــذهن عالقـــة أم أيـــن نجوانـــا؟

أمـاه..حسـبي وحسـب الـدهر عاتيـة نكبـــاء تعصـــف ألامـــاً وأحزانـــاً[3]

وهذه مقاطع من قصيدة لـ (حسن البياتي) أراها في عاطفتها وصياغتها أقل توهجاً وإشعاعاً، حيث يقول فيها متسائلاً عن أمه التي فقدها:

أماه لم غنت شفاهي لحن " أماه "

---

(1) ديوان محمد صالح بحر العلوم (ط1، 1969): 105/2، من قصيدة " كانت مثالاً لخير الأمهات " نظمت عام 1946م.

(2) فقد الشاعر أمه وقد توفيت في ريف البصرة في 27 شعبان 1363هـ-16 آب من سنة 1944م فنظم هذه القصيدة يبكيها وهو في بغداد.

(3) ديوان إبراهيم الوائلي: ص139.

* * *

روحي تناجي في سكون الليل: " رباه

أين التي في ظلها ينسى الأسى قلبي

أين التي بسنائها اهدى إلى دربي[1]

ويطرق الحزن أبواب شاعر من شعراء كربلاء هو (رضا صادق النقيب) فيختطف منه الموت أمه، ليمسي بعدها العيش موحشاً.. حيث نجد في مرثيته التالية قلة التوهج العاطفي والتأنق في الصياغة في قوله:

أ أمـاه أمسـى العـيش بعـدك موحشـاً فـؤادي مجـروح وعينـي تـدمع

حنانـاً بأطفـال يصـيحون جزعـاً وأكبـادهم جـرى غـدت تتقطـع

أفيقـي مـن الليـل الطويـل لتنظـري مـن اليـتم أطفـالاً غـدت تتوجـع[2]

ونلمس من خلال أبيات الشاعر تلك، لهجة العتاب المريرة ولكن هذه المرة ليس على القدر أو الموت، بل يعاتب أمه التي خلفت بعدها أطفالاً يتامى ليس لهم من يعيلهم، ولا من يعينهم على أحزانهم وعلى قسوة الحياة.

وكذلك الشاعر (عباس أبو الطوس) الذي يقول في رثائه لأمه بيتين نظمهما عام (1953م):

خطفـت أمـي المنـون فسـيلي يـا دمـوعي وزمجـري يـا كـروب

كيـف تزهـو لـي الحيـاة وتحلـو والأسـى مـلءُ أضـلعي واللهيـب؟[3]

ونعود إلى شاعر من شعراء بغداد هو (منير الذويب) [4] رثى أمه بقصيدة طويلة تسير على نفس النهج، يقول فيها:

أضـعت بموتـك حلـو الحنـان وطيـب الرجـاء، وصـفو الحيـاة

---

(1) المرأة في الشعر الحديث – المفرجي: ص63 عنوانها " ترنيمة حزن ".

(2) حصلت على نماذج شعرية لشعراء كربلاء عن طريق مقابلة شخصية مع الأديب الشاعر (سلمان هادي آل طعمة) وكان قد جمع نصوصاً عديدة عن الحقبة التي أدرسها من مجلات وجرائد كربلاء.

(3) نفسه.

(4) منير الذويب – ولد في بغداد 1922، لقب بشاعر الجيش والابتسامة. مقابلة شخصية.

وأصـــبح عنـــدي النعـــيم الحبيـــب -فواحســـرة- حلمـــاً مـــن ســـبات

فقـــدتك يـــا (أم) يـــا نفحـــة مـــن الطيـــب ياســـلوة للحـــزين

ويـــا زهـــرة هـــام فـــي حبهـــا زمانـــاً طـــويلاً (إلـــه المنـــون)

فيـــا زهـــرة ضـــج صـــدري بهـــا ويـــا آهـــة اطلعـــت للحنـــين

فجعـــت بحبـــي ولـــم يجـــدني إذا كـــان يجـــدي اليتـــيم الانـــين!؟

فـــذكراك عنـــدي لهـــا وقـــدة يزيـــد لظاهـــا تـــوالي الســـنين

اضـــعتك أمـــي واحســـرتاه علـــى حلـــم كـــامن فـــي الشـــعور

فيـــا حلمـــا – يانزيـــل الوهـــاد مـن الأرض- يـا ضـيف دنيـا القبـور

تحولـــت مـــن بســـمات الحيـــاة إلـــى عبـــرة مـــرة فـــي الصـــدور

إلـــى وحشـــة فـــي ســـهول الحيـــاة انـــاخ عليهـــا ظـــلام القبـــور[1]

والشعر الحديث المسمى بالشعر الحر لم يفته أن يشارك في ذلك اللون من الشعر، فهذا الشاعر (بدر شاكر السياب) يشارك في قصيدة رثاء، ولكن مشاركته فيما أرى لم تصل به إلى وهج قصيدة (محمد باقر الشبيبي) وغيرها في تألقها العاطفي، حيث يقول:

أماه ليتك لم تغيبي خلف سور من حجار

لا باب فيه لكي أدق ولا نوافذ في الجدار

كيف انطلقت على طريق لا يعود السائرون...

من ظلمة صفراء فيه كأنها غسق البحار[2]

وهذه قصيدة للشاعر (عبد الوهاب البياتي) وبالأسلوب نفسه فيقول في ذلك:

" أين ماما ؟" وأطرق المهد يبكي

والازاهير والنجوم عليه

---

(1) ديوان عبوس وابتسام ؛ منير الذويب، بغداد، 1961: ص56 " أمي الحبيبة " نظمها عام (1948).. مقابلة شخصية.

(2) السياب، دراسة حياته وشعره: ص394-396.

وسجت صيحة السماء وطنت

حشرجات السكون في اذنيه؟[1]

وأما الشاعر (صفاء الحيدري) فهو يقول قصيدة طويلة في رثاء أمه، اقتطفت منها الأبيات التالية والتي تسير كلها على هذا النسق:

هاهنا، فوق ترعة الامس كانت لي يا أم، دوحة جرداء

مسها حبك المطهر، فاستلقتْ، باكمامها رؤى خضراء

وسقاها الحنان، من ثديك العف كؤوسا، خمورها انداء

هي دنيا، سماؤها، روحك السمح، وآفاقها، هوى ورجاء

أينها؟ لم تعد غير نجوى، ذكريات تجرهن السنون

ومراث من الزهور وأكليل دموع، على الثرى، وغصون[2]

وهذا الشاعر (عطا الأعظمي) [3] يرثي أمه وقد سعر الحزن فؤاده فهطلت دموعه الغزار لتتحول إلى ديوان شعر حزين يكتب في مقدمته أهداء إلى روح أمه الطاهرة فيصوغ معاني ذلك الإهداء شعرا، يقول فيه:

كم رمت ان انظم فيك الرثاء وابعث النجوى حنانا إليك

لكن ذكراك تثير البكاء فيصمت الخاطر حزناً عليك

وتمسك الاقلام في راحتي حيرة وجدان كسير كئيب

اخط لكن من لظى عبرتي دمعاً على القرطاس بادي اللهيب

أن ثرىً قد نام فيه الحنان ووسد الطهر على سفحه

(1) ديوان ملائكة وشياطين: عبد الوهاب البياتي، مج1: ص126 قصيدة " نم بقلبي ".

(2) المجموعة الشعرية الكاملة للشاعر (صفاء الحيدري): ص354 من قصيدة " هي دنيا " وكتب الشاعر في مقدمة القصيدة اهداء يقول فيه " أيتها النائمة تحت الأطباق: إن كنت تسمعين فاسمعي هذه اللوعة الخرساء، تتفجر لأول مرة من قلب لم تعد فيه قطرة أمل، إنني ألقي اليوم جزاء تعذيبي لك، أيتها الأرملة الخرساء. إلى أمي فاطمة الشيخ إبراهيم الحيدري ".

(3) عطا الأعظمي – ولد في الموصل عام 1953، له ديوان (نور من الشرق). ينظر- معجم المؤلفين العراقيين، ص397.

أزكـــى مـــن الكـــافور وســـط الجنـــان ومـــــن دواليـــــه ومـــــن نفحـــــه

يـــا أم هـــذا لـــك بعـــض الجـــزاء بـل دون ذاك الفضـل " ذاك الجميـل

معترفـــاً جئتـــك.. أبـــدي الحيـــاء فهل إلـى عفوك لـي مـن سـبيل!؟ [1]

وفي هذا الباب، باب رثاء الأبناء للأمهات نجد محلاً للشواعر من النساء يرثين أمهاتهن وذلك بسبب عميق من عمق التأثر على فقد الأم، فهذه الشاعرة (نـازك الملائكـة) تقول من قصيدة " الزهرة السوداء ":

كنزنا الغالي تركناه هنا

لحظات ثم أسرعنا إليه

والتمسناه وراء المنحنى

وعلى التل فلم نعثر عليه... [2]

وهذه شاعرة أخرى هي (وديعة الشبيبي) تخاطب أمها الراحلة فتقول مناجية طيف أمها الحاني بقصيدة عنوانها " يا طيفها ":

يـــا طيـــف امـــي حانيـــاً قـــد شـــع فـــي دنيـــا وجـــودي

يـــا طيـــف أمـــي غاليـــاً خلـــدت كالأبـــد الابيـــد

نـــاديتني وهمســـت فـــي ســـمعي بأســـرار الخلـــود

ومـــلأت روحـــي بـــالمنى بالحـــب بالأمـــل الســـعيد

كـــن أنـــت وحـــدك مســـعدي فـــي عـــالمي الرحـــب المديـــد[3]

---

(1) ديوان نور من الشرق: عطا الأعظمي، الموصل، 1953: ص1-2 " إلى أمي ".

(2) قرارة الموجة: نازك الملائكة، مج2، ط1، 1971: ص311-320 والشاعرة (نازك) قد اختطت لنفسها لنفسها طريقاً جديداً في قصيدة الرثاء حتى صارت معلماً بارزاً في الحركة الشعرية المعاصرة، حيث رثت أمها بثلاث مراثي الأولى منها (أغنية الحزن) والثالثة (مقدم الحزن)، وقارئ تلك المراثي يدرك أن المرثية غائبة عن القصيدة لكن يستدل عليها من المرارة التي كانت تقطر على الأبيات ونبرة الحزن التي غلفتها، وبذلك نلحظ التغير في قصيدة الرثاء التقليدية، وذلك تبعاً لتغير ظروف المجتمع. ينظر في ذلك:
((الشعر النسوي في العراق مضامينه وخصائصه الفنية – من الحرب العالمية الثانية حتى ثورة تموز 1958)) رسالة ماجستير: علي محمد حسين الخالدي، كلية الآداب، جامعة بغداد: ص92-112.

(3) ديوان خواطر ملونه: وديعة جعفر الشبيبي (ط1، 1990): ص77.

وهذه شاعرة ثالثة من الشواعر، اللواتي عثرت لهن على رثاء لأمهاتهن هي (صبرية الحسو) فوجدتها تقول من قصيدة تبكي بها أمها، وتتساءل كيف رحلت عنها، فتقول:

أماه كيف تركتني وحدي ببيداء الحياة

وحدي أهيم بلا رفيق كي اسير على خطاه

أماه كيف رحلت والقلب الحزين إليك ظامي

أبداً يتوق إلى الحنان فلا يرى غير الأوام

أماه لورد البكاء إلى الحياة الذاهبين

لأذبت روحي بالبكاء وبالتوجع والانين

ظمأى أحن، إليك دوما في سكوتي في كلامي

وبيقظتي طيف الأمومة لا يفارقني أمامي[1]

ولو أردت أن أجمع ما عثرت عليه من القصائد الحزينة في رثاء الأمهات والآباء معاً لاجتمع لدي ديوان شعر رائع يطفح بالحزن والمرارة.

ولكني ومن أجل أن أبقى محافظة على الموضوعية والمنهجية، بالإضافة إلى حجم الرسالة الذي لا بد من مراعاته، اكتفيت بعرض نماذج من مراثي الأبناء لأمهاتهم تاركة مراثي الأبناء لآبائهم إلى بحث آخر اتمنى أن يوفقني الله تعالى لإنجازه.

ومراعاة للاعتبارات الفنية والأدبية والذوقية التي ألمعنا في ثنايا هذه الرسالة، أرى لا بد لي من الإشارة إلى بعض ما جاشت به قرائح أولئك الشعراء في رثاء أبائهم في النصف الأول من القرن العشرين الذي هو مدار هذا البحث، فكانت قصائدهم قمة في شعر الرثاء؛ لعل الدرة اليتيمة بين تلك الدرر البديعة هي قصيدة الشاعر (محمد باقر الشبيبي) التي يرثي بها أباه وعنوانها " اليتيمة " والتي مطلعها:

أذكراك أم هذي القيامة والحشر فديناك هل أنت الفقيد أم الذكر

إلى أن يقول فيها وما أروع قوله:

يقولون أبنهُ بشعرك إنه يلذ له من فيك أن ينشد الشعر

سأنشده من مقلتي قصيدة برغم القوافي إنها أدمع حمر

وأسكب أحشائي عليه من الأسى نشيداً وأحشائي إذا سكبت جمر

(1) ديوان قيد ولحن: صبرية عبد الرزاق الحسو: ص47، من قصيدة " أمي ".

رويـــدكم يـــا حامليـــه فإنـــه بقيـــة عهـــدٍ كـــل أيامـــه فخـــر

تلاقــت بــه كــل العصــور مدلــة ففــي قلبــه مــن كــل ناحيــة عصــر

ويقول فيها:

وقفت بهذا الحفل ابكيك فللتوى علي سبيل النظم وامتنع النثر

اعرني بياناً يخلب اللب ساحراً وإلا فإني لا بيانٌ ولا سحر

هلم ابي حي الوفود تزاحمت على الحفل واكتض الحمى ودوى القطر

إذا انشدوا الشعر البليغ تذكروا بانك موحيه فيمتنع الشعر

ابى الحفل إلا أن يراك فراعه جفاء –معاذ الله- بل راعه الذعر[1]

(1) الشاعر الثائر: الشيخ محمد باقر الشبيبي: تأليف عبد الرزاق الهلالي، ط1، بغداد، 1965: ص123، ص123، وينظر- المختارات من الشعر العربي الحديث (مخطوط): محمد جواد الغبان: 42/1.

الخلاصة

استهللت التمهيد بتعريف الأمومة والبنوة من وجهة نظر علم النفس والتربية والاجتماع، وأشرت فيه إلى مكانة الأم وشعر الأمومة والبنوة في العصر الجاهلي وعصر ما قبل العصر الحديث.

- وإذا كانت المظاهر الاجتماعية في العصر الجاهلي تدل على أن المرأة تابعة للرجل، فإن شخصيات نسائية كثيرة حفل بهن تاريخ الشعر الجاهلي.

وكان شعر الأمومة والنبوة في ذلك العصر لا يتعدى التعبير عن العواطف وتمجيد الصفات التي تفرضها روح ذلك العصر.

- وحين جاء الإسلام كرم الأبوين معاً وخص الأمومة المتمثلة بالمرأة بتكريم شمل كل مراحل حياتها، فمنع وأدها وأولى قضية زواجها كل اهتمامه، فكفل لها وحدها حق القبول أو الرفض، ومن مواقف الإسلام الحاسمة تجاه المرأة، عدم التفريق بين الأولاد من الذكور أو الإناث.

وطبع الإسلام شعر الأمومة والبنوة بطابعه الخاص، فمثلاً أشعار ترقيص الأطفال نجدها اكتست حلة جديدة تتناسب مع روح الإسم وأهدافه. كما بذل الإسلام جهوداً كبيرة في تهذيب العواطف الإنسانية فنجد الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم) يبكي على ولده الفقيد " إبراهيم" ويحتسبه عند الله ولا يقول ما يسخط الله في عنفوان حزنه، فسن بذلك قانون العواطف الإنسانية المهذبة.

- ووجدنا العصر الأموي عصر ترف وحضارة، أدى بكثير من النساء إلى دراسة العلوم الدينية والآداب، ومن أبرز ظواهر ذلك العصر كثرة الجواري والقيان، مما أدى إلى المنافسة الشديدة بينهن وبين الحرائر من الأمهات.

ولم يكن شعر الأمومة والبنوة في العصر الأموي ليختلف في أسلوبه وأغراضه عن الشعر في العصر الإسلامي، لأن العصر الأموي قريب من عصر صدر الإسلام، بل هو جزء منه وامتداداً له.

- وفي العصر العباسي ازدهرت الحياة الفكرية والاجتماعية وعم الرخاء والبذخ واتسع انتشار الجواري، فلا يكاد يخلو بيت من جارية، فأصبحت تلك الجواري سبباً مهماً من أسباب التنافس بينهن وبين الحرائر، ولا يخفى ما في ذلك من انعكاس على حياة الأسرة.

وقد وجدت الموقف في العصر العباسي من البنات مضطرباً، بين محب وكاره لهن، وأسباب ذلك مرتبطة بمستوى التفكير الاجتماعي للأسرة. ولا يخفى أن الموقف من كره البنات تتمثل فيه بقايا من الآثار الجاهلية. وأثبتنا من الشواهد الشعرية ما يدل على ذينك الموقفين المتباينين. ولفت نظري أثناء تصفحي ديوان الصنوبري – أنه رثى ابنته باثنتي عشرة قصيدة تنبض بالعاطفة واللوعة، ولم أجد في المصادر من رثى ابنته بهذا العدد من القصائد.

ولاحظت أن صورة الأم في أدب العصر العباسي مختلفة السمات والملامح تبعاً لاختلاف الظروف وتباين النظرة إليها في أغراض الشعر المختلفة في ذلك العصر.

ولفت نظري ظاهرة أخرى في ذلك العصر أن الأم كانت أحياناً ضحية للخصومات بين الشعراء فيجعلون منها مجالاً للشتم والهجاء.

- بعد البحث المضني والتقصي الشديد في دواوين قرون الفترة المظلمة، لم أجد أشعاراً تخص الأمومة والبنوة لا من قريب ولا من بعيد.. ومما يزيد من تثبتي أن موضوعي يعبر عن أسمى عاطفة إنسانية، هذه العاطفة لم تجد لها مكان في دواوين شعراء تلك الفترة التي كان شعرها يتصف بالتعقيد والتكلف والجمود.
- إن شعر الأمومة والبنوة الذي تحتويه هذه الرسالة تتجلى فيه العواطف المتوهجة والمشاعر الصادقة، كما تتجلى في أسلوبه العفوية والسهولة والرقة والعذوبة، وسبب ذلك فيها أرى أنه يعبر أنبل المشاعر الوجدانية والعاطفية في الوجود الإنساني.
- وإن شعر الأمومة والبنوة في بحثنا هذا كان ميدانه الشعر العمودي والشعر الحديث معاً، فكلا شعراء المدرستين عبروا بأساليبهم الشعرية عن أفكارهم تجاه الموضوع وإن كان الشعر العمودي أكثر وأوسع تناولاً لتلك المواضيع.
- قبل تناولي فصول الكتاب، قدمت مدخلاً تساءلت فيه.. هل بقي شعر الأمومة والبنوة على ما هو عليه في العصور السابقة؟، وقد تكفل بحثي من خلال فصوله الثلاثة الإجابة عن ذلك التساؤل، حيث ظهر لي جلياً أن أسلوب الشعراء في العصر الحديث يختلف اختلافاً جوهرياً عن أساليب العصور القديمة، بالإضافة إلى اختلاف البواعث والدواعي المحفزة لقول الشعر.
- كل فصل من فصول هذه الرسالة يتكون من عدة بحوث، ربما يكون شاركني آخرون، ولكن بحوثي في هذه الرسالة تمتاز بغزارة المادة التي أوصلتني إلى نتائج جديدة تنطوي على أمور مفيدة.
- اعتاد كثير من كتاب رسائل الماجستير والدكتوراه كما تبين لي ذلك من خلال تتبعي، أن جميع الأشعار التي تتعلق ببحوث وفصول رسائلهم لا يذكرون شيئاً منها بل يحيلون إليه في دواوين الشعراء أو الصحف والمجلات المنشورة فيها. ولكنني خرجت على هذا التقليد فاثبت مختارات من كل قصيدة تتعلق بكل موضوع، ليعيش بكل موضوع، ليعيش القارئ الأجواء الشعرية كاملة ويرى بأم عينيه أنها بالشكل الذي أشرت إليه.
- من ثنايا بحثي رأيت أن الأفكار العصرية الجديدة كان لها أثرها البالغ في بواعث الشعر ودواعيه وحتى الأغراض التي تناولها الشعر القديم اختلفت في العصر الحديث أساليبها وأهدافها، فالفخر مثلاً أصبحت مجالاته فخراً بالوطن أو بالانتماء السياسي ونحو ذلك بعد أن كان فخراً بالقبيلة، كما وجدت أن بعض الأغراض الشعرية انحسرت انحساراً كبيراً كالهجاء.
- كما ظهرت لي في ثنايا البحث أغراض جديدة في شعر الأمومة والبنوة تناولها العصر الحديث، فرضتها طبيعة العصر ومستويات فكره، فجاء ذلك الشعر مشبعاً بالروح الوطنية ومتأثراً بالتطورات الاجتماعية.

- وتبين لي من خلال البحث أن شعراء العراق المجددين في العصر الحديث تناولوا كثيراً من المشاكل الاجتماعية المتعلقة بالأمومة والبنوة بأفكار كثيراً ما يختلف بعضها عن بعض حسب تفكير وأراء الشاعر الذي يعرضها.
- ومما لفت انتباهي وقوف الشعراء المعاصرين عند المشاكل الاجتماعية المعاصرة، مما لم يتعرض له غيرهم من الشعراء في العصور السابقة، فعالجوا تلك المشاكل الاجتماعية الكثيرة كالزواج والطلاق والترمل بقصائد أغنت الشعر المعاصر بما يعود على المجتمع بالنفع الكثير.
- ولفت انتباهي أيضاً أن النساء الشواعر عالجن المشاكل ذاتها كما عالجها إخوانهن من الشعراء.
- وظاهرة أخرى من ظواهر شعر الأمومة والبنوة في العصر الحديث أن الشعراء في العصور القديمة كانوا يضيقون كل الضيق بولادة البنات ويبتهجون بولادة الذكور، لكن شعراء العصر الحديث يتقبلون وليدهم الجديد بكل الفرح والرضا، سواء كان ذكراً أو أنثى.
- ومن الظواهر الجديدة في هذا الشعر، وقوف الشعراء المجددين بصرامة أمام ظاهرة الزواج بالإكراه وبيع المرأة كالسلعة الرخيصة، موقفاً حازماً يتناقض مع موقف الشعراء في العصور السابقة.
- خلال مقارنتي في بحوث الفصل الثاني بين الأمهات المتعلمات والجاهلات وخلال حديثي عن الحجاب، فرض نفسه علي الحديث عن المعارك الأدبية التي دارت في هذا القرن حول حجاب المرأة وتعليمها مما لم أجده في أي بحث معاصر مشابه.
- تميزت فترة دراستي لشعر الأمومة والبنوة بنزول المرأة العصرية إلى ميادين العمل، فبدا لي في ثنايا البحث انقسام الآراء حول ذلك فبين متطرف منادٍ بمشاركتها الرجل في كل شيء من الأعمال – كالزهاوي – وبين داعٍ إلى قيامها بالأعمال التي تناسب تركيبها الطبيعي والنفسي والجسدي، وبين محافظ يدعو إلى اكتفائها بالعمل المؤهلة له في إدارة البيت وتربية الأولاد؛ فأفرز ذلك الاختلاف من القصائد التي أثرت الشعر الحديث.

وشاركت الشواعر من النساء في تلك الدعوات وعالجت بعضهن نزول المرأة للعمل وتركها رعاية الأبناء بيد الخادمات الجاهلات – كالشاعرة فطينة النائب -.

- ومن بين بحوثي التي اعتز بها في هذه الرسالة، البحث الذي يتعلق بوقوع المرأة في الخطيئة والآثار المترتبة عليه، حيث تهيأ لي عرضه وما قيل حوله من الشعر الحديث بشكل لا أحسب أن أحداً قبلي قدمه بالصورة التي قدمته فيها.
- إذا كانت وصايا الآباء الشعراء لأبنائهم موجودة في كل عصور الأدب العربي، فإنني لاحظت أن تلك الوصايا في العصر الحديث أخذت طابعاً جديداً ذا معالم منتزعة من روح العصر كالوصايا ذات المضامين الوطنية والاجتماعية مما يختلف كل الاختلاف عن مضامين الوصايا في عصور الأدب السابقة.

- إن أشعار الترقيص التي ناغى بها الآباء والأمهات أولادهم كانت موجهة للذكور والإناث من الأولاد، وليس للذكور وحدهم ورأيت بأن تسميتي لها بـ (أشعار المناغاة) بدل (أشعار الترقيص) هي تسمية جديدة أكثر انطباعاً على مضامين ذلك الشعر العاطفي.
- في شعر الأمومة والبنوة المعاصر مضامين جديدة أوحتها روح العصر، ومن بين تلك المضامين ما أوحاه التغرب للشعراء من الأبناء، من قصائد مشحونة بالعواطف الملتهبة والمتدفقة شوقاً لأمهاتهم.

ومن المضامين الجديدة التي أوحاها العصر، الاحتفال بعيد المرأة العالمي، والاحتفال باليوم المخصص لعيد الأم وقد شارك في ذلك الشعراء والشواعر معاً.

- ومما كان حرياً بلفت انتباهي أنني ألقيت الشعر الذي رثى به الوالدان أبنائهم في العصر الحديث كله من الآباء فقط دون الأمهات، ورغم تتبعي الواسع في مراجع الشعر الحديث لم أجد قصيدة واحدة لأم من الأمهات الشواعر، وأوصلني تتبعي إلى أن شعراء هذا البحث على امتداد فترته الزمنية التي تبلغ ثمانية وخمسين عاماً لم يتوفر فيها من الشاعرات سوى سبع فقط، يقابلهن خمسين شاعراً من الرجال، وبالإضافة إلى قلة عدد تلك الشواعر فقد شاءت الأقدار أن لا تفجع واحدة منهن بموت فلذة كبدها، فليس من المستغرب إذن أننا لم نجد قصيدة من أم في رثاء ولدها في الشعر المعاصر...
- ومما يملؤني اعتزازاً وفخراً أنه من خلال الشعر الذي قمت بجمعه ليكون مادة رسالتي تجمع لدي من ذلك ديوان شعر كامل لسبعة وخمسين شاعراً وشاعرة، هو ديوان شعر الأمومة والبنوة في العصر الحديث، يمكنه أن يضاف إلى الدواوين الأخرى التي تضم فناً من فنون الشعر الحديث.

المصادر

- الأدب العصري في العراق العربي: رفائيل بطي، قسم المنظوم ج1، ج2، المكتبة العربية، بغداد، 1923، ط1 – والمطبعة السلفية، مصر، القاهرة، 1923.
- أدب المرأة العراقية في القرن العشرين: بدوي طبانة، ط2، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1974م.
- أساليب المقالة وتطورها في الأدب العراقي الحديث: منير بكر التكريتي، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1976.
- الإسلام وتنظيم الأسرة – ثبت كامل لأبحاث ومناقاشات المؤتمر الإسلامي (الرباط)، الدار المتحدة للنشر، مطبعة الحرية، بيروت، 1971.
- الإسلام والحضارة العربية: محمد كرد علي، ط2، القاهرة، 1950م.
- الإسلام والمرأة: سعيد الأفغاني، ط3، دار الفكر، 1970م.
- أشعار الترقيص عند العرب: سعيد الديوه جي، طبع وزارة الإعلام، بغداد، طبع بيروت، 1967م.
- الأغاني، لأبي فرج للأصفهاني، طبعة دار الثقافة، بيروت، ط5، 1981.
- الأمالي، لأبي علي القالي، طبعة دار الكتب، د. ت.
- الأمهات: د. أسعد احمد علي، بيروت، دار الرائد العربي، ط2، 1981م.
- الأمومة والطفولة في الإسلام: عبد الغني احمد ناجي، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، د.ت.
- الأمومة والعناية بالطفل: عامرة عبد الرزاق، ط1، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1967.
- البلديات: محمد علي اليعقوبي، عميد الرابطة الأدبية في النجف، المطبعة العلمية في النجف، 1955م.
- بلاغات النساء، لأبي الفضل احمد بن طاهر الملقب بطيفور (تـ 280هـ) مدرسة والدة عباس (الأول) القاهرة، 1980م.
- البيان والتبيين: أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط5، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985م.
- البيت والمدرسة: محمود الجومرد، مطبعة الهدف، الموصل، 1960م.
- تأريخ الأدب العربي: عمر فروخ، طبع دار العلم للملايين، ط3، بيروت، 1981م.
- تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1978م.
- تاريخ الشعر في العصر العباسي: د. يوسف خليف، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1981م.
- تحرير المرأة: قاسم أمين، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1970.
- تحرير المرأة العراقية بين شاعرين – الرصافي والزهاوي: خضر العباسي (صاحب جريدة بغداد)، منشورات دار المستنصرية، د.ت.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لأبي العلي محمد بن عبد الرحمن المباركنوري، مج7، دار الفكر، ط3، (1399هـ-1979م).

- تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي في القرنين التاسع عشر والعشرين: د.دواود سلوم، مطبعة المعارف، بغداد، 1959.
- تطور المرأة عبر التاريخ: باسمة كيال، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1981م.
- الحجاب والسفور: جعفر محمد النقدي، مطبعة الآداب، بغداد، 1348هـ.
- الحماسة البصرية: البصري، طبعة بيروت، عالم الكتب، 1964م.
- خيري الهنداوي – حياته وشعره: د. يوسف عز الدين، بغداد، 1974م.
- الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: تأليف، زينب بنت يوسف فواز العاملي، ط1، بولاق، مصر، 1312هـ.
- ديوان أباريق مهشمة: عبد الوهاب البياتي، ضمن المجموعة الشعرية الكاملة، مج1، بيروت، دار العودة.
- ديوان إبراهيم الوائلي، بغداد، 1981م.
- ديوان ابن الرومي – تحقيق: د. حسين نصار، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مطبعة دار الكتب، 1974.
- ديوان ابو الحسن التهامي (ت416هـ) شرح وتحقيق: د. علي نجيب عطوي، نشر مكتبة الهلال، بيروت، 1986.
- ديوان أبي فراس الحمداني – رواية ابن خالوية، طبع دار صادر، بيروت، د.ت.
- ديوان أحلام الدوالي: حافظ جميل، بغداد، 1972م.
- ديوان احلام الفجر: عبد الصاحب الموسوي، مطبعة المعارف، بغداد، 1951م.
- ديوان أزاهير وأعاصير: كاظم الخلف، بغداد، 1984م.
- ديوان أغاني الشبيبة: زهير القيسي، بغداد، 1981م.
- ديوان أنشودة المطر: بدر شاكر السياب، بيروت، دار مجلة شعر، 1960م.
- ديوان البحتري: تحقيق وشرح – حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، ط2، 1972م.
- ديوان بشار بن برد – جمع وتحقيق: محمد طاهر بن عاشور، نشر الشركة التونسية، 1967م.
- ديوان البياتي: عبد الوهاب البياتي، ط بيروت، دار العودة، مج1.
- ديوان جرير – بشرح محمد بن حبيب: تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، طبع دار المعارف، مصر، مج2، 1971م.
- ديوان الجواهري، جمع وتحقيق: د. إبراهيم السامرائي، د. مهدي المخزومي، د.علي جواد الطاهر، رشيد بكتاش، ط4، بغداد، 1973م.
- ديوان خطوات في الغربة: بلند الحيدري – ضمن المجموعة الشعرية الكاملة، بيروت، 1974م.
- ديوان خواطر ملونة: وديعة الشبيبي، ط1، بغداد، 1990م.
- ديوان رسيس الحب: فطينة النائب، بغداد، 1977م.
- ديوان الرصافي – بشرح مصطفى علي، بغداد، 1986م.

- ديوان رضا الموسوي الهندي (ت362هـ): جمعة السيد موسى الموسوي، وراجعه وعلق عليه د. عبد الصاحب الموسوي، بيروت، ط1، 1988م.
- ديوان الزاوية الخالية: لميعة عباس عمارة، بغداد، 1958م.
- ديوان زبد الأمواج: محمد مهدي البصير، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977م.
- ديوان الزهاوي: بشرح مصطفى علي، بغدد، 1972م.
: بقلم عبد الرزاق الهلالي، دار العودة، بيروت، 1972م.
: د. محمد يوسف نجم، ط1، دار مصر للطباعة، 1955م.
: دار العودة، بيروت، مج1، طبعة 1972.
- ديوان السياب، دار العودة، بيروت، مج1.
- ديوان الشريف الرضي (ت404هـ) إصدار مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، مصورة على الطبعة الأصلية الأولى، د.ت.
- ديوان شظايا ورماد: نازك الملائكة، بيروت، مج2، ضمن المجموعة الكاملة، دار العودة، ط1، 1971م.
- ديوان الشعاع: وليد الأعظمي، بغداد، ط1، 1959.
- ديوان صالح الجعفري: جمع وتحقيق – علي جواد الطاهر وثائر حسن جاسم، طبع وزارة الإعلام، بغداد، 1985م.
- ديوان الصنوبري: احمد بن محمد الحسن الضبي (334هـ) تحقيق: د. إحسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، 1970.
- ديوان ظلام الغيوم: صالح جواد الطعمة، المجموعة الأولى، مطبعة الرابطة، 1950م.
- ديوان عبد الحسين الازري،حققه وضبط كلماته وترجم لاعلامه وعمل الفهارسه: مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، قدم له المرحوم علي الشرقي، مؤسسة النعمان، لبنان – بيروت، د.ت.
- ديوان عبد الرحمن البنا: مطبعة الفرات، بغداد، طبع 1345هـ - 1947م.
- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، شرح وتحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، 1958. (طبع الديوان لأول مرة في فينة عام 1902).
- ديوان علي مرفأ الجراح: محمد جواد الغبان (ديوان مخطوط).
- ديوان علي الشرقي، جمع وتحقيق إبراهيم الوائلي، موسى الكرباسي، يطبع وزارة الإعلام، بغداد، 1979.
- ديوان عواطف وعواصف: علي الشرق، بغداد، 1953م.
- ديوان الغد المشرق: حياة الزبيدي، مطابع دار الأخبار، 1952م.
- ديوان القرطوسي، عبد المنعم القرطوسي، مطبعة النجف، ط2، 1966م.
- ديوان قرارة الموجة: نازك الملائكة، مج2، ط1، ضمن المجموعة الكاملة، 1971م.
- ديوان قيد ولحن: صبرية وعبد الرزاق الحسو، بغداد، مطبعة الوفاء، 1959م.
- ديوان الكوميديا البشرية: اكرم فاضل، بغداد، 1948م.
- ديوان اللباب: الزهاوي، مطبعة الفرات، بغداد، 1928م.
- ديوان لهيب الروح، فطينة النائب، مطبعة المعارف، بغداد، 1955م.

- ديوان محمد رضا الشبيبي، عنيت بنشره الرابطة العلمية والأدبية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1940م.
- ديوان محمد صالح بحر العلوم، ط1965.
ط1968، مطبعة دار التضامن، بغداد.
- ديوان محمد علي اليعقوبي: مطبعة النعمان، النجف، ط1، 1957م.
- ديوان محمد الهاشمي البغدادي: تقديم د. عبد الله البجوري، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1977م.
- ديوان محمود الحبوبي: مطبعة دار النشر والتأليف، النجف، 1948م.
- ديوان المعبد الغريق: السياب، دار العلم للملايين، بيروت 1962م.
- ديوان ملاحم وأزهار: الشيخ محمد بهجت الأثري، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974م.
- ديوان الموشور: عباس شبر، تحقيق: جواد شبر، ط1، 1978م.
- ديوان يسمونه الحب: لميعة عباس عمارة، دار العودة، بيروت، ط1، 1972م.
- رباعيات الحبوبي: ط 1948، النجف، ط 1951.
- الرثاء: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1959م.
- الرثاء في الشعر العربي – جراحات القلوب: محمد حسن أبو ناجي، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1402هـ.
- الرصافي (1867-1945م): د. داود سلوم، مطبعة الحكومة، بغداد، 1966.
- الزواج والطلاق في الإسلام: زكي الدين شعبان، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (1384هـ-1964م).
- سلوة الحزين في موت البنات والبنين: لابن ابي حجلة التلمساني (725/776هـ) تحقيق: مخيمر صالح، عمان، د.ت.
- سنن ابن ماجه (209-273هـ)، السعودية، حققه ووضع فهارسه بالكومبيوتر: محمد مصطفى الأعظمي، ط2، 1984.
- سنن ابي داود: بشرح عون المعبود، لابن قيم الجوزية، دار الفكر، ط2- 1968، ط3-1979م.
- سنن البهيقي – تأليف: أبو بكر احمد بن الحسين بن علي البيهقي، الهند، دائرة المعارف العثمانية، 1355هـ - جـ 1-10، مج10.
- السياب – دراسة في حياته وشعره: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط2، 1972م.
- شاعرات عراقيات معاصرات – سلمان هادي ال طعمة، ط2، 1959، كربلاء، (نسخة مزيدة ومنقحة).
- شاعرات العرب: جمع وتحقيق: عبد البديع صقر، ط1، 1967م.
- الشاعر الثائر محمد باقي الشبيبي (1889-1960) تأليف: عبد الرزاق الهلالي، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1965م.

- الشبيبي الكبير (الشيخ محمد جواد الشبيبي) حياته وشعره: حمودي الحمادي، ط1، النجف، 1972م.
- شرح ديوان الحماسة – للمرزوقي / تحقيق: احمد أمين – عبد السلام هارون: ط2، طبعة القاهرة، 1968م.
- شرح ديوان الاخطل/ تحقيق وشرح: إيليا حاوي، نشر دار الثقافة، بيروت، 1968م.
- شرح ديوان الفرزدق: إيليا حاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، ط1، 1983م.
- شرح ديوان المتنبي – للبرقوقي، ط2، 1938، طبعة (مصورة) عن طبعة بيروت، دار الكتاب العربي، 1986.
- الشعر والشعراء: لابن قتيبة، تحقيق: احمد محمد شاكر، طبع دار المعارف، مصر، 1966م.
- الشعر والشعراء في العراق (1900-1958): احمد أبو سعد، دار المعارف، بيروت، 1959م.
- الشعر العراقي الحديث – مرحلة وتطور: د. جلال الخياط، ط2، بيروت، دار الرائد العربي، 1987م.
- الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه: يوسف عز الدين، المجمع العلمي العراقي، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965م.
- شعراء امويون: دراسة وتحقيق: نوري حمودي القيسي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1982م.
- شعر البصرة في العصر الأموي – دراسة في السياسية والاجتماع: د. عون الشريف قاسم، دار الثقافة، بيروت، 1972م.
- شعراء بغداد من تأسيسها حتى اليوم – علي الخاقاني، ط1، مطبعة أسعد، بغداد، منشورات دار البيان، 1962م.
- شعراء العراق المعاصرون: غازي عبد الحميد الكنين:
ج1، ط1، مطبعة الشباب، بغداد، 1957.
ج2، ط1، مطبعة الشباب، بغداد، 1958.
- شعراء عراقيون: منذر الجبوري، الجمهورية العراقية، وزارة الإعلام، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1977.
- شعراء الغري: علي الخاقاني، النجف، 1954-1956.
- صحيح البخاري بشرح الكرماني، طبع بالمطبعة البهية المصرية، 1937.
- صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية بالقاهرة، د.ت.
- طبقات الشعراء – لابن المعتز، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، طبع دار المعارف، مصر، 1956م.
- الطلاق أبغض الحلال إلى الله: عز الدين بحر العلوم، بغداد، 1958م.
- العائلة والقرابة والزواج ((دراسة تحليلية في تغير نظم العائلة والقرابة والزواج في المجتمع العربي)): د. إحسان محمد السحن، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1981.

- العصر الإسلامي: شوقي ضيف، ط7، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1963م.
- العقد الفريد – لابن عبد ربه الاندلسي، شرح وضبط وتصحيح: احمد أمين، احمد الزين، إبراهيم الأبياري، ط2، القاهرة، 1952، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، العقد الفريد، بطبعة أخرى، طبعة بيروت، تحقيق: محمد سعيد العريان.
- عيون الأخبار – لابن قتيبة، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.
- قوات الوفيات – لمحمد بن شاكر الكتبي (ت 764هـ) تحقيق: د. إحسان عباس، طبع دار صادر، بيروت، 1973م.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال – للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان الفوري – ت 975هـ)، ضبطه وفسر غريبه الشيخ – بكري حياني، صححه ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ – صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، ط5، بيروت، (1401هـ -1981م).
- لسان العرب – لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري (630هـ - 711هـ) طبعة مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة.
- لطائف المعارف: فيها لمواسم العام من الوظائف: تأليف زين الدين رجب الحنبلي، بيروت، دار الجيل، 1975م.
- المجتمع الإنساني في ظل الإسلام: محمد أبو زهرة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1388هـ-1968م/ط2، 1390هـ-1970م.
- المجموعة الشعرية الكاملة: صفاء الحيدري، بيروت، د. ت، مؤسسة ايف للطباعة والتصوير.
- المجموعة الشعرية الكاملة: عاتكة الخزرجي، الكويت، 1986.
- المجموعة الشعرية الكاملة: محمد مهدي البصير، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977.
- المحاسن والمآسي: للبيهقي، طبع دار صادر، بيروت، 1970.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبغاء – لابي القاسم حسين بن محمد الراغب الاصبهاني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1961م.
- محاضرات الشعر العراقي الحديث: عبد الكريم الدجيلي، بغداد، 1959.
- مختارات من ديوان الشاعر عبد الستار القره غولي، ط1، وزارة الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1955م.
- مختارات من الشعر العربي: محمد جواد الغبان (روائع الشعر الحديث) " كتاب مخطوط".
- المرأة بين البيت والمجتمع: البهي الخولي، مكتبة دار العروبة، ط3، القاهرة.
- المرأة الجديد: قاسم امين، طبع القاهرة، 1900م.
- المرأة عبر التاريخ: منوتيك بيير، ترجمة: هزييت عبودي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1979م.
- المرأة العربية عبر التاريخ: احمد عبد احمد، دار التضامن، ط1- 1975، ط2- 1976م.
- المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها: عبد الله عفيفي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، د.ت.

- المرأة في أدب العصر العباسي: واجدة مجيد عبد الله الأطرقجي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981م.
- المرأة في الشعر العراقي الحديث: احمد فياضي المفرجي، مطبعة الجامعة، بغداد، 1958م.
- المرأة في القصة العراقية: شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية، بغداد.
- مروج الذهب للمسعودي: تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، القاهرة، 1964م.
- المستطرف في كل فن مستظرف: لأبي فتح الابشيهي (ت 850 هـ)، طبع بيروت، د.ت، طبعة دار إحياء التراث العربي.
- مسند احمد بن حنبل – وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، المكتب الإسلامي.
- المصنف لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت 2011هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، من منشورات المجلس العلمي، ط1، 1392هـ-1972م.
- المعارك الأدبية حول الدعوة إلى تحرير المرأة في الشعر العراقي الحديث: محمد جواد الغبان (كتاب مخطوط) قدم إلى مؤسسة عبد الحميد شومان المملكة الأردنية الهاشمية، 1996/8/31م.
- معجم العلوم الاجتماعية: إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975.
- معجم ألفاظ القرآن الكريم – إصدار مجمع اللغة العربية في القاهرة، طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط2، 1970م.
- معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: د. احمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، 1978م.
- المعجم الوسيط – إصدار مجمع اللغة العربية في القاهرة.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم: لاحمد بن مصطفى، ط1، 1985م.
- مفردات غريب القرآن للاصفهاني، أعده للنشر وأشرف على طبعه د. محمد احمد خلف الله، مكتبة أنجلو المصرية، 1970م.
- المفضليات: المفضل الضبي، تحقيق: احمد شاكر وعبد السلام هارون، مطبعة المعارف، مصر، ط6، 1979م.
- من شعراؤنا المنسيني: عبد الله الجبوري.
- المنمق في أخبار قريش – محمد بن حبيب (ت 2245) تحقيق: خورشيد احمد فارق، طبعة عالم الكتب، بيروت، ط1، 1985م.
- المنهل الصافي في شعر الرصافي: مختارات أدبية اجتماعية تاريخية أخلاقية للشاعر معروف الرصافي، ط3، مطبعة المعارف، بغداد، 1964م.
- مواهب الجليل لشرح مختصر خليل لأبي عبد محمد بن محمد الحطاب (ت 954هـ)، مكتبة النجاح، ليبيا – طرابلس، د.ت.

- الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء: المرزباني، جمعية نشر الكتب العربية، القاهرة، 1934م.
- نازك الملائكة – دراسات ومختارات: د. عبد الرضا علي، بغداد، ط1، 1987.
- النساء العربيات: كرم البستاني، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، 1964م.
- نقد وتعريف: عبد الله الجبوري، بغداد، 1962م.
- الوحشيات: لأبي تمام الطائي، تحقيق: عبد العزيز الميمني – محمود محمد شاكر، طبع دار المعارف، ط3، 1987م.
- وفيات الأعيان – لابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، طبع دار صادر، بيروت، 1968م.
- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: تأليف – المحدث المتبحر الإمام المحقق العلامة الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي (ت 1104هـ)، عني بنشره وتحقيقه وتذيله الفاضلة المحقق الشيخ محمد الرازي مع تعليقات تحقيقية للشيخ ابن الحسن الشعراني، دار إحياء التراث العربي، لبنان، بيروت، د.ت.
- اليتيم في القرآن والسنة: عز الدين بحر العلوم، ط3، بغداد، 1987م.

قائمة الرسائل الجامعية

- الأمومة والبنوة في التراث العربي حتى نهاية القرن الأول الهجري: رسالة ماجستير، تقدمت بها: انعام داود سلوم، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، قسم اللغة العربية، 1990م.
- التيار الاجتماعي في الشعر العراقي الحديث بين الحربين العالميتين (1914-1945م): رسالة ماجستير تقدمت بها: ابتسام عبد الستار محمد، القاهرة، كلية اللغة العربية، 1979م.
- حركة التطور والتجدد في الشعر العراقي الحديث منذ عام 1870م حتى قيام الحرب العالمية الثانية رسالة ماجستير تقدمت بها: عربية توفيق لازم إلى كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة عام 1958... وقطعت ككتاب في مطبعة الإيمان، بغداد، ط1، 1971.
- الشعر الحر في العراق منذ نشأته حتى عام 1958م – دراسة نقدية، أطروحة ماجستير: يوسف الصائغ، كلية الآداب، جامعة بغداد، قسم اللغة العربية، 1974م.
- الشعر النسوي في العراق وخصائصه الفنية من الحرب العالمية الثانية حتى ثورة تموز 1958، رسالة ماجستير: علي محمد حسين الخالدي، كلية الآداب، جامعة بغداد، قسم اللغة العربية.
- الصلات الأسرية في الشعر العربي قبل الإسلام، رسالة ماجستير تقدم بها: حميد ادم ثويني إلى مجلس كلية الآداب، جامعة بغداد، قسم اللغة العربية، 1981م (مطبوعة بالرونيو).
- الصورة الأدبية في الشعر الأموي، رسالة ماجسيتر تقدم بها: محمد حسين علي الصغير، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1975م.

- الفكر الاشتراكي في الأدب العراقي، رسالة ماجستير تقدم بها: عبد اللطيف عبد الرحمن، جامعة بغداد كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1976م.
- المرأة في الشعر العراقي الحديث (1900-1960)، رسالة دكتوراه تقدمت بها: عربية توفيق لازم، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1983.
- عمل المرأة وأثره على دورها في الأسرة (دراسة اجتماعية ميدانية على النساء العاملات وغير العاملات في مدينة بغداد) رسالة أعدتها: فريال بهجت عزيز، القاهرة، جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، 1981م.

المجلات والصحف

- مجلة الاعتدال: محمد علي البلاغي، النجف، 1357هـ-138م، مج5.
- مجلة أفاق عربية، السنة الرابعة عشرة، 1989.
- مجلة البيان: علي الخاقاني، النجف، 1974، الاعداد 29-30، 17-21، السنة الأولى والثانية، دار البيان.
- مجلة كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، السنة الثانية، ع2، 1395هـ - 1975م، مجلة حولية تصدرها اللجنة الثقافية بالكلية، منشورات جامعة قار يونس.
- مجلة المرأة الحديثة: حمدية الأعرجي، السنة الأولى، 1936، ع (1-2-3) رئيس تحريرها: فاضل قاسم راجي (صحيفة أسبوعية نسائية جامعة).
- جريدة الهاتف: جعفر الخليلي، النجف الاشرف، 1942.